في محراب

الشيخ محمد بن الشيخ حسين

آل أبي خمسين

مؤسسة العروة الوثقى

موقع الأوحد
Awhad.com

في محراب

الشيخ محمد بن الشيخ حسين

آل أبي خمسين

جميع الحقوق محفوظة للناشر

الطبعة الأولى

١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٥م

مؤسسة العروة الوثقى

حارة حريك ـ شارع بكاش

هاتف: ٠١/٥٤٠٩٥٢ ـ ٠٣/٦٠٦٨٢٩

في محراب

الشيخ محمد بن الشيخ حسين

آل أبي خمسين

موسى الهادي

مؤسسة العروة الوثقى

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾

[الزمر: ١٧].

الحمد لله وكفى،

وسلام الله وصلواته على مَن اصطفى،

مِن عباده لا سيّما حبيبه المصطفى، محمد وآله أهل الوفا،

ومَن سار على نهجهم واقتفى، إلى يوم الدين حيث بهم اكتفى،

ومن أعدائهم انتفى...!.

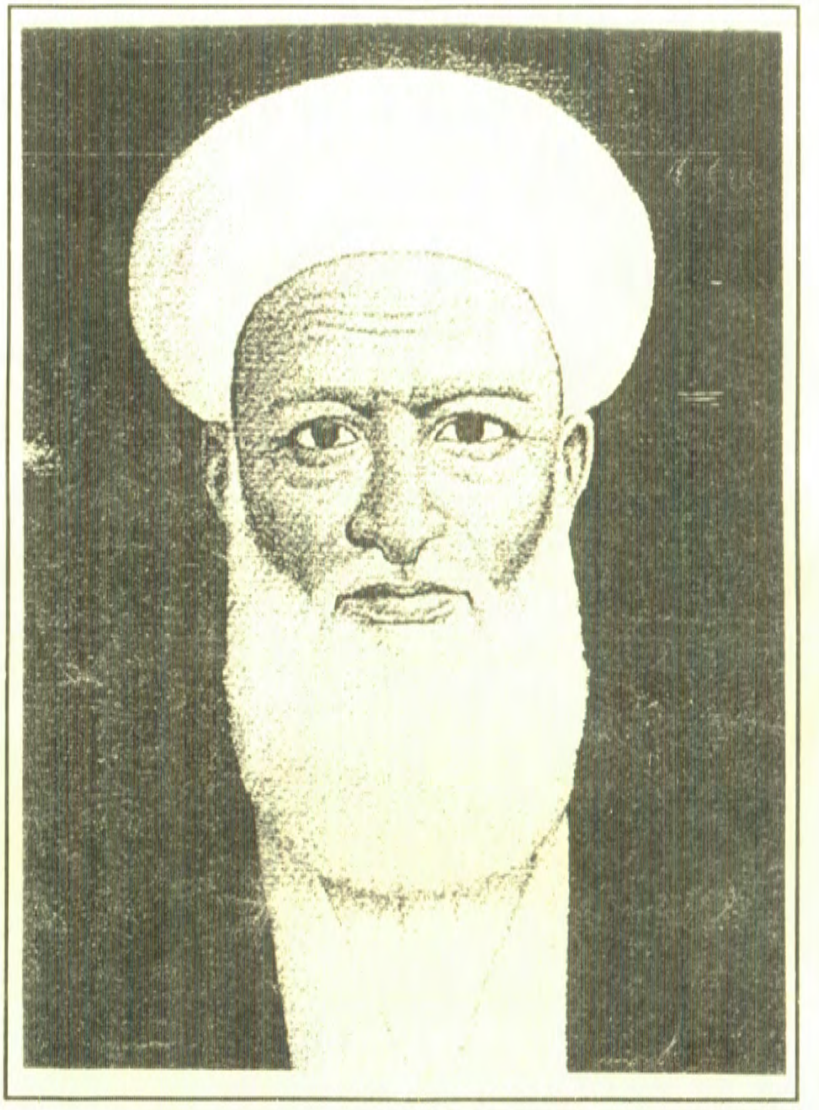

آية الله العظمى المقدّس الشيخ محمد آل أبي خمسين

الإهـــداء

إلى يتامى آل محمد..

إلى أجيال التشيّع ـ بما عانوا من

يتم وحرمان وتشرّد ـ حيثما وُجِدوا..

وإلى أحفاده بل وِلده من أبناء الجيل المعاصر..

أُقدِّم هذا الطود المغمور، مع كل الاعتذار..!

موسى

هـذا كـتـابٌ ضَـمَّ سـيـرةَ عـالِـمٍ
مـن فـضـلِـهِ نـالَ الـعُـلى والـسـؤددا
ورعٍ تـقـيٍّ زاهـدٍ مـتـعـبِّـدٍ
أعـني بـه الحَـبَرَ الـفـقـيـدَ (محـمّـدا)
نـجـل (الـحـسـيـن) ومـن جـلالُ مـقـامِـهِ
وسـمـوُّ مـحـتـدِهِ يَـفـوقُ الـفـرقـدا
قـل فـي (أبـي خـمـسـيـن) خـيـرَ مـقـالـةٍ
فـهـو الإمـامُ المـقـتـدى عَـلَـمُ الهـدى

عبد العزيز العندليب

١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

هذا الكتاب القيِّم

إن سير العظماء والأفذاذ في التاريخ البشري وفي كلِّ مجالات الحياة ليست في الواقع إلا مدارس توعية ومنارات إشعاع يستضيء بها من يطّلع عليها فينتفع بها كما يتّخذ منها القدوة الصالحة في حياته ويستفيد بمعطياتهم في كافّة المضامير وعبرَ الأجيال في الأزمان المتلاحقة، وهذا الكتاب الذي هو بين أيدينا يبحث في سيرة شخصية عظيمة علمية رفيعة القدر عالية المقام لها قيمة كبرىٰ ومكانة سامية بين العلماء في المعارف الإلٰهية وتعاليم الشرع النبويِّ المقدَّس، ذلك هو (الشيخ محمد بن حسين آل أبي خمسين) أنّ تأريخ حياة هذا العالم الجليل الوافرة العطاء وبيان ما كان عليه من عظمة فكرية وابداع في مجال الفقه يُعتبر في الحقيقة إضافةً حقيقيّة إلى المكتبة الرجالية لأنَّ المترجَم له نال محلاً بارزاً ومنزلةً فريدةً بين أقرانه الأمر الذي جعله متميّزاً عنهم فرداً تُشير إليه المعالي بالبنان وتسير بذكره الركبان فكان المبرَّز في ميدانه بحق وأهلاً لأن يكتب عنه أساتذته قبل تلاميذه في تقريظاتهم العديدة ما كتبوه وأن يصفون بأوصاف

الفضل والتبجيل اللائقة بالعظماء وأن يمدحه الشعراء الفضلاء ويرثوه بروائع درر القصائد ولقد استمتعت فعلاً بقراءة هذا الكتاب القيّم والسفر الجامع عن هذا الشيخ الجليل والفقيه الحجّة والعالِم العَلَم العيلم وبحر المعارف الزخّار وطود الفضل الشامخ وسحاب العلم الثجاج تغمَّده الله بواسع رحمته ورضوانه وأنزل عليه شآبيب بركاته وغفرانه وجزاه عن الإسلام وأهله خير الجزاء وحشره في مقعد صدق عنده مع محمد ﷺ الطيبين الطاهرين عليهم أسنى تحياته وأسمىٰ سلامه وصلواته.. والأمل أن يلقىٰ هذا السفر الثمين حقّه من القراءة والاهتمام بجدارة، والله وليّ التوفيق.

كتبه الأقلّ/ عبد العزيز العندليب

الكويت في ذي القعدة ١٤٢٤هـ

الموافق يناير ٢٠٠٤م

المقدمة

نظراً لاعتزازي الكبير بتاريخ اسرتي (البوخمسين) لما قدمت الكثير في خدمة الدين الحنيف والمجتمع في منطقة الإحساء... وانطلاقاً من ثقافتنا الإسلامية التي تؤكد على إحياء تراث العلم والعلماء لما فيها من علو درجة العلماء وتوصيل العلوم إلى الأجيال ليقتدوا بالسيرة، ارتأيت أن أبادر بجمع الآثار متضمناً السيرة الحياتية والشعرية والاجتماعية لاب الأسرة الأول الشيخ محمد بن حسين بوخمسين واخراجه بكتاب للحفظ والاقتداء.

نرجو من الله أن يسدد آل بوخمسين للإقتداء بهم والسير على نهجهم وأن يتقبل منا هذا العمل حيث أن الأعمال الاجتماعية ثوابها يعلو على الأعمال الفردية كما جاء في نصوص الدين وعند المفكرين والعلماء.

جواد بوخمسين

الكويت ٢/ ١١/ ٢٠٠٤م

بسم الله الرحمن الرحيم

ـ ١ ـ

لدى الحديث عن أيّ عظيم، لا يملك المرء إلاّ أن يتجرّد ممّا حوله ولو للحظات حتى يستطيع أن يحلّق في الأجواء التي يريد سبرها، علّه يصل إلى بعض حقائقها لا سيما إذا كان الفاصل الزمني بينه وبين من يريد الحديث عنه واسعاً.

وإذا كان الأمر يتعلّق بعَلَم أو أعلام من رموز التاريخ المعاصر فإنّ الأمر يغدو صعباً إن لم يكن في المصادر المتوفّرة لدينا معلومات كافية عن تلكم الشخصيات. أمّا إذا كانت المسألة متعلّقةً بقبيلة نحاول أن نتلمّس الطريق إلى نسبها الكامل ونرسم شبه شجرة لها، ثم نربطها بأصولها البعيدة ونضيف إليها تفريعاتها القريبة ـ بشكل عابر ـ وبعدئذ الحديث عن رموزها والبارزين من رجالاتها ودورها في مسيرة المجتمع الذي عاشت فيه، فتلك مسألة في غاية المشقّة والتّعقيد، حيث تضرب في عُمق الزمن إلى ما يُقارب الستة قرون، أي منذ عام ٨٥٠هـ منتصف القرن التاسع الهجري..!. وهذه المعضلة هي التي واجهتني حينما أردت الكتابة عن القبيلة ورموزها لا سيما روّادها الكبار كالجدّ الشيخ محمد

الكبير، والعم المقدّس الشيخ محمد (حفيده ومحور دراستنا)، والجدّ المقدّس الشيخ موسى ـ قدس الله أسرارهم ـ حيث بدت المعلومات مضطربةً وغائبةً في مواطن كثيرة من هذا الموضوع، لا سيما القضايا الشخصية. وبرغم شهرة الأسرة وشهرة الرموز وكثرة محبّيهم، إلاّ أن الصعوبات التي واجهتني لم تكن لتخطر لي على بال. فمن أين نحصل على معلومات عن الجماعة الذين غادروا الوادي إلى الأحساء..؟.. وكم عددهم..؟ وما هي أسماؤهم..؟.. وماذا عن المعلومات الشخصية لكل رمز، عن حياته وأسرته، ووالده ووالدته، وآبائه وطفولته، خصوصاً إذا كان يتيماً، فمن يهتم لأمره.؟ وأين أترابه والمحيطون به في صغره، ليُعينونا على تسليط الضوء على نشأته..؟!.. فكان لزاماً عليّ أن ألجأ إلى التحليل والاستنتاج من المعطيات التي توفّرت لي، واعتمدت على الروايات التي سمعتها من الوالد رحمه الله تعالى، أو من الأعمام وفي مقدمتهم العم الراحل العلاّمة الحجّة الشيخ باقر قاضي الأوقاف والمواريث بالأحساء سابقاً، أو غيرهم من الأهل والأقرباء وكبار السنّ من أهل المعرفة، لا سيما من المهتمين بقضايا التراث والتاريخ المعاصر، وفي الطليعة الحاج جواد وأخوه الحاج محمد ابنا الحاج حسين الرمضان جزاهما الله خير الجزاء. وإن كنت هنا مُضيفاً أمراً فإنما تقديم جزيل شكري وعظيم امتناني للأخير، أعني الحاج محمد، على ما قام به من تقديم أورِدُه فيما يلي هذه المقدمة إن شاء المولى القدير، ولا شك أنّه أفاد البحث في تلافي شيء من الأخطاء والتقصير بملاحظات أشرتُ لها في موضعها.

ولرُبّ متسائلٍ يعجب كيف لقبيلة عريقة أن لا تحتفظ بشجرة نسبها..؟!.. إلاّ أن الجواب يتلخّص في أنّ النسب ثابت في العموم ولكن تغيب التفاصيل، لأنّ القبيلة لم تُعد في ذلك المجتمع البدوي الذي يقيم

وزناً كبيراً لشجرة النسب، وإنما في المجتمع الحضري يقلّ الاهتمام بالشجرة، لأن الرابطة القبليّة صقلتها ومازجتها الروابط الاجتماعية والثقافية والمذهبية، وأصبح الانتماء محكوماً بهذه الروابط أكثر من الأولى، فاندماج القبيلة في المجتمع يُذيب عصبيتها، ويُضعف اهتمامها بتفاصيل نسبها.

مع هذا فإنّني أستميح القرّاء عُذراً إن بدا القصور والتقصير فيما قدّمتُ بين يدي القارىء الكريم، وأطلب ممتنّاً من كل مَن يعرف معلومة تُفيد البحث ولم تَرِد في هذه الصفحات، أو لديه تصحيح لما قد يُمكن أن ورد من نقص، أو أخطاء غير مقصودة، ولم نتداركها لقلّة المعلومات، أن يرسل متفضّلاً ما لديه من ملاحظات على العنوان التالي:

ص.ب: ٢٩٨٤ الهفوف ـ الرمز البريدي: ٣١٩٨٢

الأحساء ـ المملكة العربية السعودية

مع الشكر الجزيل، وإلاّ فنرجو الاتصال أو إرسال ما لديهم من جديد إلى أيّ من الأقرباء فنتلافى الخطأ أو النقص أو التقصير في المرات القادمة.

ولعلّ القارىء الفاضل يعلم أنني سبق لي الكتابة عن شخصية تراثية، موغلة في القِدم تفصل بيننا وبينه قرابة الستة قرون، ألا وهو الشيخ الفيلسوف محمد بن أبي جمهور رضوان الله عليه، إلاّ أنني لم أجد المعاناة التي وجدتها لدى الكتابة عن مترجمنا هذه المرة، لأنني في المرة السابقة خدمتني المصادر، إذ كتب عنه الكثير من أهل السيَر، وهو أيضاً كتب عن نفسه، بعكس الوضعية الآن، حيث لا يوجد إلاّ النزر اليسير فيما دُوِّن عن مترجمنا وفي مصادر محدودة جدًّا، لذا قد يجد المدقق بعض الثغرات فنرجو تزويدنا بها كما ذكرت آنفاً.

والله أسأل أن يتجاوز عنّا جميعاً، وأن يُوفّق للحق خطانا ويسدد للصواب رؤانا، إنه نعم المولى والنّصير، والحمد لله ربّ العالمين، وصلّى الله على سيدنا محمد وآله الطاهرين.

الهفوف

المملكة العربية السعودية

موسى الهادي

١٥/ ٤/ ١٤١٨هـ

ـ ٢ ـ

تتباهى الأمم وتفتخر الشعوب برجالها المصلحين، وتعتزّ بشخصياتها في العلم والأدب والسياسة والاجتماع، وتسير مترسمةً خطاهم مستنيرة بأفكارهم، فهم معالم على طريق رقيها الحضاري، ومشاعل تنير لها سبل النجاة، وقدوةً صالحةً تناديهم هكذا يجب أن تكونوا..!.. وتتمايز الأمم والشعوب بكثرة هؤلاء أو قلتهم في الرقي أو التأخر، والرجل العظيم كما قيل يخلق الأمة العظيمة.

ونحن الأحسائيين ـ ولله الحمد ـ لدينا الكثير من الرجال المتميزين في جميع نواحي العلم والمعرفة، وفيما تحتاج إليه الإنسانية في سبيل رقيها الإنساني والحضاري. رجال أدّوا واجبهم في خدمة الأمة في الدين والدنيا، ولكننا ويا للأسف لم نؤدِّ ما علينا تجاههم، وذلك فيما يحفظ للأجيال من تدوين سيَرهم وتخليد ذكراهم والإشادة والتنويه بأعمالهم، بما يكتبه القادر منّا على الكتابة عنهم، وللإنسانية رسالة لا تتم إلاّ بالكتابة والتدوين، أما الحفظ والرواية والمشافهة إلى أمد فيتسرب إليها الخلل والنسيان، لهذا قيل: (يموت العلم بموت حامليه). والرجل المعروف لدى معاصريه، لا بد أن

يكون نكرةً عندما ينقرض الجيل الذي عايشه وعرف عنه الكثير، ولهذا قيل: «اغتنموا صحبة الشيوخ فما فات لا يعوّض». كل هذا يدلّك على أهمية الكتابة وتدوين المعلومات، فهي الوعاء الذي يحفظ السِّيَر والأخبار.

والخط يبقى زماناً بعد كاتبه وكاتب الخط تحت الترب مدفون

وأهمية الكتابة وضرورتها في حفظ الآثار والأخبار، لا تحتاج إلى إقامة حجّة أو تكلّف دليل، إذ لولا الكتابة لما اجتمع للإنسانية هذا الكمّ الهائل من المعلومات في جميع حقول المعرفة، ولا تقدّمت البشرية هذا التقدم الذي نعيشه وننعم بإنجازاته، والقلم أبو الحضارة وأمها، قال تعالى في كتابه المجيد:

﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ [العلق: ٤].

هذه هي أهمية الكتابة والتدوين، فأين نحن الأحسائيون منها..؟. أقول منذ وعيت لما حولي، في الخمسينات من القرن الرابع عشر الهجري، والساحة عندنا في الأحساء، تعجّ بالعشرات من العلماء والأدباء والشعراء ورجال الخطابة وفرسان المنابر، وكلّهم قادرون على الكتابة، وقد ذهب الأكثر منهم، وهذه سُنَّة الحياة، **«تفنى الدنيا قرناً قرناً»** كما يقول أمير المؤمنين عليه السلام في تفسير ما يقول الناقوس.

ذهب هذا الرعيل القادر طبعاً على الكتابة، فرحنا نسأل ذويهم ما الذي ترك هؤلاء..؟. وما دوَّنوه عن معاصريهم من الآثار والأخبار..؟.. فإذا الجواب ويا للأسف: لا شيء..!.

لهذا انقطعت بيننا رسالة القلم، واقتصرت معلوماتنا عمّن سبقنا إلى الحياة في الرواية الشفهية بيننا، فلا نتعرّف على الشخصية التاريخية في مجتمعنا إلاّ عمّن رآها، ثم من رأى من رآها، وهلُمّ جرّا، حتى بهتت

الصورة، وشحبت وتلاشت واضمحلت، فأصبحت المعرفة نكرة، والمعلوم مجهولاً، فالمتحدث عن الماضين يخلط ويتخبّط كما يقول دعبل الخزاعى عن كبره:

أصبحت أُخبر عن أهلي وعن ولدي
كحالمٍ قص رؤياً بعد مُدّكر

وأضرب لذلك مثلاً، ففي سنة ١٤١٦هـ، عندما قرّ الرأي على إقامة مهرجان بمناسبة مرور مائة عام على وفاة العلامة المجاهد الشيخ محمد بن الشيخ حسين آل أبي خمسين طاب ثراه المتوفى إلى رحمة الله سنة ١٣١٦هـ، وهو من هو في علمه وجهاده وشهرته الواسعة، وفضله المنقطع النظير وصيته المدوّي، فما كان من المشرفين على شؤون الذكرى العطرة، إلاّ أن طلبوا من أحد المنتسبين إلى العلم أن يساهم بكلمة في المهرجان، فكان من المدعو جواب في الغاية من الغرابة، معتذراً بأنه لا يعرف شيئاً عن الشيخ صاحب الذكرى..! وفي رأيي أن اللوم لا يقع على هذا الشخص وحده، وإنما يقع بالدرجة الأولى على من تقدمه في الزمان، ولم يدوّن ما علم من عصره ومعاصريه من أعلام المجتمع، وتقصير هذا وأمثاله، هو الذي جعل ذلك المنتسب إلى العلم يعتذر بهذا العذر، وهو من غير اللائق بفرد يعيش في مجتمع كالأحساء، عُرف بوفرة العلماء ورجال الأدب، وجهابذة الفكر وأعلام الشعر في كل زمان. ونحن إذ نلوم من تقدّمنا في التقصير في ما يجب عليه من الكتابة والتعريف بمن أدرك من الشخصيات، ليُفيد من يأتي من بعده، لا ننسى أنفسنا، فعلينا تقع المسؤولية بدورنا، كيلا ينطبق علينا قول الشاعر:

إذا جاء الفتى ما عنه ينهى فمن جهتين لا جهة أساءا

هذه حالنا في الماضي البعيد والقريب، وهي حالة تحمل على الألم،

فمن يحاول الكتابة لا يجد ما يعينه على البحث، أما حاضرنا الراهن فهو يبشر بخير إن شاء الله، والفضل في ذلك يرجع إلى عصامي جليل، كان في منتصف القرن الرابع عشر طالباً للعلم في مدينة النجف الأشرف في العراق، عاش نهضتها الثقافية وانفعل بها وتشبع بروحها، وجّهه منتدى النشر، فأخذ على عاتقه مهمة البحث والتنقيب عن الآثار العلمية والأدبية لرجالات العلم والأدب، كان ذلك في سبيل تأليف كتاب سماه (علماء الأحساء وأدباؤها في التاريخ)، وأخذ وهو مقيم في النجف الأشرف يراسل إخوانه في الأحساء للبحث عن بعض الآثار، عساها توجد لدى بعض الأسر العلمية أو عند من يهتم بالأدب والأدباء، وجَمَع المعلومات عنهم، واستمرّ الحال على ذلك حتى عاد إلى الوطن في حدود سنة ١٣٦٦هـ، فباشر البحث والتنقيب بنفسه وحصل على الكثير من المخطوطات، ولفت أنظار أشخاص من مواطنيه إلى أهمية جمع التراث والبحث عنه، ذلك الرجل الرائد هو الشيخ باقر أبو خمسين طاب ثراه أبو التراث ومحييه:

باقر جامع التراث ومحييه كميَت أتى عليه العفاء

كان رحمه الله تعالى لا يبخل على أحد بما حصل عليه من الآثار والمعلومات، لأن هدفه إحياء التراث ونشره وحفظه من الضياع، ناسياً ما بذله في سبيل الحصول عليه من وقت ثمين، وبذلك مهّد السبيل لمن جاء بعده، وهذه يدٌ تذكَر فتُشكَر. والرجل الثاني هو الأخ الفاضل جواد حسين الرمضان جدّ واجتهد، وبحث ونقّب عن التراث، وضحّى له بوقته الثمين، وتجشّم عناءً شديداً، وبذل من وقته العزيز ما لو بذله في سبيل المال، لكان من أثرى الناس، ولكنها الهواية التي طوّعت له نفسه، وسهّلت له العسير، فاجتمع له كتاب ضخم في عدّة مجلدات سمّاه (مطلع البدرين في تراجم علماء وأدباء الأحساء والقطيف والبحرين). وقد قلت فيه مقرضاً:

أيا مطلع البدرين فيك مطالع ولكنه ظلم على اسمك واقع
ببدرين يُسمى من على كل صفحة تطالع منه للبدور مطالع

ومكتبة الأدب المحلي في حاجة ماسة إلى طبع هذا الكتاب ونشره، ليطلع الأحفاد على مآثر الأجداد في العلم والأدب، حقق الله الآمال وشكر سعي العاملين، وسدّد على الخير خطاهم وحفظ جهودهم من الضياع آمين يا رب العالمين. ومن حسن الحظ أن تأسست في أواخر القرن الرابع عشر الهجري، الحوزة العلمية في دمشق، فكان أن انتسب إليها جماعة من الشباب المتعطّش للعلم والمعرفة، فاستقطبتهم النهضة الثقافية في بلاد الشام وتأثروا بها، فكان منهم العالم والأديب، والخطيب والشاعر والكاتب، فبرزت مواهبهم في مؤلفات مفيدة تراثية تاريخية. وعلى رأس الشباب النابه النشط، الشيخ موسى الهادي فقد أتحف قرّاءه بالعديد من المؤلفات المفيدة، ومنها على سبيل المثال، كتابه عن العلاّمة العرفاني، ابن أبي جمهور الأحسائي طاب ثراه، ومنها ترجمته لجدِّه العلاّمة المصلح، الشيخ موسى طيب الذكر والأثر، وهي أوفى ترجمة كتبت حتى الآن لهذه الشخصية العظيمة عليه الرحمة. وللشيخ موسى الهادي قلم سيال، وقريحة وقادة وبيان مشرق جميل، وهِمّة لا تعرف الكلل حفظه الله، وسدد على طريق الخير خطاه، وقد عرض علي في الآونة الأخيرة كتاباً لا زلنا ننتظره، ونتمنى أن تقرّ عيوننا فتكتحل برؤياه، ألا وهو كتابه عن حياة العلاّمة المجاهد الشيخ محمد آل أبي خمسين طاب ثراه، المتوفى سنة ١٣١٦هـ، وقد بدأ الكتابة عن الشيخ محمد، بعد مائة عام على وفاته رضوان الله عليه، وبعد أن انقرض الجيل الذي عاصر الشيخ، والجيل الذي عاصر من عاصره، ومن علِم ذلك وأخذه بعين الاعتبار، علِم مقدار الجهد الذي بذله كاتبنا الكريم، فهو لم يسلك طريقاً ممهدة، ولم يحصل على مدوّنات

يستقي منها مادة الترجمة، وقد سبق إلى الكتابة عن الشيخ محمد، كثير من المترجمين، ولكنها ترجمات مختصرة تُرضي القارىء ولكنها لا ترضي الدارس المؤلف، كالذي يقرأه المطالع في (أنوار البدرين) و(منتظم الدرين) وغيرهما كثيراً، ولكنه على نسق واحد ووتيرة واحدة، إلا ما كتبه الأخ الفاضل جواد في موسوعته، لهذا يكون الشيخ موسى الهادي، أول من خصَّص كتاباً عن حياة المقدس الشيخ محمد رضوان الله عليه، وهو بحق جدير بأن يكتب عنه وعن جهاده في العلم والعمل كتباً لا كتاباً واحداً، فهو شخصية قيادية متعدّدة الجوانب، فقهية وفلسفية واجتماعية وسياسية وقيادية، وقد مدّ الله له في العمر فتجاوز المئة عام، فمارس في هذا العمر المديد مختلف الأنشطة في الإرشاد والزعامة، وأذكر أنني عندما قلت في رثاء العلامة الميرزا محسن الفضلي المتوفي عام ١٤٠٧هـ.

وأنفق قرناً في جهاد ثماره طوائل جاءت من طويل جهاد

قال أحد السامعين: كأن هذا البيت قيل في الشيخ محمد آل أبي خمسين، قلت له: صدقت..! والشخصيات التاريخية تتشابه، وتلتقي في كثير من الجوانب، والصورة تنطبق على العلاّمتين طاب ثراهما.

بدأ شيخنا الهادي كتابته عن عشيرة الشيخ، وأصلها في النسب العريق، والعرب أمة نسابة تعتمد بالنسب، ومنهم أهل الأحساء. ولا يزالون يؤمنون بتأثيره في بناء الشخصية، ومنه قولهم: (على الأصول تثبت الفروع) فالأصالة في النسب لها عندهم تقدير خاص، يتميّز بالإجلال والإكبار..!

«وآل أبي خمسين عشيرة عريقة النسب ناصعة الحسب، ينتهي نسبها إلى وداعة ثم من وداعة إلى همدان، كبرى قبائل اليمن المشهورة، كان إسلامها على يد الإمام علي عليه السلام، حسُن إسلامها وتشيّعت له ولأولاده من

بعده، وناصرته في صفين وأبلت معه بلاءً حسناً، فكانت من أخلص الموالين له عليه السلام. والشيعة ينظرون إلى قبيلة همدان نظرة إجلال وإكبار، كيف لا وقد نوّه الإمام علي عليه السلام بها، ووسم اسمها بميسم الشرف الذي لا يُنكى ولا يُنسى، وهو الصادق الذي لا يحابي. قال فيهم عليه السلام:

لهمدان أحساب ودين يزينها ... وبأس إذا لاقوا وحسن كلام
ولو كنت بواباً على باب جنة ... لقلت لهمدان ادخلوا بسلام

وقال عليه السلام من كلمة أخرى يشيد بهمدان:

ناديت همدان والأبواب مغلقة ... ومثل همدان سني فتحة الباب
كالهندواني لم تفلل مضاربه ... وجه جميل وقلب غير وجّاب

هكذا كان لهمدان عند الشيعة قدسية لا تضاهى، ومنهم بو خمسين أو آل أبي خمسين، أحد أشهر بيوتات العلم والأدب والزعامة في الأحساء، بيت أنجب الكثير من الشخصيات العلمية التي قدّمت أعظم وأجلّ الخدمات لمواطنيها في العلم والأدب والإرشاد، على رأس هؤلاء الأعلام، الشيخ محمد آل أبي خمسين طيب الذكر، الرجل الذي لا تنسى الأيام ذكره، ولا تمحو أثره، موضوع كتاب الشيخ موسى الهادي، وهو جدير أن نكتب عنه كتباً لا كتاباً واحداً فحسب، لأنه شخصية متعددة الجوانب، موفورة المواهب، بعيدة الأثر في مجتمعه. وُلدت بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى بأربعٍ وثلاثين سنة، وبالتحديد سنة ١٣٥٠هـ ومنذ وعيت الحياة، وفهمت ما يدور على الألسنة في المجالس والمحافل، وجدت أكثر أحاديثهم تدور حول الشيخ محمد، وتعداد مآثره والإشادة بأعماله وآرائه، حتى أنهم يؤرخون الحوادث بسنة وفاته رضوان الله عليه. وهكذا ثبت في ذاكرة أفراد مجتمعه، فكان من الخالدين طاب ثراه، وبعد أن عرّف الكاتب الكريم بعشيرة الشيخ محمد، وإن كانت في غنى عن التعريف بما لها من شهرة لا

تدانيها شهرة، وذكر حسن جميل يتمثّل في رجالها الأعلام وعلمائها العاملين، ذوي الحنكة والدراية والرعاية الدينية والدنيوية المتميزة، وأذكر أنني عندما نظّمت قصيدتي في رثاء الشيخ جواد، عمّ كاتبنا أطال الله عمره، قلت مخاطباً عشيرته الكريمة على سبيل التعزية والمؤاساة قلت فيهم:

وأم العلا فيكم وَلُودٌ ولم يزل لنا منكمُ دوماً إلى الله قائد

ومن كثرت ما بينهم عظماؤهم فسلوانهم سهل إذا غاب واحد

وبعد التعريف بآل أبي خمسين، عشيرة المترجم العريقة وعدد فروعها الكثيرة، وذلك شاهد العراقة في هذه العشيرة العظيمة، بعد ذلك أخذ في الحديث عن نشأة المترجم الشيخ محمد شيخ الشيعة في زمانه، والمرجع الأعلى في إقليمه الخليج العربي من البصرة حتى عمان، وتكلّم عن شيوخه في أخذ العلم وتحصيله، فكان أولهم بالطبع والده الشيخ حسين، أحد أعلام عصره، واغترف من معين معارفه، وتخلّق بأخلاقه الكريمة، وسار على نهجه القويم. ثم أخذ عن الشيوخ من أهل بلده الأحساء، ثم دفعه حبُّه للمزيد، فرحل إلى النجف الأشرف حيث الحوزات العلمية، وأساتذة الفقه العظام، حتى حصل في فترة قصيرة قياسية، على رتبة الاجتهاد بتفوّق ملحوظ، ثم عاد إلى وطنه بالفوز والنجاح، وهو أهل للمرجعية والتقليد، ولكنّ طموحه الشديد ورغبته في الاستزادة، أعادته إلى العراق كرة أخرى متجهاً إلى كربلاء المقدسة، في رحلة عرفانية موفّقة، جعلت منه الرجل الثاني بعد الشيخ الأوحد، مؤسس مدرسة الشيخية العرفانية رضوان الله عليه، والأول بعد شيخه وأستاذه كاظم الرشتي الحسيني، وهناك ترتيب آخر، كان فيه الرجل الثالث بعد الشيخ محمد بن أبي جمهور والشيخ أحمد بن زين الدين الأحسائيين، والثلاثة قد تعرّضوا في بلادهم لنفس الظروف القاسية، مما اضطر الأول والثاني إلى الهجرة عن الوطن،

والتجوال بين العراق وإيران، فكان أن ربحا هذه الشهرة المدوية في الحكمة والعرفان، أما الرجل الثالث، وهو المترجم الشيخ محمد ابن أبي خمسين، فقد ضحّى من أجل خدمة الوطن والمواطنين، فثبت في بلده رغم المصائب والنوائب، والظلم والعسف كالجبل الأشم، لا تزلزله العواصف ولا تزيله القواصف، فكان أكثر الثلاثة خدمة لوطنه، وإن خسر ما ربحاه من الشهرة والصيت، فقد ربح حب المواطنين. فقال فيه شاعرهم:

جرّدته الأحداث سيفاً وشدّته ... إلى الأرض غيرة وانتماء
في ظروف خارت لها عزمات ... واستمرّ الشقا وعمّ البلاء
وحروب مسعورة وكروب ... عندها الخوف والغلا والوباء
حيث لم يبقَ للمقيمين إلاّ ... ذلة أو شهادة أو جلاء
لكن القائد العظيم تصدّى ... فهو للسيل صخرة صمّاء

لم يحصل الشيخ محمد آل أبي خمسين، على ما حصل عليه الشيخ محمد بن أبي جمهور، ولا ما حصل عليه الشيخ الأوحد ابن زين الدين طاب ثراهما، من شهرة وبُعد صيت خارج وطنهما، حيث عاشا في بيئة عرفت قدرهما في العلم والحكمة، وبقيت شهرة ابن أبي خمسين محليةً، كلّفه ذلك حبه لوطنه ومواطنيه، قدّس الله أرواح الجميع وجزاهم الله خير الجزاء. لقد أبرز كاتبنا القدير بأسلوبه اللبق المشرق، صورة المترجم العلمية من خلال الشهادات والإجازات الممنوحة له من شيوخه، وثنائهم عليه بما تستحقه مؤلفاته في الفقه والحكمة والعرفان، فجاءت صورة رائعة متكاملة ولكن بقي من شخصية الشيخ محمد طاب ثراه، جانب السيرة العملي والإداري في وطنه ومواطنيه، حيث مضى على تلك السيرة الحكيمة مئة عام من الزمان، وعلى الرغم من ثبوت شخصية الشيخ في ذاكرة مجتمعه ومواطنيه جيلاً بعد جيل، فإن أكثر ما يتحدّثون به عن الشيخ قدّس الله سرّه

هي الكرامات أو ما سمّاه بعضهم بالمعجزات، حيث قال:

وذو المعجزات الباهرات ومن حوى مناقب لا تحصى وقطب الدوائر

وهذه الكرامات أهم جوانب شخصية الشيخ لدى العامة في حديثهم عنه وعن سيرته، حفظوها وأكثروا من روايتها، ولم يتحدّث ولم يتعرّض الكاتب الفاضل في كتابه عن هذه الكرامات من قريب ولا من بعيد، لأنه لم يكتب للعامة وهو الأديب المثقّف وقد قيل:

أشقى الورى من لم تكن نفسه تخصّه إلاّ برأي العوام

وأخيراً أتقدم بجزيل الشكر للشيخ موسى الهادي على ما بذل من جهد ووقت ثمينين، في إبراز صفحة مشرقة من تاريخ بلادنا العزيزة:

والبلاد الرجال لا الزرع والضر عُ وإن فاض خيرها والثراء

والرجال العقول تستنبط العلـ ـم تسري وهمها العلياء

الشاكر لكم جهودكم

محمد بن حسين الشيخ علي الرمضان

حرّر في مدينة الدمام

في ١٠/ ٤/ ١٤١٨هـ

أجل، إنّ هذا الكتاب عن علَم من أهم الشخصيات البارزة في مسيرة المجتمع الأحسائي عبر القرون الخمسة الأخيرة، إذ ساهم في صنع تاريخنا المعاصر، حيث ارتبط اسمه بالكثير من المتغيّرات في القرن الماضي. ولقد مضى إلى جوار ربه حميداً منذ مائة عام، إلا أن بصماته لا تزال شاخصةً ملء الأبصار، واسمه يرن ملء الأسماع، ممّا يدل على الأثر البالغ لدوره الكبير الذي قام به ناذراً نفسه لخدمة دينه وبلاده. وبالتالي ستُسلّطُ الأضواء عليه وعلى طائفته، دون أن يعني ذلك أنّ الكتاب طائفيّ، أو يُثير نزعةً طائفية، فالحديث عن وضع طائفة تسكن هذه المنطقة، ودور واحد من أبرز رجالاتها في جمع كلمتها وإعادة القوّة لكيانها الاجتماعي.

هذا الرجل لم يرتضِ لشخصيته المتألّقة مكانةً أقلّ من أن يظلّ والداً بارّاً للمجتمع، وقدوةً صالحةً للأجيال عبر تحمّله للمهام العلمية والدينية، وتصدّيه المستمر لمواجهة المصاعب والفتن التي كانت تعصف بالبلاد في زمانه، وقيادته المرجعية الرشيدة التي لاذ بظلّها آنئذ أبناء الطائفة الشيعية في المنطقة، وبعبارة أخرى لم يشأ لنفسه أن يكون مجرّد عابر سبيل، يأتي ويمضي دون أن يلتفت إليه أحد، أو تُشير إليه بنان، أو لا يكون له أثرٌ بل موقف عظيم ورأي جريء في مسيرة المجتمع، وإنما كان له الدور الأكبر

والمكانة الأبرز في إعادة الكيان العام وصياغة مرتكزاته الاجتماعية. ذاك هو العالم الربّاني الفقيه الحكيم المعروف ببحر الله[1] المحيط العلاّمة المقدّس آية الله العظمى الشيخ محمد بن الشيخ حسين بن الشيخ علي آل أبي خَمسين.

وإنني هنا أنتهز الفرصة الطيّبة ـ حيث تسنّى لي أن أكتب عبر هذه الأوراق عن هذا العظيم ـ لأعبّر عن مدى سروري وامتناني لجميع الذين أتاحوا لي مجال البحث وقدّموا لي العون المادّي والمعنوي، كما وأخصّ بعميق الشكر كلّ الذين لم يُقصِّروا في إمدادي بزاد المعلومات حتى أبصر هذا الجهد النور، وحيث لا أنسى موقف فضيلة الشيخ حسن نجل المغفور له العمّ العلاّمة الشيخ باقر الذي وضع بين يديّ كلّ ما لديه من وثائق وتراث تتعلّق بشخصيّة الكتاب، فإني لا أنسى كذلك موقف الأخ منصور بن الحاج محمد الحسين حفيد المترجَم، حيث لم يزل وراء هذا الجهد وحتى اللحظات الأخيرة، كما أقدّم الشكر الجزيل لفضيلة الأديب البارع والمؤرّخ التراثي الكبير الحاج جواد الرمضان الذي لم يدّخر وسعاً ولا جهداً في إمداد هذا العمل بزاد المعلومات، من تراجم للرجال أو تصحيح معلومات تاريخية أو إشارة بقصائد شعريّة. وإن كنت هنا مُضيفاً أمراً فإنما تقديم جزيل شكري وعظيم امتناني لابن الأحساء البار، الأديب الشاعر الحاج محمد بن الحاج حسين الرمضان على ما قام به من تقديم، أضفى على البحث بهاء العرفان بالجميل لروّاد التراث في العصر الراهن، وما أبداه من ملاحظات قيّمة أفادتني شخصياً وأفادت البحث في تلافي بعض الهفوات، والله وليّ السداد.

---

(١) هذه العبارة من ترجمة الحاج جواد الرمضان للمترجم. والحاج جواد الرمضان أديب كبير ومؤرّخ قدير يُعنى بشؤون التراث والأدب، سنتعرّض لترجمته في ص٩٦ إن شاء الله.

الباب الأول:

إبان عهد الطفولة..!

وفيه فصول:

* في ضمير الغيب
* قبيلة آل أبي خمسين
* اسم الشيخ وآباؤه
* مولده ونشأته

الفصل الأول:

في ضمير الغيب..!

يبقى التطوّر أو التغيير مطوياً في رحِم الزمن، حتى تأتي الأيام لتميط عنه اللثام، فتتبلّج الحقائق كالشمس بعدما كانت عدماً، ويشرق العظماء من أصلاب الرجال وأرحام الأمهات، وقد أتى عليهم حينٌ من الدهر لم يكونوا شيئاً مذكوراً. ومع كل إشراقة شمس أو إطلالة أيّ عظيم تتصاعد موجات التاريخ، وتتلوّن حوادثه التغييرية في اطّراد مستمر.

ولكن عندما يتبلّج نور الصباح عن مثل أشعة الشمس الذهبية، فلا بدّ أن تكون المقادير قبل ذلك قد انعقدت من أجلها في جنح الظلام. ولمّا تتفتّق الآفاق في يوم من الأيام عن طلعة عظيمٍ بهيّةٍ، فلا شكّ أنّ حكمة الأقدار قد رسمت خطاها في لوح القضاء، لتكشف الستار عن نور الحقيقة.

وهكذا فإنّ حوادث التاريخ لم تأتِ اعتباطاً بغير سبب، وإنما كانت يد القدر من وراءها، إذ «**شاء الله أن تجري الأمور بأسبابها**».

وفيما نحن بصدد الحديث عن المترجم عندما أطلّ على عالم الشهود، أي بعد أن وطِأت قدماه دروب الحياة، لا بدّ من التعرّف على أرومته..! فنتحدّث قليلاً حول واقع أسرته وبيئته، وكيف كانت الظروف الحياتية في

موطنه، حيث تلعب عوامل الوراثة والبيئة والتربية دوراً رئيساً في صياغة الشخصية لكل فرد، وبتلك العوامل يتمايز الأفراد قوّةً وضعفاً سلباً وإيجاباً. ثُمّ نتناول الحديث عن حال عشيرته قبل ذلك..؟ أي عندما كان في ضمير الغيب..؟

أصل الشيخ ونسبه:

ينتمي الشيخ إلى أُسرة كبيرة وعريقة من أُسر الأحساء البارزة والمعروفة هي أسرة آل أبي خمسين. ذاع صيتها لكثرة العلماء والفضلاء من أبنائها، ومن بينهم برز مجتهدون ومراجع. وتنتمي هذه الأُسرة بدورها في الأصل إلى قبيلة تسمى «الخماسين» المتفرّعة من «بني وداعة» التي اتّخذت من «وادي الدواسر»[1] موطناً لها، في مدينة اتّخذت من اسمهم اسماً لها «الخماسين»، وكل من ينتسب إلى هذا الأصل هو خماسيني ودعاني دوسري.

ومعروف أن بني وداعة ينتمون إلى «همدان» القبيلة اليمنية التي تشتهر بولائها للإمام علي وللأئمة من بنيه عليهم السلام من بعده. وهمدان تنتمي إلى قحطان بن يعرب الذي يرجع بنسبه إلى نبيّ الله «هود» عليه السلام.

ويُروى[2] أن بني وداعة ينقسمون مذهبياً إلى ثلاثة أقسام:

---

(١) يقع وادي الدواسر في الجزء الجنوبي الغربي من هضبة نجد التي تفضي إلى المنطقة الوسطى الفاصلة بين عسير والربع الخالي (المعجم الجغرافي).

(٢) روى لي الشيخ سامي بو خمسين أنه سمع هذا الكلام من المغفور له العم الشيخ باقر بو خمسين استنتاجاً من كتاب لديه، يذكر أن أتباع الحركة الوهّابية عندما هاجموا وادي الدواسر، حاربوا فيه عباد الخيل وعباد الحجر. ويذكر العم الحاج عباس بن الشيخ ياسين بو خمسين ما يؤيد ذلك. وقد التقى الأخ علي بن أحمد محمد الحسين بو خمسين شخصين في الإمارات من أبناء الوادي أصلاً وأيّدوا هذا القول، وقد أفادني الأخ علي بهذا الأمر شخصيًا.

الأوّل: من كانوا ينتمون إلى أحد المذاهب السنّية الأربعة. وهؤلاء موجودن في الوادي إلى يوم الناس هذا، ومن ضمنهم قبيلة «الخماسين» الذين يقطنون «الخماسين» ويتفرّعون إلى سبعة أفخاذ قبلية، وقد كانت توجد علاقات وروابط سابقة بين «آل أبي خمسين» في الأحساء وأبناء عمومتهم في الوادي، لا سيما فيما يتعلّق بشؤون العائلة وقضايا الدم والعاقلة ،حيث كانوا يأتون إلى الأحساء ويأخذون المتوجّب على بو خمسين الأحساء ويمضون. وقد تجدّدت هذه الروابط بعد بعض الزيارات التي قام بها جماعة من كلا الطرفين، سواءً إلى الوادي أم إلى الأحساء والكويت.

الثاني: من كانوا يلقّبون بأنهم «عُبّاد الخيل»، إذ كانوا يهتمون بتربية الخيل والفروسية. وقد رحلوا إلى عمان بعد مغادرتهم الوادي، ولعلهم كانوا أباضيين، لذلك اختاروا عمان حيث الأباضية. ولا نعلم عن حالهم اليوم شيئاً.

الثالث: من كان يقال عنهم «عُبّاد الحجر».. التهمة التي لا تُوجّه في الغالب إلاّ للشيعة لأنهم في سجودهم يضعون الحجر، حيث لا يرون جواز السجود إلاّ على الأرض مستدلين بقوله ﷺ:

«جُعِلت لي الأرض مسجداً وطهوراً».

وقد حدث نزاع بين البيت الذي ينتمي إليه جدّ قبيلة آل أبي خمسين وبين بني عمومتهم في الوادي على بعض الأمور العقائدية، وامتدّت إلى شيء من الممتلكات، فلم يستقرّ بهم المقام في الوادي بل نزحوا مجموعةً إلى الأحساء وفيها استوطنوا، ولعلّ اختيارهم للأحساء كان بسبب التشابه الكبير في الظروف المناخية والبيئية بين الوادي والأحساء، لا سيما وأن

حاكم الأخيرة «أجود بن زامل العقيلي»[1] الذي يمتُّ إليهم بصلة القرابة عن طريق أُمّه، كان قد استضافهم ورحّب بهم للإستيطان عنده حينما التقى بهم في رحاب مكة المكرّمة التي قصدوها بعد خروجهم من الوادي.

هذا ويُحتمل أن يكون الجد الأوّل لقبيلة آل أبي خمسين من هذا القسم، كما يُحتمل أن يكون من القسم الأوّل.

---

(١) هو الأمير الثاني الذي حكم الدولة الجبرية، التي استولت على مقاليد الحكم في الأحساء بعد بني جروان، وجعلوا من المنيزلة عاصمةً لملكهم. وقد تولّى أجود الحكم بعد أخيه المؤسس سيف، في سنة ٨٤٠هـ ، وامتدّ به العمر حاكماً إلى بداية القرن التالي. حيث سقطت دولتهم بعد الاجتياح البرتغالي لمنطقة خليج سنة ٩١٠هـ ،ولكن الحاج محمد حسين الرمضان أفادنا عن المنيزلة كعاصمة للجبريين ضمن ملاحظاته التي أسداها لنا مع التقديم السابق قائلاً: «لم يتّخذ الجبريون عاصمةً لهم، وإنما اكتفوا بالسيادة على البلاد، أما إدارة البلاد وتصريف شؤون الحكم فقد تركوها للزعماء المحلّيين من الشيعة ،وهو ما أُطلق عليه منصب (كبير الرعايا)، وهو تقليد سار عليه المتغلبون على المنطقة بعد القرامطة حتى عهد الحكم السعودي، وكانت هذه القبائل التي تعاقبت على الحكم، تعيش عيشة البداوة في أعماق الصحراء، ولا أدلّ على ذلك من أن تاريخ هؤلاء الحكماء ليس فيه سوى (استولى فلان على الحكم بعد فلان). وأهم ما يتحدّث عنه التاريخ هو صراعاتهم على السلطة ليس إلاّ..! ولم يتحدّث التاريخ عن نظام للحكم ولا للإدارة، وذلك ما سمّاه المسلم في كتابه ساحل الذهب الأسود بحكم الإقطاع. وحتى في الدولة السعودية الأولى والثانية، كان الزعماء المحلّيون وخاصة في القطيف هم الحكّام الإداريون، فقد شغل هذا المنصب وتناوب عليه شخصيات من آل غانم وآل أبي سنان وآل أبي نصر الله. وإلى العهد الذي أدركناه في الخمسينات من القرن الرابع عشر الهجري، كانت القرى الشرقية كلها تخضع للسادة من آل بن محسن في قرية القارة، ولكل قرية شيخ ربما سُمّي أمير، يرجع في المهم من الأمور إلى السادة، والسادة يرجعون في المهم إلى الأمير في الهفوف. وكان للسادة في القارة سجن يسمى على ما أذكر (الصفية) والسيد من آل بن محسن يتصرّف، يأمر وينهى ويؤدّب ويضرب، وحادثة سنبل مشهورة مذكورة قيل فيها شعراً، فقد نُفي بأمر السيد ﷺ إلى الجبيل فقال في ذلك الشيخ حسن بن عيثان على سبيل التبكيت:

سنبل طردناه مشى من آخر الليل ويقول أهلاً ومرحباً بعشاش الجبيل

مما أغضب أهل الجبيل، واستمرّ الحال على ذلك حتى مجيء الشرطة النظامية سنة ١٣٥٦هـ، فتحول مشايخ القرى إلى عُمّد جمع عمدة. كما هو الحال في الوقت الحاضر، والذي حمل المؤلف الفاضل على ما قاله من أن المنيزلة عاصمة الجبريين هو وجود آثار قصر يسمّى قصر أجود، ويُروى أن أجود بن زامل تزوج امرأة من هذه القرية، فبنى على شرفها هذا القصر، ومن هذه الحادثة جاء المثل الشعبي (يستأهل الزين من يبنى له قصور)، وله هنا تعني لأجله، انتهى».

الفصل الثاني:

قبيلة آل أبي خمسين:

بعد قدوم المجموعة الذين اختلفوا مع بني عمومتهم من «الخماسين» إلى الأحساء إبّان عهد أجود المذكور في حدود عام ٨٥٠هـ ، قطنوا في أرض بستان كبير تملّكوه بالشراء يقع إلى الجنوب من قرية اسمها «أبو شافع»[١] وموقعها شمال غرب قرية المنيزلة الحاليّة. وحينما تمّ بناء مدينة «الهفوف» انتقلوا إليها، وسكنوا الجهة الغربية أوّلاً، ثم انتقلوا إلى الجهة الشرقية منها[٢]، في منطقة «الرفعة الوسطى» أو ما يسمّى الآن بـ «الفوارس». وإذا عرفنا أنّ الهفوف[٣] لم تُبنَ إلاّ في القرن العاشر الهجري، ندرك أن هذه القبيلة عاشت في «أبو شافع» قرابة القرن من الزمان. ويذكر الحاج محمد بن الحاج حسين الرمضان[٤] الأديب الشاعر والمؤرّخ المعاصر أن

---

(١) جاء في تقويم سنوي بعنوان (سالنامه ولايت البصرة) الصادر عن الإدارة العثمانية في البصرة عام ١٣١٨هـ ، في صدد الحديث عن الأحساء ما نصّه: (وفي شرق مركز اللواء - يعني الهفوف - على مسافة ساعة، البلدة التي كانت مسكناً لأجود بن زملك، المسمّاة بني شافع وقد خربت من ثلاثمائة سنة، وآثارها باقية حتى الآن، وكانت فيها منارة قائمة إلى استيلاء الدولة على نجد، ثم انهدمت. وفيها عين للماء وهي تجري حتى الآن). نقلنا النص بما فيه من تصحيف واضح، ص ١٣٩.

(٢) دائرة المعارف الإسلاميّة الشيعية ج ٣ ص ٨٢ / للأستاذ السيد حسن الأمين. .

(٣) ذات المصدر حيث يقول: «ويعود تأسيسها إلى أوائل القرن العاشر الهجري حيث أنشأها فاتح باشا في عهد السلطان العثماني سليمان القانوني اتّخذها مركزاً لحكمه».

(٤) أحد كبار الأدباء المعاصرين في الأحساء وسوف ترد له ترجمةً إن شاء الله في آخر الكتاب.

قبيلة آل أبي خمسين إنما تمّ نزوحهم إلى الهفوف في عهد جدهم الوجيه الحاج «أحمد العلي»، ولعله الحاج أحمد بن الحاج إبراهيم بن الحاج علي الذي سوف يرد اسمه في سلسلة آباء المترجم إن شاء الله قريباً.

ولما استوطن هؤلاء القوم واستقرّ بهم المقام في الأحساء، اندمجوا مع المواطنين وأصبحوا جزءاً لا يتجزّأ من أهل البلاد. ونظراً لصعوبة التلفظ بالاسم القبلي «الخماسين» تعارف الناس على إطلاق لقب «آل أبي خمسين» أو «أبو خمسين» وتُلفظ أحياناً «بو خمسين» لسهولة التلفّظ به وتداوله على الألسن، وصارت القبيلة تعرف باللهجة الدارجة «البو خمسين». ويُذكر أن سبب تغيّر الاسم من الخماسين إلى بو خمسين هو انتخاء أحد أجدادهم الأوائل حينما هوجم ذات مرة بقوله: (لا أوخذ وأنا بو خمسين) فصار هذا الانتخاء اسماً علَماً له ولِولده من بعده.

وكان صقر بن أبي بكر بن سالم الخماسيني الودعاني الدوسري زعيم الجماعة الذين قدموا من الوادي، قد عيّنه أجود السالف الذكر قائداً في جيشه، فانضمّ معه بقية أقاربه للجيش، إلى أن شاءت الأقدار أن يندمج صقر في المجتمع الأحسائي ويتأثّر بموروثاته الاجتماعية والثقافية وربما العقائدية. ولعلّه كان أوّل من صاهر أهل الأحساء، حيث تزوّج من عائلة كريمة من عوائل البلد، فوُلِد له سالمٌ الذي أنجب بدوره راشداً. ويروي العم الحاج موسى[1] بن الحاج عبد الله بن أحمد البراهيم أنّ عائلة الصاغة بالمبرّز كانت السبّاقة من بين القبائل للتقارب مع هؤلاء النفر وبه كانت سبباً لاندماجهم في المجتمع.

وبمرور الزمن كبُرت الأسرة وأصبحت فروعاً، وامتزجت المواصفات

---

(١) بروايته عن سماحة العلاّمة المرحوم العم الشيخ باقر الذي ظلّ على صلةٍ وثيقة بالعائلة المذكورة حتى توفّاه الله عليه الرحمة والرضوان.

القبلية البدوية بفكر أهل البيت عليهم السلام ونجابة أهل الأحساء، فأثمرت في توجّه هذه القبيلة الفتية لطلب العلم وخدمة المذهب، والاهتمام بشؤون الناس. فقد لعبت هذه الأسرة الكريمة في التاريخ المعاصر لشيعة الأحساء دوراً بارزاً على جميع الأصعدة، دينياً واجتماعياً وسياسياً وتربوياً واقتصادياً، بحيث لا يمكن أن يغفل هذا الدور[1] يقول المرحوم الشيخ كاظم الصحّاف[2] نوّر الله ضريحه عن هذه القبيلة:

«هي عشيرة شريفة وقبيلة عربية منيفة، كرام وأبرار، وسراة وأخيار، ما نزل في محلّتهم نزيل إلاّ وأكرموه، ولا فاضل إلاّ وأعزّوه، ولا عالم إلاّ

---

(١) سيأتي في مطاوي الحديث عن المترجم إشارات لأقوال ممّن كتبوا عنه في حق هذه الأسرة.

(٢) هو الشيخ كاظم بن الشيخ علي بن الشيخ محمد بن الشيخ حسين بن الشيخ ناصر الصحاف الربعي نسبةً إلى ربيعة بن نزار، حفيد وكيل المترجم الذي بعثه إلى الكويت. كان عالماً فصيحاً وأديباً بارعاً وخطيباً مصقعاً وشاعراً مطبوعاً، شهدت له المنابر والمحافل صولات وجولات مشهودة ومحمودة، وُلد بالكويت عام ١٣١٢هـ ، وقال عن نفسه في رسالة أنسابه الموسومة بـ (تذكرة الأشراف في تراجم آل الصحاف) بعد ذكره لأخيه الشيخ حسين أنه: «درس مبادىء العلم على يد أخيه الشيخ حسين فلما انتقل إلى رحمة الله سافر إلى النجف الأشرف فنزل على ضيافة السيد ناصر الأحسائي وجد في دروسه على يد الشيخ سلمان السلمان الأحسائي ثم على يد الخطيب الشهير والعالم الفاضل الشيخ منصور القطيفي، ثم درس الفقه على يد السيد الفاضل محمد بن حسين الصافي النجفي، كما درس الحكمة عند سيد الحكماء الميرزا موسى الحائري في كربلاء، فلما صار أهلاً للعلم والفضل ومحل الورع والعدل اعتمد عليه الميرزا المذكور وأرسله إلى سوق الشيوخ نائباً ووكيلاً مطلقاً في الأحكام الشرعية والحقوق الحسبية، ثم رجع إلى الكويت بأمر الميرزا موسى وولده الميرزا علي، ثم منها إلى الأحساء فنزل في بيت عالمها الأعظم الشيخ موسى بن الحاج عبد الله أبو خمسين أعلا الله مقامه فدرس عنده في علم الحكمة والتوحيد، واستفاد منه ما يريد وأحب. له ديوان شعر بعنوان الدر الثمين في مدح النبي وآله الطاهرين، الدليل الحاسم على فتح الطلاسم ردّاً على إيليا أبي ماضي، ومن كتبه: روضة الرحمن في أحاديث رمضان، البيان في أحوال بدء الإنسان، النور والصواب بين السؤال والجواب، لوح الفوائد ونور المقاصد. وقد وافته المنية في الكويت عام ١٣٩٩هـ / عن مطلع البدرين في تراجم علماء القطيف والأحساء والبحرين ج ٥، القرن الرابع عشر الهجري.

وأيّدوه، ولا وافد إلاّ وأرفدوه جيلاً بعد جيل وقبيلاً بعد قبيل»[1].

وقال الحاج جواد الرمضان في الفصل الأول من مؤلّفه المخطوط حول تراجم آل أبي المكارم عن القبيلة ذاتها ما نصه:

«هذه الأسرة الكريمة تنتهي أصولها إلى قبيلة همدان، قدم جدّهم الأعلى من وادي الدواسر في القرن التاسع الهجري.. ومن علمائهم الشيخ محمد بن أحمد المتوفّى بعد سنة ١١٨١هـ ...»[2].

هذا وقد تفرّعت الأسرة إلى فروع وأفخاذ، لسنا الآن بصدد الاستطراد والتفصيل فيها. ولكن بالإجمال، منهم فرع «الأحمد»، وفرع العلي الشيخ، وفرع آل صالح قطنة البصرة، أبناء الشيخ علي الذين أصبحوا أربعة فروع، هم آل حسين الذي ينتمي إليه شيخنا وآل إبراهيم وآل عبد الله وآل محمد.

---

(١) جزء من مخطوطة تحوي ترجمة لشيخنا المترجم ص ٤.

(٢) من الكتاب المخطوط «أسنى المغانم في تراجم آل أبي المكارم ص ٤٤.

الفصل الثالث:

اسم الشيخ وآباؤه..!

هو العالم الفقيه، والعارف العابد المتألّه، آية الله العظمى المقدّس، الشيخ محمد بن الشيخ حسين (الذي يُنسب إليه فرع آل حسين) بن الشيخ علي، بن الشيخ محمد الكبير بن الحاج أحمد، بن الحاج إبراهيم[١] بن الحاج علي بن الحاج عبد النبي[٢]، بن راشد بن سالم بن صقر، بن أبي بكر بن سالم[٣] الخماسيني الودعاني الهمداني الدوسري الأحسائي الهجري.

والألقاب الثلاثة الأخيرة هي نسبةٌ إلى المواطن المنسوب إليها، وادي الدواسر، الأحساء، هجر على التوالي. وقد حرصنا على التزام الدّقة في هذه السلسلة التي لا نملك وثيقة صريحةً بكل ما ورد فيها من أسماء إلاّ ما عثرنا عليه في أحد كتب المترجم كما أشرنا إليه في الهامش، أي إلى اسم إبراهيم، والباقي أشرنا إلى المصدر الذي استقينا منه المعلومة.

أبوه:

هو الشيخ الفاضل النبيل التقي الكريم الشيخ حسين نجل الشيخ علي

---

(١) أخذنا هذا الاسم من رسالة للمترجم كتبها للشيخ جعفر بن حسين آل ناجم. انظر ص ٣١٣.

(٢) حصلنا على هذا الاسم من العم المكرم الشيخ علي بن الجد المقدس الشيخ موسى بو خمسين. ولعل موضعه قبل الحاج علي المذكور ولداً له، والله أعلم.

(٣) حصلنا على الاسمين الأخيرين (أبو بكر بن سالم) من المكرّم الأديب الحاج جواد الرمضان، نقلاً عن المغفور له سماحة العلاّمة الحجّة العم الشيخ باقر بو خمسين.

آل أبي خمسين وُلد بالهفوف في حدود سنة (١١٧٠هـ)، وتربّى في أسرة علمية وبيت وجاهة وتقوى وعبادة، فدرس على يدي والده الشيخ علي مقدمات النحو والصرف والبلاغة والمنطق والبيان والفقه. ثم ما لبث أن انتقل إلى حوزة الشيخ الأوحد زعيم الأحساء الديني آنئذ الشيخ أحمد بن زين الدين فتتلمذ على يديه، ورُبّما تسنّى له السفر إلى العراق لمواصلة الدراسة في الحوزة العلمية بالنّجف الأشرف إذ توجد لدينا رسالة نادرة كانت مرسلة له من النجف من أحد زملائه أو معارفه نثبتها في آخر الكتاب إن شاء الله (انظر ص ٣١٥). ولم أقع على إجازة له إلاّ أنه تصدّى للعمل الاجتماعي والديني، ولربما كان وكيلاً للمرجع آنذاك. فاضطلع للأمور الحسبية. وفي عهده قام بمزاولة أنشطته في «حسينية البوخمسين»[١]، وفي مسجد الفوارس[٢] قبل دخول التوسعة الحديثة عليهما.

وفي حياته قُرّت عينه برؤية ابنه المترجَم وهو ينال مرتبة الاجتهاد ثم يتبوّأ مقاليد الزعامة والمرجعية في عموم منطقة الخليج، حيث تراجع له عن الصلاة بإمامة الجماعة ورجع في تقليده لابنه[٣]. هذا وقد عاش له من الأبناء اثنان هما الحاج عبد الله والد الشيخ موسى والشيخ محمد (المترجَم). وقد كان فخوراً بعلميّة ابنه، مهتمّاً بتصانيفه، ويشرف على إخراجها ونشرها، بل يقوم بنفسه بكتابة مؤلّفاته كما تُرينا بعض مخطوطاته. ويبدو أنّ الأجل وافاه عام ١٢٦٥هـ[٤].

---

(١) كان المؤسس الأول لها هو الشيخ محمد الكبير ثم دخلت عليها عدّة توسّعات إلى أن تمّ بناؤها الراهن على يدي المغفور له العم الشيخ باقر بو خمسين.

(٢) كذلك أول من أسسه الشيخ محمد الكبير.

(٣) لذلك قصة طريفة سنتحدث عنها في موردها إن شاء الله.

(٤) لم أجد هذا التاريخ في أي مصدر وإنما تُظهر آخر مخطوطة بقلمه أنه عاش إلى منتصف سنة ١٢٦٣هـ، ويذكر بعض الأرحام أنه مات معمّراً، فالاحتمال بأنه بلغ الخامسة والتسعين أو ما بعدها وارد.

ترجم له صاحب أعلام هجر في الجزء الأول من مصنفه صفحة ٢٩٦، وذكر ما كتبه الحاج محمد علي التاجر في كتابه المخطوط (منتظم الدرّين) بقوله: [**إنه كان من العلماء المعاصرين للشيخ أحمد بن زين الدين الأحسائي، والمظنون أن له الرواية عنه**]... كما ونقل عن المصدر نفسه أيضاً قوله: [**عن بعض أرحام المترجم له أنه رآى إجازةً من بعض العلماء لصاحب الترجمة وصفه فيها بأنه «نقطة أنموذج الحكماء»، ولم يُعلم من هو المُجيز..؟ كما لم نعلم أي شيء آخر عن المترجم له..! كما سيأتي ذكر عدد من أعلام هذه الأسرة الجليلة**][1].

جدّه الأوّل:

هو الشيخ علي بن الشيخ محمد الكبير والد الشيخ حسين المزبور، من أعلام القرن الثاني عشر، ولعله من مواليد ١١٢٠هـ وعاش حتى ١٢١٠هـ[2] وإليه تعود الإشارة حين تعداد فروع القبيلة من الجيل الثاني ،حيث كان له أربعة أبناء هم الشيخ حسين وإبراهيم وعبد الله ومحمد، فهو يُعتبر جدّاً لمعظم أبناء القبيلة في الوقت الراهن، وعاش في الهفوف مع ابن عمّه الحاج أحمد بن الحاج علي أخو الشيخ محمد الكبير، الذي يعود إليه أحد فروع الأسرة وهو فرع الأحمد. وكان من أساتيذ ابنه الشيخ حسين، وهو من معاصري الشيخ الأوحد. وقد ورث الزعامة في القبيلة عن والده، كما كان يزاول نشاطاته في محل أبيه بنفس المسجد والحسينية. وقد واجه في أيامه العديد من المحن والشدائد التي عصفت بالبلاد، إلاّ أنه بقي شيخاً للقبيلة والحارة، وملاذاً يلجأ إليه المحتاجون.

---

(١) أعلام هجر ج ١، ص ٢٩٦. وواضح من هذا النص أن للمترجَم له ترجمة في منتظم الدرين.

(٢) يُعتبر أبناء قبيلة آل أبي خمسين من المُعمّرين نسبياً إذ تتفاوت أعمارهم بين ٧٥ـ ١١٠سنة، فعلى هذا الأساس يكون المتوسط ٩٠ سنة تقريباً.

جدّه الثاني:

هو الشيخ محمد بن الحاج أحمد بن الحاج إبراهيم، لُقِّب بـ «الكبير» بعد سطوع نجم حفيده (مترجَمنا)، ولعل اللقب هذا إنما جاء بسبب ما اشتُهِر به من الشجاعة والفروسية وأعمال برّ خيرية إلى جانب كونه شيخ القبيلة وشيخ دين. وكان ذا شخصيّة مرموقة مرهوب الجانب، حيث يُذكر عنه بعض القصص، وقد سمعت من والدي رحمه الله أنه إذا نما إلى سمعه خبر غارة من غارات البدو أو سطو على أحد البساتين، كان يخرج في أعقابهم ولا يعود إلاّ بعد ردّ السليب وطرد المعتدين. ولعله من مواليد الهفوف في أواخر القرن الحادي عشر وكان حيّاً في عام ١١٨٨هـ، حيث توجد لدينا وثيقة تثبت ذلك[1] وهذا يعني أن وفاته كانت بعد هذا التاريخ مما يثبت صحّة ما استنتجناه من أن متوسط العمر لدى أبناء القبيلة يقارب المائة. وقد تمّ تأسيس مسجد الفوارس في عهده وإن كنا لا نعرف بالتحديد سنة إنشائه كما أسس حسينية البوخمسين المعروفة اليوم باسم «المحمدية» نسبةً إليه، فأصبحت مع المسجد مجالاً للنشاطات الدينية والاجتماعية إلى اليوم.

جدّه الثالث:

الحاج أحمد بن الحاج إبراهيم العلي، كان وجيهاً في قومه وأباً مسموع الكلمة، ويُقال إنه كان أول من قدم إلى الهفوف في أواخر القرن العاشر الهجري، ويُروى أن سبب نزوح العائلة من «أبو شافع» هو عدم تسوير القرية، وبالتالي تعرّضها إلى الهجوم المسلّح من قِبَل البدو، الأمر الذي اضطر أهلها ومن بينهم أبناء العمومة إلى التفرّق، والسكنى في مناطق مختلفة مثل الجبيل والفضول والطريبيل وأبو مازن والهفوف. وكما مرّ آنفاً

---

(١) انظر ص ٢٧٠.

حينما قدم بعائلته إلى الهفوف قطن في غربها، ثم ما لبث أن انتقل إلى شرقها حيث أملاك «آل بن فارس» فتملّك بينهم وعاش بعائلته في الحيّ الذي عُرف فيما بعد باسم «الفوارس». وكما سلف القول، له من الأبناء اثنان هما الشيخ محمد الكبير، وعلي جدّ الأحمد، ولعلّه توفّي بالهفوف حوالي عام ١١٥٠هـ.

الفصل الرابع:

مولده ونشأته..!

لقد انبثق هذا العَلَم بعيداً عن دوحه الذي يُنمى إليه فقد وُلِد في إيران من أمّ سيدة علوية، بإحدى القرى من أعمال خراسان. وقد أبصرت عيناه النور سنة ١٢١٠هـ. ولما منعت الظروف المختلفة والدته من المجيء إلى الأحساء برفقة زوجها «الشيخ حسين»، بقي الصبي مع أمه. فترعرع بإيران في بيت السيادة، حيث وجد قلباً حانياً يرعاه واهتماماً ضافياً يلقاه من الكل، فأخذ نصيبه من التعليم، إذ حفظ القرآن الكريم، وتلقّى مبادىء العربية حيث حرِصت والدته على أن يتعلّم العربية من مُعلّم عربي، حسب إرشادات أبيه رغبةً منه في تعلُّم ابنه اللغة العربية وفق أصولها وينطق الحروف من مخارجها.

لقد كان للاهتمام الذي أولته إيّاه أمه السيدة، في غياب أبيه وبُعده عنه، دور كبير في تكوينه النفسي وبناء شخصيته وتكاملها، فقد عوّضته بفيض عواطفها وحسن رعايتها عن الإحساس بالنقص، والشعور باليُتم، لأنه لم يرَ والده مُذ أبصرت عيناه النور، مما دفعه للاعتماد على نفسه وإثبات وجوده، مُتقمِّصاً روح المسؤولية في مرحلة مبكرة من عمره.

العودة إلى الوطن:

عندما بلغ العاشرة من عمره، طلبه والده للمجيء إلى البلاد، فلم يتوانَ

في السفر إذ وطِأت قدماه أرض الجدود، وطنه «الأحساء» سنة ١٢٢٠هـ ليبدأ مرحلةً جديدةً من حياته، حيث عاش في كنف والده ببيت علم وتقوى ومعرفة، وبيت وجاهة دينية واجتماعية. متذوِّقاً لأوّل مرة حلاوة وجود الأب والتفيّؤ بظلاله، فشرع الشيخ الوالد للعناية بابنه يهتمّ لأمره، ويُعنى بتحفيظه القرآن الكريم وتفسيره، كما يحرص على توجيهه وتوعيته، ويُهيّؤه لدور ريادي لا سيما بعدما لمس فيه ملامح النّبوغ والفطنة، والإقبال على العلم بشغف وهمّة، وعرفه بالذكاء والفاعلية. وهكذا ظلّ في رعاية أُسرته وتحت عناية والده، يرتع في مدينة الهفوف بحيّ الرفعة الوسطى، محفوفاً بكلّ ما يمكن أن يتأتّى لصبيّ متميّز في مثل وضعه من مشاعر المحبّة والثقة والتقدير والإعجاب بنباهته، ورزانة سلوكه مع صغر سنّه، وعُرف بين الناس واشتهر بدماثة خلقه لا سيما وأنّ والده كان معروفاً. وبقي في رحاب الوطن حتى شبّ عن الطوق، من غير أن يقع تحت وطأة الفراق، رهينة الشوق لأمّه التي ابتعد عنها ولم يزل قلبه مُتعلّقاً بها[1]، وقد استعان على فراقها بالصبر، و(من صبر ظفر) حتى تمكّن من السفر إليها ورؤيتها بعد حين.

(١) لقد ظلّ على اتصال بأقاربه من جهة الأم إلى آخر حياته، بل ظل الاتصال بهم حتى بعد وفاته.

الباب الثاني:

إبّان عهد الشباب..!

وفيه فصول:

* استراحة المحارب..
* نقطة التحوّل في حياته..
* العودة الثانية إلى الوطن..
* شيوخه وأساتذته..

أقبل الفتى على الدرس وقد تتلمذ إلى جانب والده عند بعض مشائخ الأحساء، وكان من أبرزهم الشيخ أحمد الصفار[1]، فأنهى المقدّمات من نحو وصرف ومنطق وبلاغة وبيان، وعندما بلغ مُترجَمُنا الحُلُم نهل مما شاء له العقل المتفتّح والذهنية الصافية أن ينهل من المعين المحمدي، لا سيما وأن البلاد غنية بالتراث العلمي وبالذّات تراث أهل البيت عليهم السلام، حيث نبغ الكثير من العلماء الفطاحل الذين أترعوا المكتبة الإسلامية بالعديد من أصناف العلوم الدينية والعربية والإنسانية والفكرية، فكانت مساهماتهم العلمية واضحة التأثير في مسيرة الحركة الحوزوية في العالم الشيعي. حتى أن أسماء الأحسائيين كالشيخ «بن أبي جمهور»[2] والشيخ «أحمد بن زين الدين»[3] والشيخ «عبد المحسن اللويمي»[4] قدّس الله أسرارهم تملأ بطون الكتب التي تشيد بهذه الأسماء، فتلامذتهم منتشرون، ورؤاهم مع كتاباتهم في كل مكان، ولا سيما الشيخ الأوحد أحمد بن زين الدين، فآراؤه ودروسه العقائدية في المتناول، وقد وجد شيخنا المنهوم بالحكمة الإلهية ضالّته في

---

(١) سوف نترجم له عندما نتعرّض لأساتذة المترجَم إن شاء الله.

(٢) ولد عام ٨٣٥هـ، وتوفي بعد عام ٩٠١هـ، وللمؤلف كتاب في ترجمته.

(٣) ولد عام ١١٦٠هـ، وتوفي ١٢٤١هـ. عالم مجتهد جليل، وإليه تُنسب المدرسة الشيخية.

(٤) عالم مجتهد كبير هاجر من الأحساء في حوادث ١٢٠٠هـ، واستوطن إيران. ولنا عودة للحديث عنه.

هذه المدرسة الفلسفية المتكاملة، فأقبل على العلم بكلّه، وفيما بعد شدّ إليها الرحيل ليتضلّع في مفاهيمها ويتعمّق في أسرارها عندما سنحت له الفرصة المواتية.

الفصل الأوّل:

استراحة المحارب..!

ما إن شارف على العشرين من عمره حتى قطع شوطاً بعيداً في العلوم الدينية والحكمة وعلم الكلام، والفقه والأصول والعربية التي أجادها بإتقان. وفي حين تمنّى عليه أبوه أن يواصل طلب العلم بشدّ الرحال إلى عاصمة العلم «النجف الأشرف» لبلوغ الإجتهاد، ارتأى هو أن يتريّث قليلاً حيث أكمل نصف دينه، وفيما هو منهمك في ترتيب أموره الحياتية، وفي متطلّباته المعاشية، كان لا ينفكّ من التفكير في مجريات الوضع الأمني المتردّي في بلاده، حيث كان الحكم تحت إدارة الأمراء السابقين من الخوالد الذين عيّنهم آل سعود بعد استيلائهم على الأحساء، ولم يكونوا قادرين على ضبط الأمور إداريًّا وأمنيًّا. فالأوضاع لم تكن تدعو إلى الاطمئنان، وغارات العجمان وبني مُرّة تتعدى على البلاد في عمليّات سطو مسلّح، وحملاتٍ هجوميّة على المناطق السكنية في المدن والأرياف، فيُروّعون الآمنين، ويحرمون الفلاّحين من الارتزاق في بساتينهم بل ويسلبون معائشتهم، مستهدفين المخزون الغذائي ومحاصيل الغلال الزراعية من التمور والحنطة والشعير والأرز، فيقتلون الأبرياء ويدمّرون المساكن والأشجار غير عابئين بقيَمٍ أو إنسان.!

وهل يُرضي هذا الوضع رجلاً حيّ الضمير، يقظ الإحساس كالشيخ محمد..؟

لقد آثر الانتظار وإن تأخّر مشروعه الدراسي أو حتى توقّف، كي يتأمّل الأوضاع ويرى إن كان بالإمكان أن يفعل شيئاً للحيلولة أو الحدّ من تلك الهجمات الشرسة بأي طريقة كانت..! هذا من جانب، ومن جانب آخر، رأى أنّ وضع بيته الاقتصادي بحاجة إلى دعم وتنمية، فوالده الشيخ حسين، وجهٌ اجتماعي بارز، وقلبه كما هو بيته مفتوح للوافدين، وكلّما ألمّت حاجة بأحد فهو المقصود، وكيف له أن يرمِّم جراح المرضى والمسلوبين، ويُعيد الطمأنينة إلى قلوب المروّعين والمفجوعين..؟. وهو أي الوالد، موارده محدودة، وإن كان ـ إلى جانب ما عنده من الممتلكات ـ من المتصدّين للأمور الحسبية والحقوق الشرعية حسب وكالته عن المرجع الديني كما مرّ آنفاً..!.. فهل يقبل شيخنا أن يُضيف إلى أعباء والده المادية عبء سفره بعيداً عنه وعبء عائلته ـ سواءً تركها في البلاد أو اصطحبها معه ـ على عاتق أبيه..؟..!

مزاولة الأعمال الحرّة:

هكذا آثر الشيخ أن يتوجّه لتلبية مُتطلّبات الحياة المادية الجديدة رافضاً أن يكون عالةً على الغير، وفي ذات الوقت عينه على أوضاع مجتمعه المتردّية. فطرق مجالات العمل وما أكثرها والرزق على الله، حيث وجد أمامه مجالي الزراعة وخياطة المشالح، فشمّر عن ساعدي الجِد وخاض ذاك المُعترك بكل عزيمة وقوّة.

لقد كان النجاح حليف الشيخ في كلّ الميادين التي تقلّب فيها لجدّيته وعُلوّ همّته، فهو في المجال الدراسي قد تفوّق حتى بزّ جميع أقرانه، وصار

يلقّب بالشيخ مع أنه لمّا يضع العمامة واللباس الديني بعد..! وفي الميدان الزراعي اشتغل في بساتين والده فصار يعمل بيده ويتصرّف بحكمة في إدارة العمل وتوجيه المُكارِيَة والفلاّحين الذين يصطحبهم معه كلّ صباح، وكان يُلقي في روع المزارعين قول رسول الله ﷺ:

«أحبّ الله أحدكم إذا عمل عملاً أن يُتقنه».

وذلك بالفعل لا بالقول وحسب، حيث أثبتت التجربة أنّ الشيخ كان يتفانى في العمل ويُقدم له أفضل ما عنده من حلول واقتراحات، كما كان يُجدّد في الأساليب العملية المتّبعة فقد ابتكر طريقةً متطوّرةً لتخزين التمور، وذلك حينما قام بتصميم «الجندوج» وهو عبارة عن مستودع ضيّق ومستطيل عرضه ٢ـ ٣ مترات، بينما الطول حسب الإمكان، بشرط إحكام السقف ونظافة الأرض بحيث لا يتسرّب إليه المطر ولا يطاله التراب أو الغبار، ويُصَفّ على أرضه جريد النّخل ليُشكّل قاعدةً خشبية مسطّحةً، يوضَع عليها التمر فتفصله عن الأرض وتعزله عن الرطوبة بالرغم أن التمر في الأساس يكون مُعبّأً في أكياسٍ من خوص النّخيل، وفيما بعد، وحينما ظهر الإسمنت صارت الأرض تُغطّى به، ليُستفاد من جميع الدّبس المنصهر بفعل الضغط والحرارة من أكياس التمر المعروفة بالمصطلح المحلّي «القلال» أو «المحاصن». وبهذه الطريقة الميسورة أُمكِن تخزين التمر لمدّة سنة وأكثر. كما يُعزى إليه العمل على تنظيم وتطوير آلية الرّيّ من «عين الخدود».

أمّا على صعيد خياطة المشالح فقد أقام مشغلاً ضمّ إليه الكثير من العاملين في هذا الحقل، فكان فيهم «مُعزّباً» أي أُستاذاً ورئيساً، وحيث كان يعمل بيده فقد كان يُجيد الصنعة بل أضاف عليها الجديد من وحي إبداعاته ومهارته، فهو لمّا لاحظ أنّ خيوط القصب المُذهّب «الزّري» خلال التطريز

لا تكاد تُغطّي الأرضية الداكنة للعباءة مما يَعيب التطريز المعروف باسم «الكرمك»، ابتكر مُقترِحاً وضع بطانةٍ صفراء مكان القصب قبل البدء بالتطريز، مما أدّى إلى اختفاء لون الأرضية الداكن تماماً حيث أضفى على الكرمك مزيداً من اللمعان والبريق.

وهكذا لم يكن ليرضى بالمستوى العادي في أيّ مجالٍ ولجه، أو أيّ عملٍ تقلّده، وإنما كان دائم الطموح إلى التّفوّق والنّجاح والإبداع، الأمر الذي طبع شخصيته بتميُّزٍ خاصّ جعل القلوب تهوي إليه وتنجذب النفوس نحوه حيث كان محبوباً مهيباً لدى الجميع.

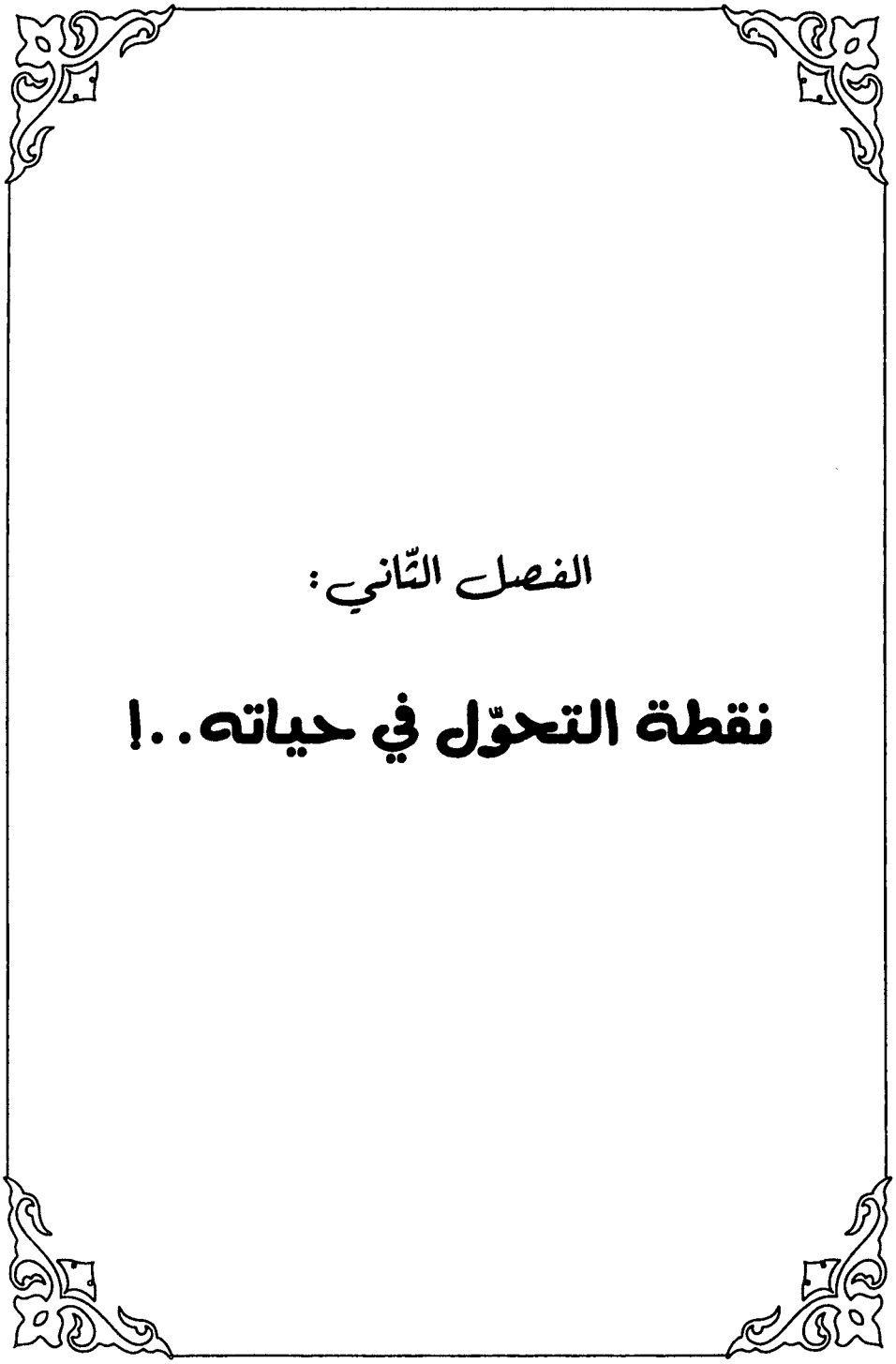

الفصل الثّاني:

نقطة التحوّل في حياته..!

حينما بلغ الخامسة والثلاثين من عمره المديد وهو على الوضع ذاته، يأس والده من إقناعه بمتابعة التحصيل العلمي، برغم ما كان يتمتّع به من مستوىً علمي متقدّم ولا يُدعى إلاّ بالشيخ مع عدم ارتدائه الزّي العلمائي كما أسلفنا. ومع أنّه كان واثقاً من معلوماته وقوّة ذاكرته وسرعة بديهته وجودة حافظته، إلاّ أنّه ذات صباح وبينما كان ملتقياً بأحد زملائه من الدارسين معه عند والده الشيخ حسين، بعد طول فراق وكأنّه أراد معاتبته وتذكيره بالوضع الذي آل إليه، وكيف كان يجب أن يكون.! بادره زميله بمسألة شرعية فارتجّ عليه الجواب بعد أن خانته ذاكرته وغابت عنه المسألة، فألقى عليه مسألةً أخرى، ولم يجد جواباً، وأردف بمسألة ثالثة عجز عنها الشيخ، فغاص في أثواب الخجل، وتصبّب منه العرق، وتمنّى لو ابتلعته الأرض، فما كان من صاحبه إلاّ أن استدار عنه ومضى بعد أن تركه للحسرة وتأنيب الضمير..!.. وأيقن أنها النهاية، ولا بدّ له أن يتدارك نفسه ويحافظ على ما يمتلك من علوم آل محمد ﷺ، وإلاّ فإنّ الحياة بغير العلم موتٌ ما بعده موت. وأنّه لو كان مجتهداً لما استعصت عليه أيّة مسألة، إذ يستطيع أن يستنبط حكمها من الأدلّة الشرعيّة حسب القواعد الأصولية المتّبعة في الاستنباط.

وهكذا قرّر في لحظة حسمٍ صادقةٍ مع نفسه أن يعود سيرته الأولى لينال المرتبة التي تؤهّله للاستنباط، وليُحقّق أُمنية والده الغالية «الاجتهاد»، فعاد إلى المنزل وصفّى أعمال الخياطة، وأعطى عُمّاله حقوقهم، ثم أعدّ العُدّة وشدّ الرّحال عام ١٢٤٥هـ.

متابعة الطريق العلمي:

وصل إلى النّجف الأشرف مدينة العلم والعلماء فحضر على كبار الأساتذة في الحوزة العلمية، كان أشهرهم آية الله الشيخ علي نجل كاشف الغطاء صاحب كتاب الرياض[١]. ومكث بضع سنين مُكبّاً على دروسه بجدّية واهتمام إلى أن بلغ المستوى الذي كان يترقّبه حيث حصل على أولى الإجازات بالاجتهاد من أُستاذه المزبور. ثم ما لبث أن توجّه إلى «كربلاء» حيث حضر عند علمائها الأعلام، ومكث فيها ملِيّاً حتى حصل على عدّة إجازات في الدراية والرواية من كبار فطاحلها كما سيأتي ذكرهم إن شاء الله. يقول المرحوم الشيخ كاظم الصحاف عن هذه المرحلة في ترجمته المخطوطة لمترجَمنا ما نصّه: [**توجّه إلى النّجف الأشرف، فجدّ في دروسه على أيدي فُضلائها والأتقياء من علمائها، حتى أنهى جميع كتب السطوح مُحصّلاً، ثُمّ ارتقى إلى البحث الخارج حاضراً عند منابر فقهاء الدين، ومراجع الشرع المبين، فأقام عندهم مُدّةً من السنين حتى قارب مدرك الاجتهاد وأشرف على نيل السعادة والمُراد، ثم توجّه من النجف إلى كربلاء، فحضر عند علمائها الأعلام ومراجعها حجج الإسلام مُدّةً من السنين والأعوام حتى أدرك الاجتهاد فاستجاز منهم، فأجازوه إجازة دراية واجتهاد لا رواية وإسناد**][٢]. ويبدو أنّ رحلته إلى كربلاء المقدّسة لم تأتِ مباشرةً من

---

(١) سوف ترد له ترجمة في فقرة أساتيذه إن شاء الله.

(٢) صفحة ٣ من المخطوطة المذكورة

النجف، ولكن أتت بعد عودته من النجف الأشرف بنيل إجازة الاجتهاد، إلى بلاده «الأحساء» في سنة ١٢٥٢هـ، والمكوث فيها ملِيّاً ليستأذن أباه في السفر من جديد إلى كربلاء المقدّسات. ذلك ما يمكن استنتاجه من كتابته نفسه في مقدّمة كتابه «**مفاتيح الأنوار في بيان معرفة الأسرار**»[1] وسوف يرد بحول الله تعالى تفصيلٌ حول ذلك.

(١) ورد اسم آخر لهذا الكتاب هو «مفاتيح الأنوار ومصابيح الأسرار»، ولنا عودة وقراءة في هذا الكتاب إن شاء الله.

الفصل الثالث:

عودة الشيخ الثانية إلى وطنه..!

قدم الشيخ الهمام إلى الوطن وقلبه طافح بالغبطة والسرور، والآمال العريضة ترتسم أمام ناظريه، فهنالك مهمّات صعبة وأعمال جسيمة تنتظره بعدما حقّق الحلم الذهبي بنيل درجة الاجتهاد التي تفتح الطريق في وجهه للقيام بتلك المهام، ولطالما تحرّق شوقاً قبل مغادرته بلاده أن تُتاح له الفرصة ويحظى بالمؤهّل العلمي، الذي يتيح له أن يخدم الأهداف التي رسمها للمرحلة القادمة.

هذا وقد كان سروره لفرحة أبيه بنيله الاجتهاد أشدّ من سروره لنفسه بذلك،ولذا كان توّاقاً للحظة لقائه بوالده. ولم يكن ليَرد له على بالٍ أنّ أباه سوف يستنكر رجوعه السريع من مكان دراسته، بعد سبع سنوات فقط منذ أن غادر البلاد طلباً للاجتهاد، معتقداً عدم حصوله على المُراد، من هنا فما إن وقعت عينا أبيه عليه حتى بدت الدهشة على ملامحه، إذ لم يدُر بخَلده أنّ ابنه قد حقّق أُمنية الليالي ونال «الاجتهاد»، لذلك لم يتمالك نفسه من أن يرحّب بابنه العائد من السفر بنغمة لا تخلو من رنّة عتاب.

أدرك الابنُ الحائز على درجة الاجتهاد ما خطر على قلب أبيه، فكبح مشاعره وأمسك نفسه عن أيّة ردّة فعل، تواضُعاً لأبيه واحتراماً كيلا يظهر أبوه وكأنّه أخطأ في التقدير..! وأحجم عن ذكر الحقيقة إلى أن يحين أوانها. ومرّت الأيام وكأنّ شيئاً لم يكن، إذ استمر الشيخ الوالد في تأدية مهامّه

الدينية، وراح الشيخ الابن ـ وكأنه عاد بالخيبة من العراق ـ يزاول بعض الأعمال الاعتيادية التي من ضمنها أعمال البساتين وتعليف الدّوابّ، كما كان يفعل في السّابق. حتى إذا مضت بضعة أسابيع، جاء إلى الأحساء زائراً أحد زملاء الشيخ الابن هو «الشيخ علي بن الشيخ أحمد بن الشيخ حسين آل عبد الجبّار»[1]، من القطيف ليستطلع أوضاع الشيخ المجتهد.!.. ولمّا سأل عن الشيخ محمد أُخذ إلى المسجد حيث كان الشيخ الأب يؤمّ الجماعة في الصلاة. وسأل عن الشيخ الابن فقيل له أنه في البستان، وكان كلّ شيء طبيعيّاً إلى أن انتهى النّهار وأظلم الليل، وعادوا من المسجد وآنئذٍ عاود الشيخ الزائر سؤاله عن صديقه، فأجابه الشيخ الوالد أنه قد وصل لتوّه من النّخل وسوف يحضر إلى المجلس ريثما ينتهي من وضع الأعلاف للدّوابّ. لم يستوعب الزائر ما سمعته أُذناه فأعاد السؤال كرّةً أخرى، ولمّا سمع نفس الجواب، فغر فاه مشدوهاً وتمتم في ذهول:

ـ هل تفضّلتُم أنّ الشيخ محمد العالم المجتهد هو الذي يضع الأعلاف للدّوابّ..؟

أجاب الشيخ الوالد مندهشاً من السؤال بسؤال هو الآخر:

ـ نعم؟ الشيخ محمد مجتهد..؟

ـ أجل إنّه مجتهدٌ ولديه إجازة من عالم النجف الكبير الشيخ علي نجل الشيخ جعفر كاشف الغطاء!!.. ومع ذلك هو الذي يعلّف الدّوابّ يا شيخ..؟ إنها لكبيرة!!!

فما كان من الشيخ حسين إلاّ أن لطم على رأسه وراح يؤنّب نفسه تارةً وتارةً ابنه وهو يقول متندّماً:

---

(١) سوف ترد له ترجمة ضمن معاصريه لاحقاً.

ـ ماذا دهاني..؟ يا ربّ اغفر لي! وسامحك الله يا ولدي، أهكذا تريد أن تحرقني بنارك..؟.. أيصحّ أن تتركني في غفلتي ولا تخبرني بأمر الاجتهاد..؟ وهرع مهروِلاً ينادي ولده العالم «المجتهد» وقد كبُر مراراً في عينيه لفرط تواضعه وحيائه منه، فناداه لا يلؤنّبه ولكن ليعتذر منه أمام صديقه بأسلوب لا يخلو من عتاب لأنه أخّر عليه فرصة الاعتزاز والفخر به أمام جموع المؤمنين في البلاد التي كانت تُعاني من الفراغ القيادي والمرجعي آنئذٍ. وما فتِأ يشيد به وبصفاته وقدراته ولم يُخفِ إعجابه به عن أحد من قاصديه، حتى كان اليوم التالي، فأكّد على اجتماع المؤمنين عند صلاة الجماعة ظهراً، وعندما حان وقتها قام خطيباً في المسجد، وأعلن خبر بلوغ ابنه مرتبة الاجتهاد ومن ثَمّ قدرته على التصدّي لأمور المرجعية والقيادة، كما أعلن عن رجوعه شخصيّاً إليه في التقليد[1]..!

ولبث في الأحساء ملياً يزاول أمور المرجعية محلّيّاً، ولكنّه لم يرضَ بالمستوى الذي وصل إليه، وإنّما ظلّت نفسه تتطلّع إلى دور أكبر، يريد أن يملأ الفراغ الذي خلّفه رحيل الشيخ الأوحد قدس الله سرّه، فالبلاد عطشى ولكن لا سبيل إلى ذلك بغير النهل من مَعينه العذب. الذي لا يوجد إلاّ حيث مدرسته وكبار تلامذته في كربلاء الحسين عليه السلام. ولا يعتبر المرحلة التي مضت من دراسته إلاّ مقدّمةً للوصول إلى تلك الغاية. يقول المترجَم في مقدمة كتابه المُشار إليه سابقاً ما نصّه:

[أني صرفت جوهرة عمري في تحصيل بعض العلوم والآداب، لا سيما الآليّات[2] حيث كنت مكبّاً بالنظر إليها وتفتيش كتبها، والكلام فيها وعليها،

---

(١) سمعت هذه القصة بكامل تفصيلها من سيدي الوالد تغمده الله بواسع رحمته.

(٢) هذه الكلمة جمع آلة وتعني مقدّمات الدروس مثل المنطق آلة التفكير والعربية آلة الفقه، وهكذا.

لأنّ همّي كان في تحصيل كمالات صوريّة ومحاسن ظاهرية، من غير أُنسٍ مني بالمعاني الإلٰهية والحقائق الربّانية والأسرار الباطنية، زعماً مني أن تلك ـ الآليّات ـ هي الغاية القصوى والمقام الأعلى، وأن ليس وراء هذه الغاية غاية ،ولا وراء عبادان قرية، وبقيتُ على هذا الحال شطراً من الزمان ومدّةً من الدهر الخوّان، ..ـ إلى أن يقول: ـ... ولم يزل قلبي يحترق في تلك الأوقات بنار الهيام وفؤادي يتلظّى بسعير الغرام ـ شوقاً إلى لقاء أُستاذه الذي لم يرَه بعد السيد الرشتي ـ تُغرقني العبرة وتحرقني الزفرة، وعيني ساهرة من عدم حصول المنام، وكلّما استأذنتُ فخري وعزّي وسندي ومُعتمدي وشيخي.. والدي العزيز في السفر إلى تلك المشاهد المشرّفة والأماكن المقدّسة.. أمهلني وريّضني، إلى أن خطر ببالي القاصر وذهني الفاتر وقتاً من الأوقات، أن أتشرّف بخدمة بعض الإخوان العزاز لديه وأستعين بهم عليه لعلّه يأذن لي، ففعلت ذلك مِراراً متعدّدة حتى أذن لي][1]

وهكذا نجد أنّه لم يتوجّه إلى كربلاء المقدّسة حيث كان توّاقاً للقاء شيخه وأُستاذه السيّد السند والكهف المعتمد ـ كما وصفه هو ـ جناب الحاج السيد كاظم الرشتي قدّس سره، إلاّ بعد رجوعه لبلاده ومن ثَمّ استئذانه من أبيه للرحيل لمتابعة التحصيل العلمي. ويبدو أنّ المدّة التي قضاها في كربلاء لم تكن قليلة، وبرغم عدم معرفتنا بالسنة التي رحل فيها، إلاّ أنّ فراغه من تأليف الكتاب المذكور كان في كربلاء بتاريخ ١٣/ رجب/ ١٢٥٧هـ، وقد ابتدأ في تأليفه في نفس السفرة، فلعل سفره كان خلال العام ١٢٥٤هـ. كما أنّ تاريخ إجازة السيد الرشتي له إنما كان في ٢٣/ صفر/ ١٢٥٩هـ. وهذا يعني أنّ الشيخ لم يؤب إلى موطنه من كربلاء إلاّ بعد هذا التاريخ.

---

(١) مفاتيح الأنوار ومصابيح الأسرار ـ مع حذف بعض الجُمل ـ ص ٢٣.

الفصل الرابع:

شيوخه وأساتذته..!

يلعب المعلِّم دوراً رئيساً في حياة الفرد، حتى ليكاد أن يكون بمثابة الأب في تأثيره التربوي والتوجيهي، وقد كرّم الإسلام المعلّم وأعطاه مرتبة قصوى في الاحترام والتقدير، حتى نُسب إلى الإمام علي عليه السلام قوله:

«من علَّمني حرفاً كنت له عبداً».

وفي التراث الإسلامي أنّ الإمام السِبط الشهيد الحسين بن علي عليه السلام عندما سمع أحد أبنائه الصغار يقرأ سورة الحمد، فرح فرحاً عظيماً ونادى أُستاذه فحشا فمه بالدّرّ، ولمّا سُئل عن ذلك أجاب قائلاً:

«وأين صنيعي ممّا صنع..!؟..»

لذلك لا نستغرب حينما نقرأ تقريض العلماء لأساتذتهم، وحسن ثنائهم لهم. وشيخنا المترجم يأتي في مقدمة القافلة تبجيلاً ومدحاً لشيوخه ومعلّميه، وقد حاول في كل مرة يرِد فيه اسم واحد منهم أن يوفيه حقّه من التكريم. وهم:

الأولّ: والده **جناب الشيخ حسين بن الشيخ علي آل أبي خمسين،** وقد مرّت ترجمته كما مرّ بنا مدى ما يكنّه له من الإكبار والتقدير بقوله عنه:

[...**فخري وعزّي وسندي ومعتمدي وشيخي، والدي العزيز...**][1].

الثاني: جناب الشيخ أحمد بن الحاج محمّد بن مال الله الصفّار: من أعلام القرن الثالث عشر، ولعلّه من تلامذة الشيخ الأوحد، وهو من سكنة الهفوف وقد يكون من مواليد (١١٩٠ـ ١٢٠٠هـ) إذ كان معاصراً للمترجم بحيث يبدو فارق السّنّ بينهما غير كبير. وقد التحق بالحوزة التي أسّسها مترجَمنا فيما بعد ليصبح الشيخ الصفار أستاذاً فيها، كما وله بعض الرسائل العلمية المتبادلة مع تلميذه المترجَم، وكانت وفاته عام ١٣٠٠هـ.

الثالث: جناب **العلم الفاضل الشيخ علي نجل الشيخ الأكبر جعفر كاشف الغطاء** صاحب كتاب الرياض من أعلام النجف الأشرف وكان له البحث الخارج ومن جملة الحاضرين في بحثه كان شيخنا المترجم حضر لديه حتى أجازه دراية بالاجتهاد وكان ذلك في عام ١٢٥٢هـ. وقد وافته المنيّة في النجف الأشرف سنة ١٢٥٣هـ.

الرابع: جناب السيد كاظم بن السيد قاسم الحسيني الرشتي.. أكبر تلامذة الشيخ الأوحد وحامل لواء مدرسته المعروفة باسم «الشيخية الكشفية»، من أكبر أعلام كربلاء المقدسة، وُلِد في «أردبيل» حوالي عام ١٢١٠هـ ونشأ بها، ولما بلغ الثانية عشرة شدّ الرحال إلى «يزد» حيث يُقيم الشيخ الأوحد والتحق بالدرس لديه، مُلتزماً شيخه المحترم لا يطيق فراقه، يغترف من معينه الفيّاض بكل ما لديه من طاقة بشغف واقتدار. وبقي مع الشيخ حتى اختاره الله إلى جواره، فاعتُبِر بالإجماع رئيساً لمدرسة الشيخ، وبقي ١٧ عاماً يبثُّ تعاليم الشيخ في كربلاء حيث التحق بدرسه مترجمنا الذي يصفه بقوله: [...**قطب الهداية، وعلم الدراية، مبين محكم الآية**

---

(١) نفس المصدر السابق.

والرواية، الذي أنواره مقتبسة من فاضل فلك الولاية، النور اللامع من ضياء الحقيقة المحمدية، والبدر الطالع في سماء الإمام العلوية، والدرة المنيرة الخارجة من الصدفة الفاطمية، والثمرة الجنية الناتجة من الدوحة الحسينية، السيد السند، والكهف المعتمد، عمدة الأفاضل، وزبدة الأعاظم، جناب الحاج السيد كاظم أطال الله بقاءه]. حضر لديه بحثه الخارج لا سيما في الحكمة الإلٰهية، وفي البداية لم يكن يعرف الشيخ، ولكن شيخنا ما لبث أن لفت إليه نظر السيد بهدوئه وتواضعه الجم[1]، واهتمامه بالدرس مع دوام المواظبة عليه، ولما أحب السيد أن يعرف مستوى طلبته سألهم أن يكتبوا أبحاثاً في الحكمة والعقائد، وكانت المفاجأة بالكتاب الذي قدّمه الشيخ المترجم «مفاتيح الأنوار ومصابيح الأسرار»، الذي ما إن رآه السيد حتى حمد الله وأثنى على الشيخ معتِبراً إياه خليفته[2]. وبعدئذٍ منحه إجازةً معنعنةً بالرواية والدراية، لتتوالى عليه الإجازات بعدها من قبل مشايخه الكبار، حتى بلغت أربع عشرة إجازة[3]. وكانت وفاة السيد بكربلاء عام ١٢٥٩هـ قبل أن يبلغ الخمسين من عمره.

الخامس: جناب الحاج الميرزا آية الله حسن كوهر.. من علماء كربلاء وفضلائها وكان ممّن يحضر بحث السيد الرشتي، فصار مترجمنا يحضر في

---

(١) يُروى أن الشيخ الأوحد قبل وفاته ألفت نظره إلى مجيء الشيخ محمد للدرس وأوصاه به خيراً.

(٢) لم يعترف بقية تلامذة السيد بهذه الخلافة، وحاولوا الكيد به، لذلك سارع السيد ﷺ بتهريبه من كربلاء ليصل بالسلامة إلى موطنه، ويُغمر فيه أعلامياً. الأمر الذي أدّى إلى شغور مكان السيد وانقسام المدرسة الشيخية إلى «ركنية» و«كشفية»، وانحراف الباقي مثل البابية. انظر/ عقيدة الشيعة ص ٣٥٠، لمؤلفه الفيلسوف اللاهوتي الغربي.. دوايت م .روننسلس. ولدى الحاج علي بن الحاج محمد الحسين حفيد المترجَم تفاصيل حماية السيد للشيخ وتهريبه إلى موطنه.

(٣) ذكر ذلك الحاج الرمضان نقلاً عن الحاج محمد علي التاجر البحراني في كتابه (منتظم الدرين).

بداية الأمر عنده، واستمر معه إلى أن أجازه في عام ١٢٥٩هـ بالاجتهاد، وكانت وفاته في كربلاء سنة ١٢٦٦هـ.

السادس: جناب الحاج آية الله الميرزا محمد باقر بن محمد سليم الإسكوئي الحائري.. المتوفى بكربلاء سنة ١٣٠١هـ، ودفن بها.

السابع: جناب العالم الكامل العارف البدل حجّة الإسلام الملاّ أبو تراب.. وكان يحضر عنده ساعة بعد الظهر للمباحثة فيما يطرحه جناب السيد من أبحاث. وكانت تلك المباحثة للمترجَم بمثابة الدروس التمهيدية لاستيعاب أبحاث السيد، وقد استمرّ مع الملاّ إلى حين سفره إلى أطراف العجم لينتقل بمباحثته إلى أُستاذه التالي.

الثامن: جناب حجّة الإسلام آية الله المقدّس الشيخ حسين بن مولى قلي الكنجوي.. من أعلام كربلاء، وللمترجم منه إجازة فخمة يعرب فيها عن انطباعاته بعد رؤيته لكتابه مفاتيح الأنوار، وهي إجازة بالاجتهاد والدراية بتاريخ ١٨/ ٢/ ١٢٥٩هـ.

التاسع: جناب حجّة الإسلام آية الله الميرزا محمد حسين التبريزي الملقّب بمحيط الكرماني... حضر عنده للدرس، وله منه إجازة يعترف له فيها بالأفضلية والتفوّق والاجتهاد، وقد أجازه بها بعد إجازة السيد (قد) في شهر صفر من سنة ١٢٥٩هـ.

هذا ولسوف نُثبت في آخر الكتاب صوراً من بعض الإجازات الصادرة للمترجم إن شاء الله تعالى[1].

---

(١) انظر ص ٢٧٢.

الباب الثالث:

إبّان عهد المرجعيّة..!

وفيه فصول:

* فعاليّاته الاجتماعيّة..
* مكانته العلميّة..
* وقالوا فيه..
* حوزته العلميّة وتلامذته..

لقد ابتدأت مرجعيّة الشيخ الحقيقية بعد رجوعه من كربلاء المقدسة مُزوّداً بالعديد من الإجازات التي تتضمّن شهادات في حقّه وعلميّته واقتداره، وقد صدرت من كبار العلماء والمجتهدين. وما أن وطِأت قدماه أرض البلاد حتى هرعت الناس إليه من كل حدب وصوب، مُحتفين به ومبتهجين بمقدمه، وقد انشدّوا إلى شخصيّته الروحانية، مأخوذين بحسن خلُقِه وسماحة نفسه وسعة أُفُقه، ولين عريكته وتواضعه، وغزارة علمه وزهده، فما لبث غير قليل حتى ذاع صيته، وانتشر في عموم منطقة الخليج تقليده، وبان لدى الجميع فضله، ممّا فتح الأبواب أمامه للعمل الجادّ على أكثر من صعيد، يقول الشيخ الصّحّاف ﷾ في مخطوطته عن قدومه والتفاف الناس حوله: [**توجّه إلى بلدنا الأحساء حاملاً هذه الإجازات من هؤلاء العلماء المتّقين والفقهاء المجتهدين، فلما علمت فضلاء بلده وعلماء عصره بإجازاته، ونظرت إلى زهده وقداسته، وسيماء صلاحه وعدالته، رجعوا إليه بالتقليد، فأقام عندهم بأحسن التأييد، إلى أن اشتهر صيته وارتفع فضله ومجده، فكان حينئذ في جهة الأحساء رئيس الملّة والدين، وأعلم الفقهاء المجتهدين، وثَمّ امتدّ صيت**[1] **تقليده إلى البحرين والبصرة،**

(١) في أصل المخطوطة بدل (صيت) صوت..!.. وهذه الفقرة من المخطوطة ص ٤.

والكويت والمحمّرة ودُبي ومسقط وأبي شهر وغيرها].

وهكذا تحقق له أوّل الأهداف المرحلية التي رسمها لنفسه ليواصل المشوار الرسالي بنفس الحماس المعهود فيه.

الفصل الأول:

فعاليّاته الاجتماعية..!

فقد المجتمع تماسكه ومركزيته منذ تعرّضه للعُدوان البرتغالي خلال القرن العاشر الهجري، ثُمّ مجيء العثمانيين لطرد البرتغاليين باستدعاء أبناء المنطقة، وظهور القوة البريطانية على ساحة الحوادث والتطوّرات الإقليمية والمحلّية بعد استدعاء الإيرانيين الصفويين لهم، وكذلك بروز بعض القبائل البدوية المتنافسة على السُّلطة داخلياً مثل الخوالد والعتوب وآل سعود ومن تحالف معهم من القبائل الأخرى. وكان لتواتر الغزوات البدويّة العسكرية، والاضطرابات السياسية والأمنية، الأثر الشديد في عدم استتباب حالة الأمن والاستقرار بالمنطقة. الأمر الذي انعكس على المجتمع الخليجي بشكل عام والأحسائي بشكل خاص تمزُّقاً، وبلبلةً وفوضى، وهجراتٍ فردية وجماعية طالبت في كثير من الأحيان مراكز قوى اجتماعية لا سيما في أوساط علماء الدين، وصراعاً هامشياً على المصالح الصغيرة والنفوذ المحدود، بسبب الدخول في تحالفات جانبية أضرّت كثيراً بالأواصر العائلية والاجتماعية.

تلك كانت حالة المجتمع الذي آب إليه الشيخ بعد رحلة العلم الطويلة، وكان عليه أن يتعاطى مع تلك الأوضاع بحكمة وحذر شديدين. إنّ المجتمع يُعاني من تهدُّم ركائزه، وعليه أن يُرمّم ما استطاع إلى ذلك سبيلاً. وما سبقه من جهد في هذا السبيل إنما كان إرساء المرتكز العقائدي الذي

شيّده الزعيم الأوحد في وقته بالمنطقة «الشيخ أحمد بن زين الدين الأحسائي» (١١٦٦هـ - ١٢٤١هـ) قدس سرّه، وقبله كانت جهود «الشيخ محمد بن أبي جمهور» (٨٣٧هـ - ٩٠١هـ) العلمية، ولكنها بالرغم من شخصيته العملاقة كانت محدودة التأثير، لأنها كانت في غالبيتها في العراق في أوساط الحوزة العلمية، وفي إيران حيث يُعتبر الممهّد الأول لقيام الدولة الصفوية.

ولقد كان شيخنا يُدرك تماماً أنّه لن يستطيع فعل شيءٍ في أوساط المجتمع، إلاّ إذا امتلك مفتاح القلوب وعنان الرقاب، أعني شرعيّة التحرّك في نظر الناس، وذلك بالعمل من منصّة القيادة الدينيّة. ولذلك لم يتوانَ أو يتردّد في مغادرة وطنه إلى العراق مُنتزِعاً نفسه من كلّ أسباب الانشداد إلى الأرض بما في ذلك مباهج الحياة الدنيا التي كان يرفل فيها قبل الرحيل. وقد مرّ بنا مُفصّلاً كيف سافر للدراسة الدينية مرّتين:

الأولى في سنة ١٢٤٥هـ حيث غادر إلى النجف الأشرف، ومكث فيها حتى نال درجة الاجتهاد في الأحكام الفقهية.

والثانية كانت في سنة ٥٤- ١٢٥٦هـ حيث غادر إلى كربلاء المقدّسة، وبقي فيها حتى نال درجات الاجتهاد من كبار فقهائها في الحكمة الإلٰهية.

ولمّا آب إلى موطنه في منتصف عام ١٢٥٩هـ، مُزوّداً بالشهادات العُليا، بدأ مشواره الصعب.

من هذا المنطلق فقد قام الشيخ باتّخاذ مجموعةٍ من الإجراءات العملية التي ساعدته على إعادة ترتيب الأوضاع الاجتماعيّة، وإرساء كيانه الذي ظلّ صامداً إلى اليوم بالرغم من الاضطرابات الأمنية والسياسية التي عصفت به

خلال القرنين الأخيرين. ومن هنا تأتي أهمية الدور الذي قام به الشيخ في منطقة الأحساء بشكلٍ خاص، ومنطقة الخليج بشكلٍ عام، إذ يُعتبر الباني الأول للكيان الشيعي في المنطقة خلال القرون الخمسة الأخيرة. ومن أبرز ما فعله للتصدّي للقضية الاجتماعية.

أولاً: تشكيل لجنة لإصلاح ذات البين..

أمر بتشكيل مجموعة من الرجالات المعروفين لدى المجتمع ومن عدّة مناطق من ذوي الشخصيات القوية المرموقة، كان من بينهم أخوه الوجيه الحاج عبد الله[1] بن الشيخ حسين، والحاج علي بن الحاج عبد الله الأمير الذي كان بمثابة الساعد الأيمن للشيخ[2]، والسيد هاشم بن السيد خليفة الموسوي، والشيخ حسن بن الحاج أحمد الرمضان، والحاج محمد بن الحاج أحمد البغلي المقرّب من الشيخ، والحاج علي بن الحاج محمد الحواج، والحاج عيسى آل عبد الله السلطان وغيرهم، ثم انضم إليهم فيما بعد ابنه الحاج عيسى، فكانوا يتحرّكون معاً بـ «اسم الشيخ» فيمشون في مهمات خيّرة لإصلاح ذات البين، واحتواء كلّ خلاف طارىء، والتأليف بين المتباعدين، أو يرسلهم الشيخ وفداً يمثّله في المناسبات التي يفوته حضورها، وكذلك كان من مهماتهم الركض لإخماد أي توتر طائفي[3] أو

---

(١) كان يكبر الشيخ سنّاً، وكان طويلاً ومهيباً ولم يمشِ في مهمّة إلا وأنجزها، وهو والد الشيخ مؤسس الذي تألّق بعد وفاة المترجم، توفّي في ١٢٩٧هـ.

(٢) كان يتزّعم جماعة من الرجال الأشدّاء التفوا حوله إعجاباً بشجاعته، وقد ساند الشيخ في مسيرته وبالذات في بناء المسجد، حتى قيل: بُني جامع الفوارس بمال الشيخ محمد بو خمسين، وسيف علي الأمير. /ملاحظات الرمضان. وقد ذكر لي البعض أن الشيخ قال: كان لي علي الأمير كما كان الإمام علي للنبي محمد.

(٣) توجد لدينا وثيقة هي رسالة مقدمة من الشيخ المترجَم للسلطان العثماني عبد الحميد الأول نجل السلطان عبد المجيد، وفيها توقيعات كبار رجالات البلاد من مختلف المناطق. انظر ص ٣٢١.

قبلي. كما كانت هذه اللجنة بمثابة ساعده الأيمن للتحرك الاجتماعي، وأداته الفعلية لتنفيذ خططه ومشاريعه.

ثانياً: بناء العلاقات العامة في المجتمع...

تُعتبر العلاقات العامة من الأولويات العملية الهامّة لإقامة مجتمع قويّ متماسك، لما لها ـ كشبكة متكاملة ـ من التأثير المباشر على سير الفعاليات الاجتماعية، ولم يكن ذلك الأمر ليفوت على عقلية فذّة كالشيخ، إذ قام بعدّة جولاتٍ مكّوكية في أرجاء المنطقة بين المدن والقرى بصحبة أفراد من أبرز أعضاء اللجنة، مُمهّداً بذلك فتح أُفُق جديد في الروابط الاجتماعية، حيث كان هو ـ عبر التقليد والمرجعية ـ همزة الوصل بين القوى والمراكز الاجتماعية المختلفة. ونظّم عبر الدّعوات والولائم الهادفة مجموعةً من اللقاءات الهامّة التي جمعت وجوه القوم من كل بلدة ومحلّة، حيث تمّ بمُباركته بينهم التعارف والوئام، ولِيُشكّلوا بعدئذٍ جبهةً داخلية قوية ضمن المجتمع ترعى مصالحه، وتحافظ على وحدته، وقد ساهمت في بقائه متماسكاً إلى الآن.

ثالثاً: مجلس القضاء الشّرعي...

يلعب القضاء دوراً أساسيّاً في تنظيم حياة البشر، بحيث لم يغفله دين سماوي أو قانون وضعي، حتى صار للقضاء سلطة رسمية جنباً إلى جنب مع أختيها، السلطتين التنفيذية والتشريعية. وقد اشترط الإسلام في من يرأس هذه المؤسسة «الاجتهاد» أو مستوى يُقاربه، لذا فإنّ من أولويّات المهام الدينية المناطة في عنق الفقيه، مسألة القضاء الشرعي لحلّ مشاكل الناس وقضاياهم الشخصية والشرعية. ولذكل منذ مقدمه افتتح مجلسه في بيت والده الكبير، واستقبل الناس برحابة صدر، متصدّياً بنفسه لهذه المهمة

الشاقّة، ممّا ساهم في تضميد الجراحات، ولمّ الشّعث وقضاء الحوائج. كما أنّ مجلسه كان مفتوحاً آناء الليل وأطراف النهار، يستقبل أهل الحاجات والقضايا بدون تأفّف ولا تحيّز لفئة أو طائفة، حيث يُذكَر أنه كان معروفاً بالحزم والحنكة والعدل والعلم بأحكام المذاهب السنية تماماً كما هو شأنه في المذهب الجعفري، إذ كثيراً ما ترافع لديه فرقاء من السُّنة لعلمهم بعدله وصوابية حكمه[1]

وقد كان لأحكامه المضاء والتنفيذ، لما كان له من المكانة والوجاهة في أوساط السلطات الحاكمة كما سنرى فيما بعد، وقد تمكّن عبر المجلس القضائي أن يوجّه الكثير من القضايا الاجتماعية في طريق الإصلاح والبناء مما عاد بالنفع لخير التكافل والتماسك الاجتماعي.

رابعاً: مزاولة الأنشطة الدينية...

لقد كان لوجوده بين أبناء المجتمع كعالم دين مجتهد ومرجع تقليد أثرٌ بالغ في إضفاء الروح الإيمانية، ونشر التّديُّن في أوساط المؤمنين، حيث شجّع فيهم حالة الإلتزام بالأخلاق الإسلامية، والقيام بمجموعة من الأعمال العبادية، مستعيناً بمحاضراته وكتاباته الفكرية والعقائدية والأخلاقية، لدفعهم وحضّهم على تطبيق البرامج الدينية المختلفة التي يقدمها لهم ويؤدّيها معهم.

وقد كان لممارساته العبادية وسلوكياته الروحانية وتوجيهاته العرفانية طابعها المميّز في قلوب مقلّديه، حيث تكاثر المريدون وتقاطر عليه

---

(١) ذكر لي الوالد ﷺ أنّ الشيخ قضى مرّةً بحبس زوجة أب بعد وفاة زوجها، وادّعت الحمل فركض أبناء الزوج إلى الشيخ وأخبروه بأمر ادّعائها «العوار» فحكم بحبسها في الدار مع مُراقبتها، ممّا اضطرها بعد سنة ونصف من الحبس أ نتُعلن ثبوت عدم الحمل، وبذلك لم تنل غير نصيبها من الميراث كزوجة.

المحبّون، والتفّ حوله الطالبون. وكانت له أساليبه العملية لاجتذاب المؤمنين نحو الالتزام الديني، فقد عمل على:

١ـ **إقامة صلاة الجماعة بإمامته في المسجد الكبير** الذي شيّده جدّه الشيخ محمد الكبير. وقد تسنّى له أن يُعيد بناءه[1] في عام ١٢٨٦هـ، ويثبت فيه المحراب الذي كان يصلي فيه الشيخ الأوحد، ويجعل لنفسه محراباً آخر، وكان مواظباً على جميع الفرائض بالجماعة، مع التعقيبات والأدعية في اليومية والمناسبات التي أعطى لها اهتماماً خاصّاً، وتقليداً حرص عليه لوقعه المؤثّر حتى من جاء بعده إلى اليوم.

ب ـ **الحرص على إحياء بعض الليالي العظيمة** المسنونة بالصلاة والدعاء جماعيّاً في المسجد بحيث يتشجّع أكبر مجموع من المؤمنين للإحياء، كما في ليلة القدر والغدير وعاشوراء والناصفة، وغيرها كثير.

ج ـ **إقامة محافل التأبين والذّكر وعقد الاحتفالات**، في مناسبات غالية مثل ليالي وفيات المعصومين الأربعة عشر ومواليدهم، بل وتخصيص قسم من الأوقاف الإسلامية لإحيائها وإطعام الطعام فيها. وقد صنّف في مثل هذه المناسبات لا سيما حول موقعة الطّفّ وما جرى على المولى الحسين من مآسي ومصائب إذ جاء برائعة الفخري كما سنرى بحول الله.

د ـ **التشجيع على وقف الأوقاف لصالح إحياء المناسبات** المتعلّقة بالنبي الأعظم ﷺ والأئمة الطاهرين عليهم السلام، الأمر الذي أدّى إلى استمرارية الأنشطة الدينية التي صار يحضرها أباء الجيل الحاضر في أيامنا هذه. ولقد

---

(١) بعد أن تعرّض المسجد المذكور للتخريب على أيدي بعض الهمج الحاقدين في حوادث ١٢١٠هـ ظلّ مُهدّماً لم يبقَ منه قائماً إلاّ الجدار القبلي حيث كان به المحراب الذي صلّى فيه الشيخ الأوحد ولمّا تمّ للمترجَم إنشاؤه قال فيه الشيخ عبد الله الوايل يمدح ويؤرّخ:

ولمّا استوى البنيان قلت مؤرّخاً ... على البر والتقوى بناءٌ مُشيّد (١٢٨٦هـ).

كان سبّاقاً إلى رسم الأوقاف لريع المسجد والحسينية والأنشطة التي تقام فيهما، وقد تبعه في ذلك أبناؤه وبعض أقاربه والمؤمنين بحيث كثُرت الأوقاف لمصلحة النشاطات الدينية.

هـ ـ سيرته الشخصية المتّسمة بالروحانية والزُهد والعرفان، حيث عُرف بكثرة العبادة والتهجّد، ودوام الذكر والدعاء والتسبيح، فكان جل وقته إمّا مع الناس أو مع الله، تقيّاً عفيفاً ورِعاً.

و ـ دروسه العقائدية وأحاديثه الإلٰهية، حيث ساءه أن يرى المجتمع غارقاً في قشريات التديّن الساذج الذي يمكن أن تُؤثر فيه الضغوط الفكرية والثقافية، وحيث كان مُتشرِّباً بفكر الشيخ الأوحد، فقد آلى على نفسه إلاّ أن يغرس الفكر النيّر وعلم أهل البيت الصافي من فلسفات البشر بين مُواطنيه، وبذلك كان أوّل من جاء بفكر الشيخ الأوحد إلى الأحساء، ونشر تعاليمه وثبّت أركانه وصنع جماهيريته.

خامساً: تاسيس الحوزة العلميّة...

وسيأتي الحديث عنها مفصّلاً إن شاء الله في الفصل اللاحق، من خلال توضيح مكانته العلمية ودوره الريادي في مجال نشر العلم والعقيدة.

سادساً: حماية المجتمع من التصدّع الداخلي...

فقد عمل الشيخ على حلّ المشاكل والاضطرابات التي قد تنشأ لسبب أو لآخر، سواء في أوساط العوائل أو بين أهل القرى والمناطق المختلفة. وقد حرص على أن يكون قريباً من الناس في كل مكان، لذلك بثّ في أوساطهم من الشيوخ والعلماء، وبالخصوص من نابهي تلامذته ومعاصريه مَن كانوا يُعايشونهم، ويتفهّمون مشاكلهم ويتلمّسون الحلول لها،

ويُشاركونهم أفراحهم وأتراحهم. مما سجّل للشيخ حضوراً راسخاً في قلوب الناس، أكّد محبتهم وطاعتهم له، وبالتالي تأكُّد ولائهم لمرجعيته.

ولقد كان حريصاً على أن يجعل في كل منطقة واحداً من أبنائها، فإن تعذّر وجوده، شجّع الآباء على إرسال أبنائهم للدراسة في حوزته بالهفوف، الأمر الذي أنتج مجتهدين من مختلف مناطق الأحساء فيما بعد، كالشيخ عمران السليم الفضلي من العمران، والشيخ حسين الممتن من الجبيل، وغيرهم لسنا بصدد تعدادهم الآن.

يقول الشيخ كاظم الصحاف رحمه الله في ترجمته المخطوطة لشيخنا ما نصّه: [..**فلما استقرّت مرجعيتهم إليه، طلبت أهالي الكويت أن يرسل لهم عالماً عاملاً وفقيهاً كاملاً وتقياً فاضلاً، وكان إذ ذاك في مدينة الهفوف أفاضل من العلماء وفطاحل من الفقهاء، فاختار منهم جدّ المترجِم بالكسر، الشيخ الوحيد الأمجد الشيخ محمد بن المقدس الشيخ حسين الصحّاف، فأرسله إلى الكويت نائباً عنه، فسار من الأحساء بكافّة عائلته رجالاً ونساءاً، فأقام فيها موقّراً مُعظَّماً ومُطاعاً مُحترماً، فأسّس أعلى الله مقامه مسجداً للشيعة الإثني عشريّة، وهو أوّل مسجد بُنِي فيها وله وقف مشهور إلى الآن موجود، والمسجد لا يُعرف إلاّ بمسجد الصحاف، فكان في مُدّة حياته جامعاً لكلمتها، ومُؤلّفاً بالمودّة قلوب قبائلها، ومُصلِحاً لكافّة أحوالها..**][1].

سابعاً: مدّ الجسور مع الجهات الرسميّة..

إنّ إقامة جسر من العلاقات والتعاون بين أقطاب ورموز المجتمع لا سيما المرجع الديني إن وُجِد، وبين الجهات الرسمية ممثّلة في أقطاب ورموز السلطة، تُساهم بحق في سيادة جوٍّ من التفاهم الإيجابي، والثقة

---

(١) المخطوطة ص ٥.

المتبادلة لخدمة الصالح العام وتقدّم الوطن. وقيام الشيخ محمد بهذا الدور كان من صميم قناعاته، وأهم أولويّاته، عبر اضطلاعه بدور المسؤوليّة المباشرة، بإظهار روح الأبوّة وتبنّي قضايا المجتمع، في جميع شؤونه الخاصّة والعامّة على الصعيد الرسمي، بحيث أصبح هو المعبّر الحقيقي عن طموحات أبناء المجتمع، والمنفّذ الفعلي لآمالهم وحبّهم للمشاركة الميدانية في بناء الوطن والدفاع عن حياضه.

وقد تخطّى الشيخ بصنيعه الحكيم، عندما تعاون مع الجهة الحاكمة آنذاك، وكانوا من الأتراك والعراقيين، حدود الفئويّة الضيّقة والطائفيّة المقيتة، ومتجاوِزاً كل الفوارق الإقليمية والقومية والعرقية، مؤكّداً على إنسانيّة أبناء المجتمع وولائهم للوطن الأمّ، وحبّهم للدين الذي أمر جميع المسلمين بالاعتصام بحبل الله المتين، ومن ثَمّ

«لا فرق بين عربي وعجمي، وأسود وأبيض إلاّ بالتقوى»..!

ثامناً: المشاركة في صدّ الهجمات الخارجية..

كثيراً ما تعرّضت البلاد لهجومٍ مسلّح من قِبل العصابات البدوية، حيث كانوا يشنّون الغارات على القوافل والمزارع، أو المدن الآمنة والقرى الوادعة فيدخلون الحارات والبيوت، ويروِّعون الآمنين ويسلبون المؤونة ويقطعون الطرق، ويقتلون العزّل والأطفال وقد يعتدون على الحرمات، وقد عرفنا كيف كان الشيخ مُهتمّاً بهذه المسألة منذ أيام شبابه، فكيف يسمح بحدوثه وهو في قمّة المسؤولية ومقتدر على دفعه..؟

لقد كان كثيراً ما يهبّ للدفاع عن البلد حينما تتعرّض للهجوم، ويذهب إلى المسؤولين عارضاً كل إمكانيّاته المادّية والبشرية للمشاركة في الدفاع، بل لم يكن لينتظر إذناً من أحد وإنما يدخل حصن الكوت ويقف مع أفراد

الحامية ليحضّهم على الذود عن الحصن، والحيلولة دون سقوطه.

ولقد كان لفعله المنبعث من إحساسه العميق بالمسؤوليّة، الأثر الجميل في نفوس الجند وأفراد الحامية، إذ لمسوا مبادراته الريادية ومؤهّلاته القياديّة، مما جعل له المكانة الكبرى في نفوسهم، فقدّروه وأكبروه وصاروا يلجأون إليه في الملمّات[1]، بل ارتفع شأنه حتى صار المتصرِّف العثماني يمشي مع معاونيه إلى مجلس الشيخ مبارِكاً في الأعياد، ومُسلّماً زائراً كل أسبوع، الأمر الذي يعكس المنزلة التي حظي بها لدى الدولة، وأولاه إيّاها الباب العالي والتي استمرّت له إلى آخر حياته.

يقول الشيخ كاظم الصحاف في ترجمته المخطوطة: [..فعاش في مدينة

---

(١) ذكر لي الوالد ﷺ وقد أكّد كلامه العمّ المرحوم فضيلة العلاّمة الشيخ باقر قدّس الله سرّه، أنّ الأمير عبد الرحمن جاء في رمضان ١٢٩١هـ إلى الأحساء، والتقى بحلفاء أخيه الأمير سعود من العجمان وغيرهم، حيث أسرع شيوخهم إلى الإلتفاف حوله وأعلنوا الثورة والحرب، وفي البداية قام أتباعه بأعمال مناوئة أدّت إلى إخراج المتصرّف الخالدي الضعيف بتعاون مع النجديين المقيمين في الهفوف، مما أدّى إلى حصار القوات النظامية القليلة في الكوت، وراح العجمان وآل مُرّة كعادتهم ينكّلون بالسكّان الحضر، فينهبون ويرهبون ويسرقون، بل ويقتلون من يعترضهم. حتى إذا ضاق الأتراك بالأمر ذرعاً وساءت أحوالهم، استنجدوا بالشيخ فهبّ لنجدتهم. ولما دخل الكوت أمر المتصرّف أن يطلب النجدة من قيادته في البصرة، وكان الشيخ قد ترك من جماعته مَن يندسّ بين أفراد الجيش الذي يحاصر الحصن ويلتقط الأخبار ثمّ يرسل بها إليه بطريقته الخاصة، فأتاه الخبر أن القوم سيحرقون الأبواب دكّاً بالمدافع، فأمر الأهالي داخل الكوت أن ينقلوا التمور من منازلهم ويُعبّئوا به بوّابات السور، فلم تفعل المدافع في البوابات شيئاً حتى بعد احتراق الأبواب. ثم جاءه الخبر بعدئذٍ أنّ القوم سيحفرون أنفاقاً ليتسلل عبرها الجنود إلى داخل السور، وبعد تحديد مواقع الحفر، أمر بالمقابل أن تُحفَر في نهاية كل نفق حفيرة عميقة واسعة بحيث لا بد وأن ينتهي إليها النفق ولا محالة، ثم أمر بملإ الحفائر ماءً، وكانت المياه متوفّرة عبر الآبار الجوفية المنتشرة داخل الحصن. وعندما انتهى أفراد الجيش الغازي من حفر الأنفاق، فوجئوا بالماء الذي اندفع في الأنفاق فأهلك الكثير منهم غرقاً وترك الباقين لا يلوون على شيء. واستمرّ الوضع على حاله حتى جاء المسدد، ولاذ المهاجمون بالهرب. هذا وتوجد لدينا وثيقة تشير إلى هذه الحادثة نثبتها في آخر الكتاب ص ٣٢٣.

الأحساء مُشيِّداً فيها الإسلام والدين ومُقِرّاً[1] لكافّة المؤمنين والمسلمين، طيّب السريرة حسن العشرة والسيرة، وقائماً بحقوق الشيعة الجعفرية ومُصلِحاً بين الحكومة والرعيّة، ولا سيما مع حكومة الوقت العثمانية، إلى أن صارت له المعزّة الكلّية والاحترامات السلطانية، وحتى بلغ أنّ الحاكم المتصرّف عنها يأتيه في يوم العيد مُباركاً، وفي أيّام الجُمع زائراً، فجمع قدّس الله نفسه الزكيّة كلمة الشيعة من الاختلاف، وربط قلوبهم بحبل المودّة والائتلاف، فجزاه الله عن الإسلام وعنّا خير جزاء المحسنين..][2].

كل تلك المهمّات التي أولاها اهتماماته قد تمخّضت عن أمرين:

الأول: إضفاء المحبّة وترسيخ الطاعة في قلوب أبناء المجتمع له، مع المهابة الربّانيّة لجنابه الذي ما فتىء يرعى المجتمع ويُحافظ على مُكتسباته إلى الرمق الأخير من حياته.

الثاني: رسوخ المؤسّسات التي وفّقه الله تعالى لتشييدها، بحيث أصبحت بعض المفردات الرئيسة في صرح الكيان الاجتماعي، بل غدت من ضرورات الحياة الاجتماعية، مع بقاء المبادرات الروحانية التي أكّد على القيام بها كالمناسبات الدينية، ولتظلّ تلك المؤسسات والمبادرات من بعده رصيداً للمجتمع تمدُّه بأسباب القوّة والاستمرار.

---

(١) أي يؤمّن لهم الاستقرار.

(٢) مخطوطة الصحاف سالفة الذكر ص ١١ـ ١٢.

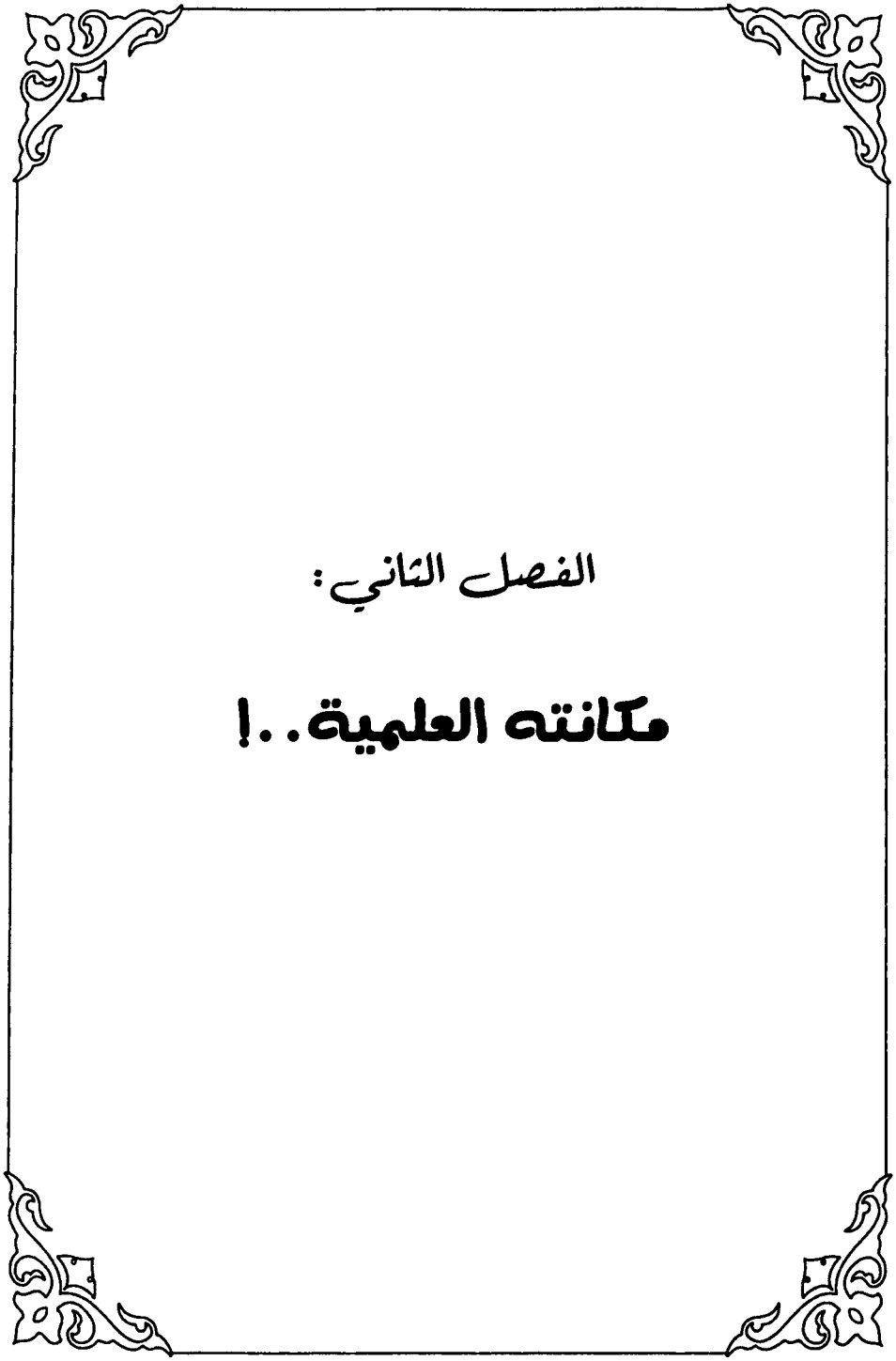

الفصل الثاني:

مكانته العلمية..!

لقد تحدّث عن شيخنا المترجَم من عاصره وعرفه من كتب فعدّه من فحول العلماء، وأفاضل الحكماء وفطاحل الفقهاء العظماء كما سنرى في الفقرات القادمة، فهو يُعتبر أيضاً من الأدباء الكملاء، ومن شموس المجتهدين الأتقياء، الذين كان لاسمهم وزنٌ ودويٌّ في منطقتنا، كما يذكر المرحوم الشيخ الصحاف في مخطوطته:

[من الذين خرق[1] صيتهم الأمصار، وتشرّفت بهم الأحساء وعموم الأقطار، واشتهر فضلهم كالشمس في ضاحية النهار، والذين بذكر علومهم نرفع رؤوسنا في كل زمان، ونفتخر بسامي فضلهم آناً بعد آن..].. إلى أن يقول في موضع آخر:

[..شيخنا ومولانا فريد العلماء المجتهدين، ووحيد الحكماء الكاملين المحققين، الشيخ محمد بن... أعلى الله مقامه، ورفع في الخلد أعلامه، فلقد كان في عصره وبعده من أفضلهم علماً، أشهرهم حُكماً، وأكثرهم زُهداً وأشدّهم تعبُّداً وأورعهم تقوىً، وأقواهم فقهاً وأطولهم في الحكمة الإلٰهية يداً..][2]

---

(١) يوجد في الأصل كلمة (صوت) وحذفتها لعدم الحاجة لها.

(٢) فقرات من مخطوطات الشيخ كاظم الصحاف ﷺ ص ٣.

وحينما كتب عنه الأديب الفاضل الحاج جواد[1] بن الحاج حسين نجل الشيخ الملاّ علي الرمضان ترجمةً له قال فيه ما نصّه:

[هو علم من أعلام الإمامية العظام، ومجتهد من مجتهديها الكبار، حكيم زمانه وفقيه عصره، آية الله العظمى العلاَّمة الفهّامة، مولانا الأعظم ومقتدانا الأكرم، الشيخ محمد بن الشيخ حسين...، الأحسائي الملقّب ببحر الله المحيط، قدّس الله سرّه، فهو أبرز علماء الشيعة في منطقة الأحساء في النصف الثاني من القرن الثالث عشر وأوّل القرن الرابع عشر الهجريين، والحقّ أن القلم ليقف عاجزاً عن وصفه والثناء عليه بما يستحقّه، لعظمته ومكانته في العلم والحِكمة.

رجع إليه أهل الأحساء في أمور التقليد وكان نافذ القول بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، مُهاباً مُجللاً][2].

هذا كما وتتجلّى مكانته العلمية عندما نعرف أنه لم يكن وحيداً، فزمانه

---

(١) ولد عام ١٣٥٥هـ، في الهفوف/ الأحساء، وقد توفّي والده وهو في السادسة من عمره ليكفله إخوته، درس مبادىء القراءة والكتابة، وفي سنّ العاشرة حفظ القرآن الكريم. وقد التحق بالمدرسة الابتدائية ثم المتوسطة في كل من البحرين والشام، ليعود بعدها لملازمة عدد من المشائخ في الأحساء ويأخذ عنهم علوم النحو والصرف والبيان والبديع والأدب. وقد شدّه التراث فاقتنى كتبه وحصل على مجموعة نادرة ونفيسة من المخطوطات. ومنذ عام ١٣٩٥هـ عكف على التأليف فكتب في التراجم والتاريخ، وما تزال كتاباته مخطوطة إلى الآن وهي: قلائد الدرر ونفائس الأثر في أحوال علماء وأدباء هجر، معجم شعراء المنطقة الشرقية والخليج، صحيح الأثر في تاريخ هجر (جزءان)، أعيان الأحساء، مطلع البدرين في تراجم علماء وأدباء الأحساء والقطيف والبحرين (٥ مجلّدات)، أسنى المغانم في تراجم آل أبي المكارم، قلائد الجمان في تراجم آل رمضان، وغيرها إلى جانب مختاراته الأدبية من الشعر والنثر المجموع ضمن ديوان وكشكول. وهو بعدُ عضو مجلس الإدارة في نادي المنطقة الشرقية الأدبي. ونتمنّى أن تبصر مؤلفاته لمخطوطة النور قريباً، لتقطع بها مكتبتنا التراثية شوطاً بعيداً.

(٢) من رسالة مخطوطة في ترجمة الشيخ ص ١ للأديب الفاضل السابقة ترجمته في الصفحة الماضية.

كان مُزداناً بكوكبة من الفقهاء المجتهدين فقد كان من مُعاصريه:

١ـ العالم الكبير **آية الله العظمى الشيخ عبد المحسن بن الشيخ محمد بن مبارك اللويمي** الذي هاجر من الأحساء خلال حوادث السنوات الأخيرة من القرن الثاني عشر، ليستقر به المقام في إيران وقد توفّي عام ١٢٥٠هـ.

٢ـ **الشيخ علي بن الشيخ محمد آل رمضان الخزاعي** الشاعر الجوّال المتوفّى بالشهادة ظلماً عام ١٢٦٥هـ.

٣ـ **الشيخ أحمد بن الحاج محمد بن مال الله الصفار**، وقد كان من مشائخ المترجَم في بدايات حياته الدراسية، ثم أصبح من كبار مُناظريه بعد الاجتهاد، وبينهما مساجلات علمية. وقد توفّي عام ١٣٠٠هـ.

٤ـ **الشيخ عبد الله بن علي الوائل** المعروف بالصائغ الشاعر المشهور المتوفّى في عام ١٣٠٠هـ.

٥ـ **آية الله العلاّمة السيد هاشم بن السيد أحمد السلمان الموسوي** المتوفّى عام ١٣٠٩هـ. ولقد كانت له المرجعية في بعض نواحي الأحساء.

٦ـ **الشيخ محمد بن الشيخ حسين الصحّاف** المتوفّى عام ١٣١٣هـ.

٧ـ **ابنه الشيخ علي الصحّاف** المتوفّى عام ١٣٢١هـ.

٨ـ العلاّمة الجليل **الشيخ محمد بن الشيخ عبد الله العيثان** المتوفّى في عام ١٣٣١هـ. ولقد رجع إليه كثير من أهل الأحساء بعد وفاة المترجم.

٩ـ **الشيخ محمد بن الشيخ عبد علي آل عبد الجبار** من القطيف، كان يقطن الأحساء، عالم فاضل يُعدّ أشهر علماء أسرته، وهو معاصر للسيد الرشتي، وقد توفي عام ١٢٥٣هـ.

١٠ـ الشيخ علي بن الشيخ أحمد بن الشيخ حسين آل عبد الجبار وكان زميلاً دراسيًا للمترجَم، وكما مرّ بنا أنه هو الذي عرّف اجتهاده لأبيه عندما جاءه إلى الأحساء زائراً، وقد وافته المنيّة بالقطيف عام ١٢٨٧هـ.

١١ـ الشيخ جعفر بن الشيخ محمد بن الشيخ عبد الله أبو المكارم القطيفي ساكن العوامية، وكان مجتهداً أخبارياً وعالماً جريئاً في آرائه ومناقشاته، وله مراسلات مع مترجمنا، نثبت في آخر الكتاب[1] صورة من إحداها إن شاء الله، وهي جواب موجّهٌ له من الأخير بتاريخ ١٩/ ١٠/ ١٣١٦هـ، وقد وافاه الأجل في البحرين عام ١٣٢٠هـ.

هذا وقد تجلّت قدراته العلمية المتميّزة عندما شدّ إليه نظر أُستاذه السيد الرشتي، إلى درجة أن عيّنه خليفةً له على رؤوس الأشهاد بعد أن سجد شكراً لله أمام طلبته الذين لم يُسلّموا لذلك التعيين، وسعوا في إيذاء الشيخ حتى ألجأوه إلى الرحيل والعودة إلى وطنه.

أما موقف أبيه منه حين تفاجأ بعودته السريعة من العراق ظنّاً منه بقلّة صبر ابنه على طلب العلم، فدليل بيّن على سرعته في تجاوز المراحل الدراسية من السطوح والبحث الخارج، وهو الأمر الذي يدلّ على سعة مداركه وسرعة استيعابه ونبوغ عقليته وعلميته.

وليس أجلى دليلاً على علميته من قدرته على انتزاع المرجعية، وتسلّم زمام القيادة الدينية في منطقة تحفل بالمجتهدين ومراجع تقليد كبار، مثل آية الله السيد هاشم السلمان في المبرز وقد مرّ ذكره آنفاً، ومعروف أن المرجع لا يُقلَّد إلاّ بالانتخاب الشخصي سِرّاً، فكيف تأتّى له ذلك الانتخاب الذي كاد أن يكون بالإجماع لولا وضوح جدارته العلمية..؟

---

(١) انظر ص ٢٧٥.

ومن نافلة القول أنّ علميته تتجلّى من خلال ما قام به من فعاليات علمية يمكن ذكرها بالإيجاز في الأمور التالية:

١. استقطاب الشباب المؤمنين حوله عبر البرامج الدينية والعلمية، وانتقاء ذوي الأهلية منهم لإعداد كادر كفوء أهل لتحمّل المسؤولية، واهتمامه برعاية النابهين منهم والتركيز على تأهيلهم علمياً.

٢. تكريس جزء من وقته للبحث والكتابة، ومن ثَمّ استنساخ مؤلفاته ونشرها بين الناس حسب الحاجة والإمكانية، والتي تعكس بدورها مستواه الفكري وقدراته العلمية.

٣. إقامته لمجالس الحوارات العلمية واستقباله لكبار العلماء، إلى جانب مراسلاته مع كبار علماء الإمامية في البحرين أو القطيف، ناهيك عن اتصاله بعلماء إيران والعراق ولقاءاته بهم كلما حانت له فرصة، ووجود الرسائل العلمية وأجوبة المسائل الدينية خير شاهد على تلك المجالس التي كان يتوّجها بالأثر المكتوب.

٤. تجواله بين المدن والقرى، وإلقاء الخطب والمحاضرات والمواعظ التي تُحيي موات القلوب، وتُشجّع على الإقبال على الدين، وقد ذكر لي أحد رجالات شيعة الرياض أنّ الشيخ محمد قدّس الله سرّه كان يشدّ الرِّحال إلى الرياض والحريق وحوطة بني تميم، للإلتقاء بيتامى آل محمد كما كان يحلو له أن يلقب به الشيعة الأقلية في المناطق الآهلة بغيرهم، ويمكث بينهم لبعض الوقت واعظاً مُعلّماً ومبيّناً لأحكام الدين، ومُشجِّعاً لأبنائهم على دراسة العلوم الشرعية، ولا يُغادرهم حتى يطمئنّ عليهم.

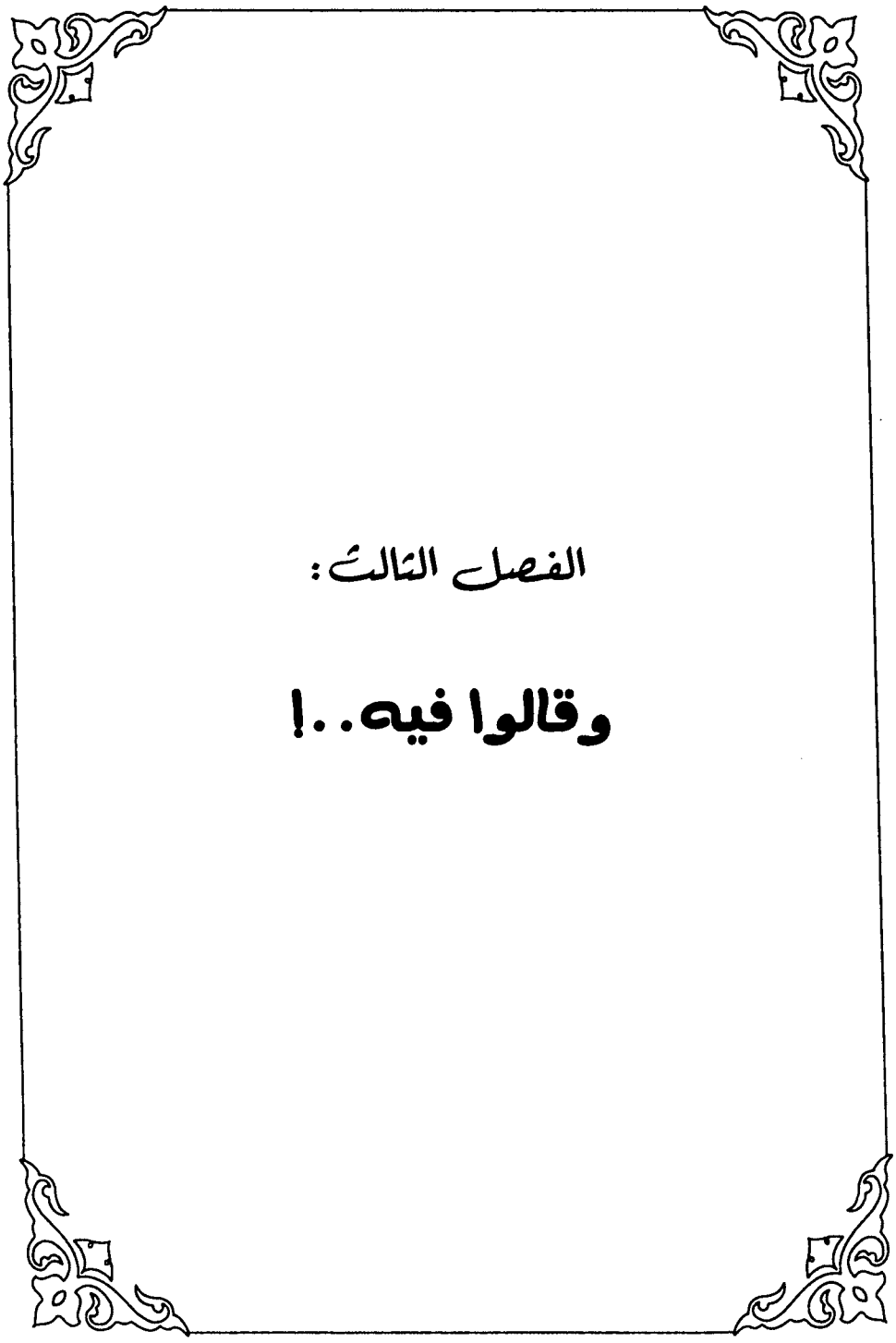

الفصل الثالث:

وقالوا فيه..!

حينما يتألّق نجمٌ في كبد السماء، لا تملك العيون إلا أن تتطلع في شغفٍ إليه، فيُعبّر كل ذي بصرٍ عن الانطباع الذي يتركه ذلك النجم في أعماقه. وليس ثَمّة أكثر تألُّقاً من نجوم السماء إلاّ سادات الأرض من هُداة البشر، الأنبياء والأوصياء والأولياء والعلماء.

من هنا فإنّ كل عظيم من العظماء يحظى بتقدير الناس على قدر عطاءاته، فنرى شهاداتهم في حقِّه أو سِمةً تتلألأ عبر السطور، أو في المحافل أو فوق المنابر، تشيد بما قدّم بين يديه من أجل الله والحقِّ والإنسان.

ومترجمنا الذي تبوّأ مكانةً مرموقةً في العطاء العلمي والعرفان الإلهي والعمل الاجتماعي، والقضاء الشرعي والتنظيم الإداري، والأداء العبقري في كل الميادين التي طرقها، حظي بالكثير من أوسمة الشرف تقديراً وإكراماً لمناقبياته الرفيعة وأخلاقياته النبيلة، وكفاه فخراً أنه إلى يوم الناس هذا يحظى بالاحترام والقداسة في نفوس الناس.

وبطبيعة الحال لم يمتدحه إلاّ أولئك الذين عايشوه، والفطاحل الذين خبروه عن كثب، فكتبوا في حقّه الثّناء الجميل، والحقّ أنه جدير بما عنه وفيه قيل، ولو كان في منطقة ذات أضواء غير الأحساء لازدادت فيه الأقوال، وازدانت به كتب التراجم، ومع ذلك فالقائلون بالثناء عليه غير

قليل، فمن جملة الأقوال في حقّه:

* ما كتبه أُستاذه الجليل السيد الرشتي (قدس الله سره) في إجازة حررها له حيث قال: (..**لله درّ المحقق المدقق العالم العامل والفاضل الكامل، اللوذعي الألمعي، ذي الفطرة الصافية والسريرة الزاكية، جناب الشيخ محمد بن..**)[1].

* وجاء فيما كتبه الشيخ محمد حسين الملقّب بمحيط الكرماني بعض العبارات في وصف مترجَمنا قوله: (..**وما عسى أن أقول في مرسومٍ سطعت في آفاق التحقيقات الإلٰهية أنواره، وطلعت من مطالع التدقيقات الربّانية شموسه وأقماره..** ثم يقول: ..**وهو العالم العامل والكامل الفاصل الفاضل العادل، جناب الأوحد الأمجد، الشيخ محمد بن الشيخ حسين الشهير بأبي خمسين، كثّر الله أمثاله، وأخلص إليه إقباله..**)[2].

* وقال عنه أستاذه وشيخه الشيخ حسين بن مولى قلي الكنجوي في إجازته له ما نصّه: (.**المولى الجليل والعالم النبيل، العالم الكامل والفاضل الواصل، ذي الفكرة الصافية والفطنة الزاكية، الألمعي اللوذعي المسدّد المؤيّد، المنزّه عن الشين، الشيخ محمد بن الشيخ حسين..**)[3].

* وقال عنه الحاج جواد بن الحاج حسين الرمضان في مصنفه «قلائد الجمان»: (**هو العالم الربّاني الفقيه الحكيم، المعروف ببحر الله المحيط، العلاّمة الشيخ محمد بن الشيخ حسين بن الشيخ علي..**)[4].

* وجاء في كتاب إحقاق الحق للميرزا موسى بن الميرزا باقر الإسكوئي الحائري في إشارةٍ إليه كمؤلّف له باعه في حقل التوحيد قوله:

---

(١) من إجازته التي بتاريخ ٢٣ صفر/ ١٢٥٩هـ.

(٢) فقرات من إجازة الكاتب المذكور للمترجَم بتاريخ نهاية صفر عام ١٢٥٩هـ.

(٣) من الإجازة التي حرّرها الشيخ الأستاذ بتاريخ آخر صفر ١٢٥٩هـ.

(٤) قلائد الجمان في تراجم علماء وأدباء آل رمضان كتاب مخطوط لدى المؤلف.

(العالم الإلهي بلامين، مولانا الشيخ محمد حسين المعروف بأبي خمسين رضي الله عنه وأرضاه)[1].

* وقال عنه الشيخ علي بن الشيخ حسين البلادي البحراني: ..**(هو العالم العامل العابد الكامل، الأمين الشيخ محمد حسين آل أبي خمسين الأحسائي، كان من العلماء الأبرار، والفضلاء الأخيار..)**[2].

* وقال عنه الشيخ محمد حرز الدين النجفي رحمه الله: (..**كان عالماً فقيهاً أُصوليًا، صار مرجعاً في الأحساء، وكان نافذ القول بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، مُهاباً مُجلّلاً..)**[3].

* وقال الخطيب المعاصر الشيخ سعيد بن الشيخ علي آل أبي المكارم في كتابه «أعلام العوامية» ما نصّه: (..**أحد رجال الطائفة الإمامية، ومجتهد من مجتهديها العظماء، ذو شخصية كبيرة بارزة في المجتمع، وأُسرة آل أبي خمسين من أشرف الأُسر. وليس هذا الشيخ إلاّ أحد حسناتها ونوابغها الفطاحل، وإن كان هو أكبرهم وأشهرهم..)**[4].

* وكتب عنه تلميذه المقرّب إليه، الفاضل النجيب الشيخ أحمد بن علي بن محمد الصحاف، يمتدحه ويثني عليه نثراً وشعراً، وممّا قال فيه: **(..مولانا وسنادنا ومَن عليه في الأحكام الشرعيّة استنادنا، ومُعوّلنا في أخذ المعارف الإلهية، المصنّف العلاّمة، ذي النفس القدسية، القطب الوتد النقيب الأوحد الأقدس المتوّج المحبور المبرور..** إلى أن يقول: ..**جناب عماد الملّة والدين، ورئيس العلماء المحققين، وشمس الفقهاء الكاملين، علاّمة الإسلام والمسلمين، شيخنا وعمادنا في الأحكام الشرعية على اليقين، مولانا الشيخ**

---

(١) إحقاق الحق ص ٥١٣.

(٢) أنوار البدرين في تراجم علماء القطيف والأحساء والبحرين ص ٤١٤.

(٣) معارف الرجال في تراجم العلماء والأدباء، ج ٢، ص ٢٥٥.

(٤) «أعلام العوّامية» للشيخ سعيد أبو المكارم ص ٧٠.

محمد خلف المقدس في أعلى علّيين الشيخ حسين الشهير كُنيةً بأبي خمسين..)[1].

* وجاء في الرسالة المباركية التي كتبها شيخُنا جواباً على سؤال الشيخ محمد بن حسين المبارك، عبارةٌ في سؤاله للمترجَم يقول فيها: (..أعني بذلك علاّمة الزمان ودايرة الأكوان، الشيخ البهيّ، والسراج المضيّ..)[2].

* وقال فيه شعراً ابنه الشيخ عبد الحميد في رثائه مُشيداً بصفاته:

وإنسانُ عين العلم والحكم والنّدى
وسيّد أرباب الحجى والمآثِر
وذو الحكمتين الآيتين حواهُما
وعلاّمة الكون العديم المُناظِر
ومُحيي رسوم الدين بعد اندراسها
وناشر رايات الهدى والبصائِر
وماحي أصول الغي والزيغ والهوى
ببرهان حقٍّ واستطالة قادرِ
وقطب رحى العليا وهو أرض الندى
وشمس سماء المجد بدر المفاخرِ
وذو المعجزات الباهرات ومن حوى
محاسن لن تُحصى وقطب الدوائرِ[3]

---

(١) فقرات من المخطوطة المحتوية على كتاب «مفاتيح الأنوار..». بخط قلم المذكور مع بعض القصائد والمرثيات.

(٢) الرسالة المباركية ص ١٢٠ من المخطوطة الحاوية على ٨ رسائل.

(٣) أبيات من مرثية المذكور الرائية في والده، مخصوصة مفاتيح الأنوار ص ٢٦٨.

* وقال فيه المرحوم الشيخ عبد الله بن علي الوائل الأحسائي صاحب ديوان «الدرر الفاخرة» من قصيدة له يُقرِّض فيها كتاب الفوائد للشيخ المقدّس الأوحد أعلا الله مقامه:

إن يـمـسِ فـيـنـا غـائـبـاً فـلـنـا بـهِ
خَـلَـفٌ بـعِـقـدِ كـمـالِـهِ قـد قُـلِّـدا

أعـنـي بـه الـبـرُّ الـتـقـيَّ أخـا الـتـقـى
بـعـدَ الـفـضـائِـل والـكـمـالِ محـمَّـدا

قـطـبَ الـمـكـارمِ والـعـلـومِ ومَـن غـدا
الـمـكـتـومَ فـيـنـا والـمـنـيرَ الأسـعـدا

بـحـرٌ ثـمـيـنُ الـدُّرَّ مـن حـافـاتِـهِ
يجـنـي وعـنـد الـوِردِ أعـذبُ مـوردا

إنـسـانُ عـيـنِ الـعِـلـمِ تـاجُ فـخـارِهِ
نـامـوسُـهُ وسـحـابُ ثـجّـاج الـنَّـدى

زهـرَت بـه هَـجَـرٌ فـقـلـتُ لـهـا افـخـري
بـالـنـيِّراتِ فـقـد حـويـتِ الـسـؤددا

يـا أيُّـهـا الـعَـلَـمُ الأتَـمُّ ومَـن بـه
أرسىٰ الإلٰـهُ الحـقُّ أن يـتـأوّدا

* وقال الشيخ محمد بن الشيخ حسين الصحاف وذلك عند وصول رسالة الشيخ العملية إلى مقلّديه في بلد الكويت:

صـدرت رسـالـة نـخـبـةُ الأبـرارِ
تـزهـو كـمـثـل الـشـمـس بـالأنـوارِ

يا حيَّ طلعتها البهية مذ بدتَ
مثل النجوم ورفعة الأقمارِ
يا حبّذا يوماً رُزقنا شربةً
من صاف ما عين الحياة الجاري
فلذا جرى لي يا خليليّ سابقٌ
لا زال في مجرى شذاه ساري
حتى استقلّ باسمه متشرّفاً
ولو أنَّه المشهور في الأمصارِ
فوّارة العِلم الغزير فحبّذا
نجمُ الهدى بغياهب الأسحارِ
قد كان كهفاً لا يُضامُ نزيله
بعوالم الأكوارِ والأدوارِ
طالت أيادي فضله السامي على
هام السماك وكوكب الدّوارِ
قل ما تشاء من الثناء بشأنهِ
فيه يطيب كما يطيب الدّاري
هذا الذي هو للعلوم معلّمٌ
ومترجمٌ لغوامضِ الأسرارِ
هذا هو الدرُّ الثمينُ وكعبةٌ
للطائفينَ ومشعرُ الأذكارِ

إلى أن قال:

يا غايةَ السُّوالِ بل يا منتهىٰ الـ
ـآمالِ في الإيرادِ والإصدارِ

إني وحقك لست أقضي بعض ما
أتحفتني من بحرك الزخّارِ
ولو أن لي الدنيا وقد أهديتها
لجنابكم يا عمدة الأطهارِ
لم أقضِ بعض الحق من إحسانكم
يا حجَّة الإسلام والأبرارِ
لكن ساكسيك الثنا ومن كُسي
حلل الثناء حي مدى الأعصارِ
لا زلت بالتوفيق أنت مؤيَّدٌ
ومسدَّدٌ من ربِّك الجبارِ

* وقال ابنه الشيخ علي في مدح شيخنا المترجَم أيضاً:

بذكرِ أبي خمسين والدِ طاهرِ
تطيب مسراتي وعشر مشاعري
يفوح عبير المسك من طيب نشرِهِ
ويذكو شذاه في رياض ضمائري
فخالطني في كل عضو أريجهُ
أريج شذاه لا أريج المجامرِ
أراه وشمس الأفق تحكي ظهوره
على كل خافٍ في الوجود وظاهرِ
فلا عجباً من نور دريّ جوهرِ
إذا كان اكسيراً لدُرِّ الجواهرِ

وكـوكـب قـدس لا يـزال مـراعـيـاً
لـزهـر نجـوم الـقـدس لا لـلأزاهـرِ
ولله كـم أحـيـا نـفـوسـاً بـعـلـمـه
وكـم قـد حـظـت فـوق المـنى حـظ وافـرِ
بـدا فـضـلـه وهـو الـجـواد مـحـمَّـدٌ
فـعـمّ الـورى مـن جـوده المـتـواتِـر
فـيـا راكـبـاً هـيـمـا تـسـيـر كـأنّـمـا
قـوائمـهـا في الـسير أجـنـاح طـائـرِ
لـك الـخـيـر دعـهـا تـسـتـطـيـر فـإنّـهـا
مُـعـوّذةٌ بـالله مـن جَـدِّ عـاثِـر
إذا جـئـت لـلأحـسـاء مُـجـدّاً فـقـف عـلـى
مـديـنـتـهـا الهـفـوف مـوطـن عـامـرِ
وعُـج نـحـو بـيـتٍ أزهـرت شُـرُفـاتُـه
لأهـلِ الـسـمـا مـثـل الـنـجـومِ الـزواهـرِ
فـقـد حـلّ فـيـه الـعـالـم الـقـطـب شـيـخُـنـا
مـنـارُ المـوالي بـل مُجـيرُ الـبـشـائـرِ
وقـل بـعـد إبـلاغ الـسـلام عـلـيـه يـا
حِـمـى حـوزة الإسـلام مـن كـلّ جـائِـر
مـحـمـد يـا عـلاّمـة الـعـلـمـاء مَـن
أقـرّت بـفـتـواه شـهـودُ المخـابِـر
إذا أنـا لـم أنـشُـر ثـنـاك فـإنّـنـي
وحـقّـك في الأشـعـار لـسـتُ بـشـاعـرِ

الفصل الرابع:

حوزته العلمية وتلامذته..!

أوّلاً: الحوزة العلمية:

لقد كان من أهمّ أولويّاته بعدما قدم إلى الأحساء، هو أن يُعيد إلى المنطقة حيويتها ومكانتها العلمية، لا سيما وقد تعرّضت البلاد إلى هزّات أمنية شديدة، وعانت من اضطرابات سياسية ومذهبيّة أودت بحياة الكثير، وشرّدت الأساطين من علماء البلاد ومجتهديها، فطوّحت بعالم كبير كالشيخ عبد المحسن اللويمي[1]، وبعلاّمة جليل كالشيخ أحمد بن زين الدين[2]، وغيرهم إلى خارج البلاد يلوذون من القهر أو القتل أو التشريد. كما كان لخلوّ البلاد من الحوزات العلمية عاملٌ أدّى إلى خروج عدد من العلماء، لتحصيل الاجتهاد كمترجمنا نفسه، وكالشيخ محمد بن الشيخ عبد الله العيثان[3]، لذلك سارع إلى عقد الدروس وإلقاء الخُطب

---

(١) سترد له ترجمة إن شاء الله ضمن معاصري المترجم.

(٢) أيضاً سترد له ترجمة إنشاء الله.

(٣) عالم جليل، وفقيه كبير، ومحقّق ورع، وُلد بالقارة في الأحساء، سنة ١٢٦٠هـ، وأخذ المقدمات عن والده ومشائخ أسرته في القارة، ثم هاجر إلى النجف الأشرف وبقي حتى أجازه بالاجتهاد جملة من أكابر علمائها وعلماء كربلاء التي حضر فيها مدّة من الزمن للدرس. وبعد وفاة والده بالأحساء، قفل راجعاً إليها ليرجعوا إليه بالتقليد لا سيما بعد وفاة مترجمنا. له مؤلفات منها: رسالته العملية في الطهارة والصلاة، وأجوبة مسائل عديدة، ورسالة في معاني الحروف، وشرح رضاعية السيد مهدي القزويني، وكتاب هداية العباد إلى الحق والرشاد في أصول الدين، وقد وافته المنية في الجليلة من قرى الأحساء، ودفن في مقبرتها ناظرة سنة ١٣٣١هـ.

والمحاضرات قبل أن يلتفّ حوله رعيل من الشباب المؤمنين، والرجال الملتزمين وطلبة علوم الدين، حيث ابتدأ بتنظيم دروس في الفقه والقرآن وعلوم العربية المختلفة، ثم أضاف إليها المنطق والحكمة الإلٰهية.

ومع تزايد الأعداد واستمرار الدروس وثبات الطلاّب على المداومة والحضور، تمّ له ما أراد من إنشاء الحوزة العلمية التي تُعيد للأحساء رونق الأجواء العلمية السابقة، حتى صار للحوزة صيتُها الذي يجتذب طلاّب العلم حتى من المذاهب الأُخرى.

ولقد كان في البداية يقوم بإلقاء الدروس والمحاضرات في المسجد الذي قام بتوسعته وإعادة إنشائه بعد التهديم الهمجي الذي تعرّض له على أيدي بعض الجهّال من البدو والحاقدين، ثمّ ما لبث أن انتظم في دروسه بالحسينية المحمدية، المعروفة اليوم باسم حسينية البو خمسين.

وحسبما ذكر الكاتب الأمريكي ف.ش. فيدل، في كتابه «واحة الأحساء» لدى حديثه عن التعليم في الأحساء عام ١٩٥١م أي بعد رحيل الشيخ بأكثر من نصف قرن ولكن آثاره التعليمية في المجتمع هي التي يتحدّث عنها الكاتب حيث يقول:

[وفي التعليم، فرغم أنّ بإمكان أطفال الشيعة الإلتحاق بالمدارس الحكومية، وقد تمّ ذلك، إلاّ أنّ أولياء أمورهم يفضّلون إرسالهم لتلقّي نوعٍ أقلّ من التعليم الرسمي في واحدة من المدارس غير الرسمية، والتي يديرها رجال الدين الشيعة في الحسينيات، وتقع أعظم تلك المدارس أهميّةً في «حسينية أبو خمسين» في حيّ الرفعة][1].

ومن الملاحظ هنا أنّ الكاتب يتحدّث عن التعليم الرسمي والمدارس

---

(١) واحة الأحساء ص ١٢٢. لمؤلّفه ف.ش. فيدل ترجمة الدكتور عبد الله ناصر السبيعي.

الحكومية وإمكانية التحاق أطفال الشيعة بها في زمن لم تكن فيه مدارس أو تعليم رسمي في الأحساء، قبل عام ١٩٤٠م الموافق لعام ١٣٦٠هـ، بافتتاح مدرسة الهفوف الأولى[١]، أمّا المدارس الفعلية قبلها فلم تكن الحسينيات وإنما كانت الكتاتيب المنتشرة للذكور كما للإناث بدون اختلاط. وذلك في بعض البيوت التي اشتهرت بالروّاد من معلمي القرآن الكريم، وأمّا الحسينيات فكانت لمجالس الوعظ والإرشاد، ولطلاّب العلوم الدينية، والتي كانت تُدعى «حوزة» وتتصدّرها الحسينية المذكورة.

وقد تواصلت مسيرة الحوزة العلمية واستمرّ بها التدريس ـ حتى بعد انتقال الشيخ المترجم إلى الرفيق الأعلى ـ على يد بن أخيه العلاّمة الفقيه المقدّس آية الله المغفور له الشيخ موسى بو خمسين[٢]، ولكن بعد أن نقل مقرّها إلى المسجد المجاور، عندما بنى مدرسةً في جزئه الخلفي الذي أدخله إضافةً توسيعيّةً مترجَمُنا رحمه الله.

هذا وقد التحق بالحوزة كثير من أبناء المجتمع، سواء بتشجيع الشيخ أو لبروز الحاجة الماسّة لوجود كادر اجتماعي فاعل لتلبية المتطلّبات الاجتماعية المتزايدة. حيث ازداد تطلّع المقلِّدين للإرتباط بمرجعهم، فصاروا يُلحّون عليه في الطلب لإرسال وُكلاء مُمثّلين له في نواحيهم المتفرّقة، كالذي حصل لأهل الكويت حيث أرسل لهم تلميذه النابه الشيخ محمد بن الشيخ حسين الصحّاف وكيلاً.

ولا تزال هذه الحوزة شاهداً من بعد الشيخ، وإن تنقّلت من دورٍ إلى آخر، ومن الهفوف إلى المبرز أو بالعكس، إلاّ أنها ما زالت رمزاً للعطاء، تقدِّم للمجتمع زاده الفكري والعقائدي، كما يعتزّ أبناء الجيل المعاصر، أنها

---

(١) تحفة المستفيد في تاريخ الأحساء القديم والجديد ص ٣٣.
(٢) له ترجمة وافية ستظهر إن شاء الله مستقبلاً.

واحدة من معالم المجتمع الشيعي في الأحساء.

ثانياً: تلامذته:

لقد انضمّ للحوزة التي أنشأها المترجم، لفيفٌ من طلبة العلوم الدينية من أبناء المجتمع سواءاً من الهفوف أو من حولها، وذلك استجابةً لمتطلّبات المرحلة، أو تلبيةً لنداءات الشيخ القائد. وليبقى الرعيل الأوّل من تلامذته رموزاً تزهو وتفتخر بهم الساحة جيلاً بعد جيل إلى يوم ألناس هذا، لا سيما وأنهم قد أثّروا بالفعل الحياة العامّة بنتاجهم الفكري والثقافي والأدبي.

وإذ نذكر بعض الأسماء حسب المتوفّر لدينا من المعلومات عن تلامذة المترجم، إنّما كمثال فحسب لا على سبيل الحصر:

الأوّل: **الشيخ أحمد بن الحاج محمد بن أحمد البغلي**... كان مُقرّباً من الشيخ لقرب أبيه منه، حيث كان الحاج محمد البغلي مُعوّل الشيخ وموضع ثقته في التوكيل عن النساء الراغبات في الزواج، الأمر الذي أدّى إلى أن يتولّى بأمرٍ من الشيخ مسألة إجراء العقود بنفسه من غير اضطرار الشيخ للقيام بذلك بنفسه[1].

الثاني: **الشيخ أحمد بن علي بن محمد الصحّاف**.. من تلامذة الشيخ المقرّبين، ومُريديه المحبّين الناصحين، وكان أديباً شاعراً، وعالماً ماهراً، كتب في مدح أُستاذه الكثير، ومدح مكرُماته ومصنّفاته وبعد موته رثاه مُتفجّعاً مُتوجّعاً. وتوجد لدينا بخط يمينه نسخة من كتاب «مفاتيح الأنوار ومصابيح الأسرار»[2] مع بعض الأشعار، انتهى منها في ١٣ شوال من عام

---

(١) أخذنا المعلومات عنه شفاهيةً من الأديب والمؤرّخ المُعاصر الحاج جواد حسين الرمضان.
(٢) المخطوطة المذكورة أعلاه ص ٢٦٢.

١٣١٧هـ أي بعد رحيل الشيخ بقرابة العام.

الثالث: **الشيخ جعفر بن الحاج حسين آل ناجم**.. ملازم للشيخ وقريب منه، حيث يصفه الشيخ في الرسالة التي أسماها «**بيان كلّيات العوالم**» ما نصّه: [..**الأخ الصفي والخلّ الوفي، العالم العامل والرجل الكامل، الشيخ جعفر بن المرحوم المبرور حسين آل ناجم**..][١].

وهو من عائلة آل ناجم المعروفة في المبرّز حيث توفي ودُفن بها.

الرابع: **الشيخ حسين بن الحاج علي الصالح الحدب**.. وهو من طلبة العلوم الدينية الذين لم يستقيموا في البلاد، وإنما شدّ الرجال إلى بلدة الدورق في البلاد الإيرانية، وبقي في مهجره إلى أن وافاه أجله.

وحيث كان في زمن المترجم، فإن من المرجّح أنه درس في حوزته، حسبما أفادنا أحد أقاربه. وعائلة الحدب معروفة في الهفوف، من قبيلة عربية، إذ يتحدّرون من فخذ آل زيد، الذين ينتمون إلى بني هاجر.

الخامس: **الشيخ حسين بن محمد الممتنّ الجبيلي** لأنه من الجبيل، وقد التحق بالحوزة كمن التحق بها من المناطق المختلفة من الأحساء، ولعلّ وفاته كانت في سنة وفاة أُستاذه المترجَم[٢].

السادس: **الشيخ سلطان العبّاد العلي**.. من الحوطة، وهو جدّ الشيخ عبد الهادي الفضلي المعاصر من مواليد ا لأحساء عام ١٢٦٢هـ، وتوفّي في عام ١٣٢٠هـ. وكان ممّن تتلمذ على يدي الشيخ[٣].

السابع: **الشيخ سلمان بن محمد الشايب العمراني**.. نسبةً إلى العمران،

---

(١) رسالة «**بيان كلّيات العوالم**» ص ١٥٦.

(٢) دائرة المعارف الشيعية ج ٣ ص ٨٨، ضمن مادّة (أحساء).

(٣) المصدر السابق.

وقد كان ملازماً للشيخ إلى آخر أيّامه يحضر مجلسه ويراسل العلماء عنه خصوصاً بعدما ضعف بصره وقد بلغ من الكِبَر عتيّا. وقد ورد اسمه في رسالة من المترجَم إلى الشيخ جعفر أبو المكارم، والرسالة بخط يمينه، كما سنلاحظ من صورة الرسالة في آخر الكتاب.

الثامن: الشيخ طاهر آل أبي خضر.. وهو من الأسرة المعروفة في النعاثل بمدينة الهفوف، كان مقرّباً من أستاذه المترجَم الذي يكنّ له احتراماً خاصّاً لورعه وزهده، وكان شديد المواظبة على صلاة الجماعة في مسجد الشيخ. وكانت وفاته في مسقط رأسه الهفوف.

التاسع: **الشيخ عبد اللطيف المُلاّ من سكنة الكوت**.. ذكر لي ذلك حفيده الشيخ محمد سعيد الملاّ[1] بأنّ جدّه المذكور قد درس العربيّة عند المُترجم لما كان يتميّز به من الإحاطة بعلومها.

العاشر: **الشيخ عبد الله بن علي بن عبد الله الوايل، المعروف بالصايغ**.. درس عند الشيخ الفقه والحكمة، وتفوّق في الأدب والشعر على وجه الخصوص، وله ديوان شعر كبير بعنوان «الدرر الفاخرة»، وشعره قويٌّ من جيّد الشعر، وكانت وفاته عام ١٣٠٠هـ.

الحادي عشر: الملاّ **الشيخ علي بن محمد آل موسى آل رمضان**.. عالم وأديب وشاعر مطبوع، من شعراء الأحساء المُجيدين وخطبائها الشهيرين، كان لصيقاً بالشيخ المترجم من تلامذته المقرّبين وله في مدحه عدّة قصائد، كما ورثاه بعد وفاته، وسنفرأ له في موارد أُخرى إن شاء الله. وقد كانت وفاته عام ١٣٢٣هـ. أي بعد أُستاذه بسبع سنين رحمهما الله رحمة الأبرار.

---

(١) وهو شيخ معاصر من شيوخ الأحساء الشباب، من مواليد الهفوف عام ١٣٧٢هـ، يعمل وظيفيّاً نائباً لرئيس فرع رئاسة تعيم البنات بالأحساء.

الثاني عشر: **الشيخ عمران بن حسن السليم آل علي الفضلي**: من مواليد العمران بالأحساء عام ١٢٧٢هـ، درس عند الشيخ قبل رحيله إلى العراق لمتابعة التحصيل العلمي حتّى بلغ الاجتهاد، وكان مُعاصراً للشيخ موسى بو خمسين، ومن أولاده الشيخ كاظم نزيل عبادان، والشيخ معتوق المتوفّى عام ١٣٧٧هـ. وكانت وفاة الشيخ عمران في الأحساء عام ١٣٦٠هـ، حيث كان بالعمران مثواه الأخير.

الثالث عشر: **الشيخ محمد بن الشيخ حسين الصحاف**... وهو من أفاضل العلماء وفطاحل الفقهاء، كما قال عنه حفيده الشيخ كاظم الصحاف. اختاره المترجَم فأرسله إلى الكويت نائباً عنه..

[فسار من الأحساء بكافّة عائلته رجالاً ونساءاً، فأقام فيها موقّراً مُعظَّماً ومُطاعاً مُحترماً، فأسّس أعلى الله مقامه مسجداً للشيعة الإثني عشريّة، وهو أوّل مسجد بُني فيها، وله وقف مشهور إلى الآن موجود، والمسجد لا يُعرف إلاّ بمسجد الصحاف، فكان في مُدّة حياته جامعاً لكلمتها، ومُؤلّفاً بالمودة قلوب قبائلها، ومُصلِحاً لكافّة أحوالها، مُعظَّماً عند حاكمها الشيخ مبارك الصباح، فلما استوطن بها طلب من المرجع أن يُرسل له رسالته العملية المحتوية على فتاويه الفقهية فأرسلها إليه، فقال من سروره في ذلك شِعراً:

صدرت رسالة نُخبة الأبرارِ ... تزهو كمثل الشمس بالأنوارِ

يا حيّ طلعتها البهيّة مُذ بدت ... مثل الشموس وزينة الأقمارِ

يا حبّذا يوماً رُزِقنا شربةً ... من صافي مآعين الحياة الجاري][1]

هذا وقد ظلّ مُقيماً في الكويت حتى وافته المنيّة عام ١٣١٣هـ[2].

---

(١) مخطوطة الشيخ الصحاف ص ٦.

(٢) أخذنا هذا التعريف به من مخطوطة حفيده الشيخ كاظم وهو يُترجم لشيخنا المترجم ص ٦.

الرابع عشر: **الشيخ محمد بن حسين آل مبارك... من تلامذته المقرّبين الذين ألزم نفسه برعايتهم، ورد اسمه في الرسالة المباركية حيث قدّم إليه سؤالاً أصبح موضوع الرسالة يقول فيها بالنص: [..إنه قد عرض عليّ جناب الأخ العارف الصفيّ والخلّ الوفيّ الشيخ محمد..** إلى أن يقول: **وأجبتُ مُلتمسه لأني ألزمت نفسي برعايته وبقضاء حاجته لئلا يفوت حق الإخوان..]**[1].

(١) مقتطفة من الرسالة المباركية للمترجَم ص ١٢٠.

الباب الرابع:

دُرَرٌ من السيرَة الذاتيّة..!

وفيه فصول:

* الرحلة إلى العرفان..!
* من فيوضات يراعه..!
* من قسمات شخصيته..!
* عندما حان الرحيل..!

كثيرون أولئك الذين يأتون إلى الدنيا في حُلّة صمت، ويعيشون أمواتاً ويمضون كما جاؤوا..!.. فلم يُحدِثوا ضجةً في مجيئهم، ولم يُثيروا شفقةً أو يستقطِروا دمعةً عند رحيلهم..!.

لَم..؟.. لأنهم عاشوا كالأنعام بل هم أضلّ سبيلاً..! حسب تعبير القرآن الكريم، لم يستفيدوا من نعم الله عليهم، ولم يستضيئوا بنور العقل، ولم يُعينوا أو يتعاونوا مع خلق الله في مجالات الحياة، بل رفضوا صوت الحق وانغلقوا دون مصادر التوجيه والإرشاد.

وعلى العكس من أتباع الهوى، والكسالى الخاملين، أو أعوان الشياطين وشذاذ الآفاق وعبيد الدنيا، تألّق أبطال عظماء جاؤوا بهدوء، ثمّ ترعرعوا كما يترعرع الآخرون، ولكنهم لم يكتفوا بالأخذ والتلقّي من الآخرين، إنما أبت نفوسهم الكريمة إلاّ أن تُعطي كما أخذت، بل وتزيد في العطاء لأنه سرّ البقاء والعظمة..! ومن ثَمّ لا يملك الناس إلاّ حبّ العظماء الكرماء والإعجاب بهم، والتغنّي بعطاءاتهم، والاحتفاء بمواقفهم لأنّ من يُعطي من ماله قليل، ومن يجود بوقته ومواقفه وذاته أقلّ، ثمّ إنّ القلوب جُبِلت على حُبّ من أحسن إليها..!

ولا مندوحة أو غرابة إن قلنا أنّ مترجَمنا يندرج ضمن الفئة الثانية، بل

يأتي في الطليعة من الأوائل فيهم، فمن له تطلّعات الشيخ وطموحاته وإباؤه وغيرته، لا يمكن أن تقعد به همّته عن أقل من الوقوف على القمّة. ولقد رأينا إلى أين قادته طموحاته..!.. فإلى أي مدى بلغت روحيّته..؟.. وإلى أيّ مُرتقى وصلت معرفته..؟.. وما هي قسمات شخصيته..؟.. ذلك ما سوف يطالعنا في الصفحات التالية إن شاء الله..!

الفصل الأوّل:

الرحلة إلى العرفان..!

لقد عرفت الأحساء ولعدّة قرون نمطاً مميزاً في الاتجاه الثقافي، ألا وهو العرفان المتّسم بالزهد والتصوّف، هذا التوجّه الذي أضفى صبغته على ألمع الأسماء البارزة في الوسط العُلَمائي، وترك آثارهم واضحةً في المكتبة العرفانية الفلسفية، بحيث لا يمكن لأيّ باحث أن يغفل أو يتجاوز إسهاماتهم في هذا الميدان. وإذا أخذنا بعين الاعتبار أن الإسم الغالب على المنطقة سابقاً هو «البحرين»، الاسم الذي يعني كافة الإقليم الشرقي للجزيرة العربية، والممتدّ من عُمان جنوباً، إلى البصرة في العراق شمالاً، ومن شواطىء الخليج شرقاً، إلى الدهناء غرباً بما في ذلك الجزر التابعة لهذا الساحل ومن بينها جزر أوال، ندرك حينئذٍ أن كل مَن كان يُدعى بلقب «البحراني» هو ينتمي إلى أيّ بُقعة في هذا الساحل الذي يُسمّى أيضاً «ساحل الأحساء». من هنا يسهل القول أنّ المناخ الثقافي لكل هذه المنطقة هو متشابه بل واحد في جميع نواحيها.

ونظراً للتداخُل الوثيق وأحياناً الخلط بين العرفان والتصوّف، بل بين حكمة الإشراق والفيض والفلسفة الباحثة في الحكمة الإلٰهية، فإنّ الكثير من علماء المنطقة أسماء لامعة في هذا المجال، بل ومن خارجها إما مرّوا أو عاشوا في هذه المنطقة أو تتلمذوا على أعلام هذا الفنّ من أبنائها، أمثال

الشيخ فخر الدين أحمد بن عبد الله المعروف بالمتوّج البحراني[١]، والشيخ الزاهد جمال الدين حسن الشهير بالمطوّع الجرواني الأحسائي[٢]، والشيخ ميثم البحراني[٣] والشيخ محمد بن أبي جمهور[٤]، وأُستاذه المولود في منطقته الشيخ علي بن هلال الجزائري[٥]، وقبله السيد هاشم بن السيد سليمان التوبلاني البحراني[٦]، وغيرهم العديد من فرسان هذا المجال الذي يتفاوتون بالطبع درجةً فيه.

ومن هذا الوسط المشحون بمصطلحات الكلاميين ـ بعد أن برز في الأُفُق من يستنكر على أصحاب علم الكلام والتصوُّف تفكيرهم وسلوكياتهم، وفي ذات الوقت ناصب العداء لفكر أهل البيت عليهم السلام، عبر معاداة أتباعهم من مُحبّيهم، وتشديد النكير عليهم ونعتهم بالكفر والبدع، وإلصاق التُّهم التي ما أنزل الله بها من سلطان فيهم ـ انبثق العالم الربّاني الشيخ أحمد بن زين الدين الأحسائي (١١٦٦هـ ـ ١٢٤١هـ) الذي نفض عن الحكمة غبار التصوّف، وألجم التطرّف الناصبي بنشر الفضائل المحمدية، وأرسى دعائم التوحيد الخالص من فلسفة المشّائين

---

(١) هو الشيخ جمال الدين أحمد بن عبد الله بن علي بن الحسن بن المتوّج البحراني من أعلام القرن التاسع، وقد توفي في حدود ٨١٠هـ/ ١٤١٧م كما في هدية العارفين، ج ١، ص ١١٩.

(٢) من أعلام القرن التاسع، ينتمي إلى حكّام الأحساء السابقين آل جروان، عالم فاضِل جليل، من أساتيذ الشيخ بن أبي جمهور.

(٣) هو الشيخ كمال الدين ميثم بن علي بن ميثم البحراني، كان من العلماء الفضلاء المدققين متكلّماً ماهراً، له كتب منها شرح نهج البلاغة، وشرح المائة كلمة، ورسالة في الكلام والعلم، وتوفي بالبحرين في قرية هلتا من الماحوز سنة ٦٧٩هـ.

(٤) من أعلام القرن التاسع الهجري توفي بعد ٩٠١هـ، وللمؤلف كتاب في ترجمته.

(٥) عراقي الأصل ولكنه بحراني الولادة، أستاذ بن أبي جمهور في علم الكلام، ضمن الحوزة العلمية في كرك نوح بلبنان.

(٦) ت حوالي ١١٠٧هـ وله من الكتب مدينة المعاجز، البرهان في تفسير القرآن الذي تنتسب إليه ذرية المؤلف القاطنين في بلاد العجم ولقبهم آل برهاني.

والسفسطائيين والإشراقيين، وقدّم لمجتمعه المرتكز العقائدي الذي يصلح مُنطَلقاً للبناء الحضاري.

لقد جاء صوت الشيخ أحمد قدس سرّه، مفحِماً للأصوات النشاز التي تعالت ضد أهل البيت وشيعتهم، وفي الوقت ذاته كان يستنكر على الفلاسفة العرفاء، اعتمادهم على الأفكار اليونانية القديمة التي تزعم أنها [تجعل الوجود بأجمعه ميداناً يجول فيه الفكر البشري، وتحمل العقل الإنساني على جناحها وتحلّق به إلى عوالم هي منتهى آماله وغاية طموحه. فالفلسفة كما يُعرّفونها عبارة عن البحث والدراسة في سلسلة من المسائل التي تتحدّث عن مطلق الوجود وأحكامه، وأعراضه على أساس البرهان والقياس العقلي. وأصل موضوعها الكلام في وجود الأشياء أو عدمها، والتدقيق في أحكام مطلق الوجود..!.

وقد انحدرت أنضج الآراء الفلسفية ووصلت إلى المسلمين، من النهضة العلمية والفلسفية اليونانية قبل ألفين وستمائة عام تقريباً. وقد بدأت هذه النهضة الفكرية في أطراف آسيا الصغرى واليونان، ثم كانت الإسكندرية امتداداً لها، وبعدها سارت أثينا والاسكندرية نحو الاضمحلال بسبب الضغوط السياسية، فركدت الحركة الفلسفية لتُعاود انتعاشها من جديد على أيدي المفكّرين المسلمين بعد تسرّب الأفكار الفلسفية إلى العالم الإسلامي مع حركة الترجمة الواسعة التي أمر بها سلاطين الدولة الأموية والعباسية..!][1].

وبغض النظر عن الأسباب السياسية التي دعت أولئك السلاطين لجلب الرؤى والأفكار الدخيلة على الدين لشغل العقول بها، فإنّ الصراع

---

(١) أُسس الفلسفة والمذهب الواقعي / تأليف السيد محمد حسين الطبطبائي، وتعليق الشهيد مرتضى المطهري ـ بتصرف واختصار ص ١٢ـ ١٣.

الفكري بين الإلتزام الديني والإنفلات الشهوي، بدأ يتلمّس المعاذير والتبريرات ويطرق أبواب الذرائع والمسوِّغات، عبر الأفكار الوافدة ليمهّد السبيل أمام التيارات الفلسفية لتطفو على السطح بعد أن توضّعت مكانةً في الحياة الفكرية الثقافية.

[ولم يستوِ للفلسفة شأن يُعتدّ به إلاّ في القرن الحادي عشر الهجري، على يد صدر المتألّهين الشيرازي[1] المعروف بلقب «الملاّ صدرا»، حيث أسّس الفلسفة المعروفة «الحكمة المتعالية»، ليُنهي بذلك نزاعاً دام أكثر من ألفي عام بين مذهبين فلسفيين، كانا يسيران بشكل متوازٍ منذ ثار الفيلسوف الحاذق «أرسطو» الذي مثّل فيما بعد مذهب «المشّائين» على آراء أُستاذه الحكيم «أفلاطون» الذي أسّس مذهب «الإشراقيين» بعد أن استمرّت المشاجرات الفلسفية بين أتباع الإتجاهين طيلة هذه الأعوام بين اليونانيين في البداية، ثم في الإسكندرية وبعد ذلك بين المسلمين، وفي القرون الوسطى بين الأوروبيين!!.

وتدور معظم بحوث صدر المتألهين حول الفلسفة الأولى والحكمة الإلٰهية، بعد أن تمثّل بصورة متقنة ما وصل إليه من آثار اليونانيين القدماء ولا سيما أفلاطون وأرسطو، واستطاع أيضاً هضم ما قدّمه الفارابي وأبو علي وشيخ الإشراق وغيرهم من تفسير أو إبداع، واستوعب أيضاً ما أدركه العارفون بوحي من أذواقهم، ثم شاد أساساً جديداً على قواعد وأصول مُحكمة لا يتطرّق إليها الخلل، وأخرج مسائل الفلسفة بشكل رياضي

---

(١) وُلد صدر الدين في شيراز حدود ٩٨٩هـ، ودرس في أصفهان عند الشيخ بهاء الدين العاملي، ثم عند أستاذه الكبير السيد محمد باقر ميرداماد، واتصل لبعض الوقت بالشاه عباس الصفوي، ولكنه عاش غنيّاً بما ورث عن أبيه وزاهداً صوفيّاً منعزلاً عن الناس، مواظباً على الطاعات حتى أدركه الموت وهو في حجّته السابعة ولم يحجّ إلاّ ماشياً، وقد توفي عام ١٠٥٠هـ.

بوساطة البرهان والاستدلال، بحيث تُستنبط وتُستخرج الواحدة من الأخرى..][1].

وبهذا الاعتبار صار لنظرية «وحدة الوجود» و«الفيض الإلٰهي» بروز جديد وأتباع عارفون وجيلٌ جديد من الفلاسفة يعتدّون بهذا النهج الفلسفي الجديد الذي اختطّه الملاّ صدرا الشيرازي، ولكن مع ذلك تبقى المؤاخذات عليه أن لا أصل له في فكر أهل البيت عليهم السلام، فضلاً عن أنّ منشأه كان من الإغريق، إذ لم يدخل ضمن أبحاث علم الكلام ومناقشات العقائد الإسلامية إلاّ بعد حركة الترجمة التي سبقت إليها الإشارة.

وبسطوع نجم الشيخ أحمد بن زين الدين الأحسائي تغيّر المسار الثقافي في المنطقة، وبالذات فيما يتعلّق بشؤون الفلسفة إذ وُلِدت مدرسة جديدة، شاء الله لها أن تقوم بدورين مهمّين:

الأول: أن تختطّ في الفلسفة طريقاً جديداً ينتزع التوحيد من شوائب الفلسفة اليونانية، حيث يؤكّد الشيخ أحمد على وجوب أن يكون أمر التوحيد من وحي يوحى، بحيث لا يتطرّق إليه الخطأ والزلل. وإن يكن إثباته أمراً عقليّاً إذ الاستدلال على التوحيد بالعقل وحده، فإنّ العقل يثبت أصل التوحيد دون الخوض في التفاصيل، وإلاّ للزم العبث من بعثة الأنبياء والرسل لإرشاد البشر وتعليمهم بأسماء الله تعالى وصفاته ومعرفته، ومن ثمّ يصحح بعض الرؤى ويضع المصطلحات المتّفقة مع روايات أهل البيت عليهم السلام، إلاّ فيما ندر. مع عدم إغفال ذكر الرأي الأصحّ في مختلف القضايا المطروقة فلسفياً، وفق ما كان يراه سبحانه تعالى، ثم وجدت تلك الآراء اهتماماً من الدارسين فما لبثت أن امتدّت وصار لها أتباعٌ في أماكن عِدّة.

---

(١) أسس الفلسفة والمذهب الواقعي / تأليف السيد محمد حسين الطبطبائي، وتعليق الشهيد مرتضى المطهري ـ بتصرف واختصار ص ٥٢.

الثاني: أن تقوم بلمّ الشتات، فتُعيد لكياننا الشيعي في الأحساء نضارته وقوّته على أيدي بررة من أبنائها حملوا بجدٍّ لواء المسؤولية الدينية والاجتماعية، فالتحقوا بهذه المدرسة وتخرّجوا منها قادةً لها. وكان مترجَمنا ثالث رأس فيها بعد الشيخ المؤسس الأوحد، وتلميذه الرشتي قدّس الله سرّهما، ولكنه الرائد الأوّل لتطبيق برامجه عبرها في بلاد الأحساء بل في عموم منطقة الخليج.

ففي عهد المترجَم، كانت الأجواء مفعمة بأفكار الشيخ الأوحد، تجد صدىً عميقاً لدى المهتمين بقضايا الإصلاح الاجتماعي، والتصدّي للحملات التي تُعادي أهل البيت عليهم السلام، وكان شيخنا يتحرّق شوقاً لينضمّ لهذه المدرسة، لذلك لم يألُ جهداً ـ برغم حصوله على درجة الاجتهاد في الأحكام الفقهية ـ للسفر والإلتحاق بها لأن ولوج باب الحكمة، له غرامٌ ذو لهيب..!

ولو شئنا الحديث عن رحلة شيخنا العرفانية بعمقها لخاننا التعبير، ولكن من حسن الحظ أنه كفانا هذه المهمة، إذ تحدّث عنها بطريقته الخاصة، مسترسلاً في دقائق مُعاناته مُذ بدأ المشوار، فلنرحل معه نقتفي ذؤابة يراعه وهي ترسم قوله: [..**إني صرفت جوهرة عمري في تحصيل بعض العلوم والآداب لا سيما الآليّات حيث كنت مكبّاً بالنظر إليها، وتفتيش كتبها والكلام فيها وعليها، لأن همي كان في تحصيل كمالات صورية ومحاسن ظاهرية من غير أنس مني بالمعاني الإلٰهية، والحقائق الربّانية والأسرار الباطنية، زعماً مني أنّ تلك هي الغاية القصوى والمقام الأعلى، وأن ليس وراء هذه الغاية غاية ولا وراء عبادان قرية، وبقيت على هذه الحال شطراً من الزمان ومدّةً من الدهر الخوان.**

في أثناء هذه المدة إذ اتّفق في بعض الأحيان في بعض المجالس[1]،

(١) مما يدلّ على وجود أفكار الشيخ الأوحد في البلاد ولكن في بيوت العلماء وخواصهم.

ذكر قطب الهداية وعلم الدراية ومبيّن محكم الآية والرواية، الذي أنواره مقتبسة من فاضل فلك الولاية، النور اللامع من ضياء الحقيقة المحمدية، والبدر الطالع في سماء الإمامة العَلوية، والدرة المنيرة الخارجة من الصدفة الفاطمية والثمرة الجنية الناتجة من الدوحة الحسينية، السيد السند والكهف المعتمد عمدة الأفاضل وزبدة الأعاظم، جناب السيد «كاظم» أطال الله بقاه، وجعلنا من كل مكروه فداه، من بعض الإخوان ينشرح صدري ويطيب عيشي، ويعتريني سرور بحيث أني أسهو عن نفسي ولم أبرح أتمنى رؤيته ولو مرة واحدة في العمر، ولم يزل قلبي يحترق في تلك الأوقات بنار الهيام، وفؤادي يتلظّى بسعير الغرام، تغرقني العبرة وتحرقني الزفرة، وعيني ساهرة من عدم حصول المنام، وكلما استأذنت فخري وعزّي وسندي ومعتمدي وشيخي، والدي العزيز في السفر إلى تلك المشاهد المشرفة والأماكن المقدّسة والبقاع الطيبة الطاهرة، لعلي أحظى بمطالعته ورؤيته وأسعد بمجالسته وصحبته، بعد زيارة أجداده الطاهرين سلام الله عليهم أجمعين ما يعبد الحق باليقين، أمهلني وريّضني إلى أن خطر ببالي القاصر وذهني الفاتر وقتاً من الأوقات وساعة من الساعات، أني أتشرف بخدمة بعض الإخوان العزاز لديه وأستعين بهم عليه، لعله يأذن لي ففعلت ذلك مراراً متعددة حتى أذن لي، ولكن اشترط علي سلمه الله وأبقاه، بمحمد ﷺ وعليٍّ مولاه حضور درس ذلك الطيب الطاهر فقط[1]، وعدم الاعتناء بغيره فحمدت الله على ذلك، وعزمت من حيني على السفر.

لما وفقني الله تم لي تقبيل العتبة العلية والسدة السنية الحسينية، عليه وعلى آبائه وأبنائه آلاف التحفة والتحية، وتشرّفت بذلك الوادي المقدس، المطهر من الرجس، المحمود الفلك الأطلس، سألت عن ذلك الجناب

(١) مما يدلّ على أن والده كان مُتأثّراً بأفكار الشيخ أحمد، وأراد لابنه نفس التوجّه.

فقيل لي أنه في الكاظميين، وبقيت أياماً قلائل فإذا هو قد تشرّف لزيارة سيد الشهداء. فخرجت مع من خرج لتلقيه فلما رأيته وسلمت عليه وأمعنت النظر في ذلك الجمال، طاب لي الحال وزال عني البلبال والثوال، وازددت فيه شوقاً على شوق وودّاً على ودّ، حتى نسيت الأهل والعيال والوطن والمال.

لما استقرّ به المكان بعد يُوَيمات، مضيت إلى خدمة ذلك العالم الكامل الفاضل ناموس الدهر وتاج الفخر وعلامة العصر وحيد الدهر، موضح الحقيقة والطريقة ومحيي الشريعة على الحقيقة، وماحي قواعد الحكماء الصوفية، ومظهر آثار علوم العلوية سيد الأمة ونسل الأئمة، عزّ المؤمنين وملاذ العلماء العارفين وركن الإسلام والمسلمين وخاتم المجتهدين، العالم الربّاني والحكيم الصمداني والعارف السبحاني، والفرد الذي ليس له ثاني، والفاضل الإلٰهي العلم الأمجد والفرد الأوحد أعلم العلماء وقدوة الفقهاء، المضيّع لمُبتدعات الأشراقيين والمخرِّب لقواعد المشّائيين والمبطل لمخترعات الصوفيين الملحدين، والمصحِّح لقواعد العلماء الإلٰهيين والناصر لمذهب أجداده الطاهرين، سلام الله عليهم أبد الآبدين ودهر الداهرين، أفقه الفقهاء والمجتهدين زبدة المؤمنين الممتحنين عماد الملّة والدين، سيد السادة وسند السيادة المولى الأعظم والسناد المعظّم، صفوة الأفاضل العارف بحقائق المعاني، الواصل فيضه القاصي والداني، قدوة المدقّقين وفخر المحقّقين عمدة الفضلاء وأزكى الأزكياء ملجأ الطلاّب وملاذ الأصحاب، رأيته جالساً في صدر ناديه والطلاّب جاثية بين أياديه، والناس مجتمعون عليه وهو يباحث في كتابه المسمّى «باللوامع الحسينية»، عليه وعلى آبائه وأبنائه آلاف الثناء والتحية، فرأيته بحراً موّاجاً وسراجاً وهّاجاً ونجماً زاهراً وشمساً منيراً، وبحراً يتقاذف موجه بالدرر،

وعقداً في جيد الدهر يتلألأ بالغرر، فيملأ الأصداف والأسماع درّاً فاخراً، ويبهر الأبصار والبصائر محاسن ومفاخراً، فرائد فوائده تُخجل جواهر العقود، وجواهر فرائده تُزري عقائد النقود، يتشعشع من جبهته النور ويتناثر من وجنته السرور، دلاء العلوم تقذف درر المعارف لغواربه، وقمر الفضل أشرق بضياء عوارفه لمشارقه ومغاربه، كالبحر يقذف للقريب جواهراً جوداً، ويبعث للبعيد سحائباً المودا، وعَلَم عِلم لا تُباهيه الأعلام وحقّه فضلٌ لا يفصح عن وصفه الكلام، أرّجَت أنفاسُ فوائده أرجاء الأقطار، وأحيت كل أرض نزلت بها فكأنها لبقاع الأرض أمطار، شاد مدارس العلوم بعد دروسها، وسقى بصيِّب فضله حدائق غروسها، وأنعش جذورها من عثارها وأخذ من خراب الجهل بثارها، وفوائده في سماء الإفادة أقمار ونجوم، وشهب لشياطين الأنس والجن رجوم، إن نطق صفّد المعاني عن أَمم، وأسمعت كلماته من به صمم، ولئن كتب، كبت الحساد عن كثب، فجاء بما شاء على الاقتراح وترك أكباد أعدائه دامية الجراح، وكنت قبل ذلك أسمع بعض الممادح من بعض الإخوان لذلك الجناب، ولكن بعدما تشرّفت بخدمته ولازمت صحبته، عرفت وتيّقنت بأنهم ما عرفوا من مناقبه وفضائله معشار العشر، لا هم ولا غيرهم وأنه غريب بين أظهرهم ما قدروه حق قدره، وأنه بينهم كالمسجون لأنه محشور مع غير جنسه وأن كل من وصفه إنما وصفه بما ظهر له به، كما قال سيد الموحّدين:

«إنما تحِدّ الأدوات أنفسها وتشير الآلات إلى نظائرها» الخطبة.

ولذا تراهم مختلفين فيه ومتفاوتين في معرفته، وقمتُ أتشرّف كل يوم بحضرة قدسه وأفوز بقدس أنسه واستأنس بمجلسه الشريف في وقت مباحثته، لكن كما قال الشاعر:

كم يطرب القُمريُّ أسماعنا ونحن ما نفهم ألحانه

فبقيت على هذه الحال، مدّة أيام وليال متبلبل الأحوال متغير الحال، سائلاً من ذي الجلال في الأيام والليال، (إصلاح الأحوال)[1].

(وقد) خطر ببالي في بعض الأيام أني أتشرف بخدمة العالم العامل، والفاضل الكامل ذي المناقب والمفاخر وذي المزايا والمآثر، العارف الأجل والعالم البدل الجامع بين العلم والعمل، كهف ذوي الألباب والولد الحقيقي لذلك الجناب، ملاّ أبي تراب وأعرِض بخدمة جنابه الشريف أزاده الله علوّاً وتشريفاً، من طرف المباحثة معه في كل يوم ساعة في شرح الفوائد ففعلت ذلك، فأجاب دعائي سلمه الله تعالى من كل شر، بحق محمد وآله سادات البشر، وقمت أحضر كل يوم ساعة من النهار في مجلسه الشريف ومحضره اللطيف، بعد الظهر مدةً مديدة وأشهراً عديدة إلى أن اقتضى حوادث الزمان وعوائق الدهر الخوان، المفارقة بيننا بسبب سفره إلى أطراف العجم.

لما سافر مضيت إلى خدمة الشيخ الأعظم والعماد الأقوم، قدوة الأنام وعلم الإسلام، وصفوة الفضلاء الكرام وعلاّمة علماء الإسلام، العالم العامل والفاضل الفاصل، العالم بالعقل والنقل والعارف بمعارف الفرع والأصل، المؤيد بلطف الله الجلي العلي، ملاّ حسين ابن المرحوم الحاج مولى قلي الكنجي التبريزي فعرضت بخدمته من طرف المباحثة أيضاً في ذلك الكتاب، وفي ذلك الوقت، فأجاب مسألتي سلّمه الله وأبقاه، بمحمد على مولاه، وإن كنت سابقاً أحضر عنده في مباحثة مع الغير فما برحت أتشرّف بخدمته في كل يوم بعد الظهر ساعة، وفي مجلس الشيخ الأعظم والبحر الخضم والطود الأشمّ والأنبل المحتشم بحر العلوم والأسرار،

---

(١) ليست في الأصل ولكن وضعتها لضرورة التنسيق الفني. ومثلها أول لفظة في السطر الثاني.. لكمة وقد.. ولذلك وضعت كلاً منهما بين قوسين.

والدر الفاخر والنور الباهر والعلم الظاهر علامة عصره وفريد دهره غواص أبحر العلوم والآداب، والخلّ الحقيقي لذلك الجناب الطيب ابن الأطياب، الموفق المؤيد المسدد بفيض المحيط الملقب «بميرزا محيط الكرماني» أدام الله ظلّهم على رؤوى الأنام، لأنهم صفوة علماء الإسلام بمحمد وآله الكرام، فلما استمرّ بي الحال على هذا المنوال من كثرة البحث والقيل والقال، قام ينفتح لي مغالق العلوم والخيرات، شيئاً فشيئاً حتى انسدّت دوني أبواب الشكوك والشبهات، وصفا ذهني واستعدت قابليتي من كثرة المباحثات، وعرفت الاصطلاحات المطلقة في العبادات، إلى أن بلّغني الله فهم بعض تحقيقات ذلك الجناب، وتفكيك عبارات ذلك العباب، وإدراك إشارات ذلك الجناب لب ذوي الألباب والصفوة من ذرية الأئمة الأطياب، إلى أن وُفّقت به وبفاضل أشعته أني أشرب من الكؤوس أصفاها، ومن المشارب أحلاها، ومن الموائد أغلاها ومن الفيوضات أزكاها، فخمدت منها نيران كانت كامنةً في الجوى، ومتوقدةً في الحشى ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، على حد قوله تعالى:

﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[1].

وقوله عليه السلام:

(من طلب وجدّ وجد، ومن قرع الباب ولّج ولج!.)..][2].

إننا نقرأ في هذه القصة بداية الرحلة ليس حسب، وإلاّ فإنّه لم يُحدّثنا عن تطوّرات رحلته العرفانية التي استمرّت معه إلى آخر العمر. كما إننا لا نقوى على تتبّعها إلى مداها، وإلاّ للزمنا تخصيص فصل لذلك.

---

(١) سورة العنكبوت، الآية ٦٩.

(٢) مفاتيح الأنوار، ص ٧.

وفيما قرأناه تتبدّى لنا مواظبته الشديدة على مجاهدة النفس، والاستقامة على البرنامج الذي رسمه لنفسه، وإخلاصه في عمله، مع صدق مشاعره وعذوبة ألفاظه وخفض جناحه في مواقفه تجاه الأشخاص الذين يتعامل معهم في قليل أو كثير، لا سيما أهل الدالّة عليه.

ومن كان شأنه نكران الذات لا يمكنه إلاّ أن يتصرّف بروحيّة عالية، وحياء شديد. ولذا فإنّ سلوك طريق العرفان ينسجم مع خصائصه الذاتية، ويتماشى مع توجّهاته الروحية. هذا من جانب، ومن جانب آخر نجده في ارتباطه بالله يصل إلى درجة التوكّل والثقة اللامحدوديْن، ويتعامل مع الأمور الإلٰهية بثقة مطلقة وإن كانت مسألة غيبيّة.

دخل عليه أحد التجار من المؤمنين، وأخبره بأنه ينوي السفر بحراً إلى الهند، ومعه مال كثير للتجارة، إلاّ أنّه يخشى الغرق وخسارة المال فكيف يصنع..؟! فأجابه بأنّ عليه أن يُخمِّس المال، فوافق الرجل إلاّ أنه تساءل: وما الذي يحفظ المال فقال الشيخ: إذا دفعت الخمس فالله يحفظ به المال..! فقال الرجل: ولكني أريد بذلك ضماناً.. فكتب له الشيخ ورقةً وأعطاه إيّاها فأخذها الرجل ومضى، وبعد فترة عاد للشيخ يقص عليه قصّته الغريبة..! إذ نجح مشواره في الهند وربحت تجارته، ولكن في طريق العودة بحراً، هبّت عليهم ريح عاصفة، وهاج بهم البحر، واضطربت السفينة، فأمر القبطان بالتخلّص من كل التوابع والأغراض والأمتعة والحوائج الشخصية، وبالفعل لم يبق غير الأشخاص فوق السفينة، وكان من بين ما رُمي أمتعته وأمواله، وقد يئس منها بعد رميها في البحر، إلاّ أنه ظلّ يحدّث نفسه بالعوض من الشيخ بموجب ورقة الضمان التي كتبها له، ولكن المفاجأة كانت عندما وصلوا البلاد، ورست السفينة عند رصيف الميناء، ونزل الركّاب وطاقم السفينة يتفقّدون أحوالها، وجدوا متاع الرجل معلّقاً في

المرساة، لم ينقص منها شيء..!!!. فلم يكن من الشيخ إلاّ أن ابتسم.

فلله الأسرار، ومن كان مع الله، كان الله معه..!.

وهكذا ندرك أنّ للشيخ تجلّيات روحية لما تنطوي عليه نفسه من الصفاء والشفافية، وقد لا نستوعب الأمر لأنها بعيدة عن مجرّد تصوّراتنا، إلاّ أنّ المسألة لا تخلو من تأمّل.

ومع أنّ ما ورد في النصّ السابق ليس سوى عبارة عن خطواته الأولى في عالم العرفان، إلاّ أنه يعني أيضاً أوّل علاقة له بالقلم، حيث انطلق بعدها في عالم الكتابة الرحيب، واثقاً من نفسه، مُطلقاً العنان لقلمه، مُتدفّقاً في أفكاره، مُستطرِداً في شواهده، لطيف الإشارة، رصين العبارة، وقد كتب حتى أغنى المكتبة المحلّية بنتاجه الفكري والفقهي والعقائدي.

الفصل الثاني:

من فيوضات يراعه..!

لا شك أنّ الكتاب ترجمان لعقلية الكاتب، ومرآة تعكس مخزونه الفكري، ومؤشّر صدقٍ يدلّ على مستواه العلمي والثقافي. كما يمكن من حلال الكتابة أن تتوضّح شخصية الكاتب وخلفياته الاجتماعية، وظروفه البيئية والسياسية وانطباعاته النفسية، إضافةً إلى علاقاته العلمية.

وما الكاتب إلاّ جزء من مجتمع له تاريخه ومعتقداته ومبادؤه ومؤسساته ورموزه وتراثه وتقاليده، فكيف إذا كان ذلك الكاتب يُمثّل الرأس في ذلك المجتمع وراعيه..؟

ولو قُيّض لمترجَمنا أن يعيش في بُقعة بارزة من عواصم العلم والأضواء، لبرز إلى قمّة الواجهة أُسوةً بأمثاله من المراجع الكبار، والعلماء الفطاحل والمؤلفين البارعين، الذين خاضوا في شتّى صنوف العلم والمعرفة والأدب نثراً وشعراً، خطابةً ومُناظرةً وكتابةً. إلاّ أنه قدّس الله ثراه لم يُكتَب له أن يعيش إلاّ في رُقعةٍ من الأرض نائية عن دائرة الضوء «الأحساء» بل منسيّة التراث والتاريخ، يتطلّب الباحث جهوداً شاقّةً ليُميط اللثام عن مجاهيلها.

وعلى رأي من يقول بنظرية «العاصمة والأطراف» التي تعني أنّ الاهتمام والأضواء ينصبّان على العاصمة وما حولها، بينما لا تحظى

الأطراف والمناطق النائية بعُشر الاهتمام، تنطبق هذه النظرية على البلدان في مواقعها بحيث تبدو بعض الأقطار وكأنها «عاصمة»، في حين ينزوي البعض الآخر منها وكأنها «الأرياف» التي لا تنال أدنى اهتمام، حتّى وإن كانت الحوادث فيها تترى وبشكلٍ مثير..!

ولقد كان من نصيب منطقتنا «الأحساء» أن تكون واحدةً من الأطراف، بحيث لم تحظَ بأي اهتمام على الصعيد الحضاري والتاريخي والإعلامي والتراثي ـ وحتى من أبنائها مع الأسف ـ برغم غناها وعُمق ثرائها في كل مجال، وما كُتب عنها مؤخراً فهو دون القليل.

وهذا الأمر هو ما حصل لثالث أعظم شخصية أحسائية شيعية في القرون الخمسة الأخيرة، بعد الشيخ محمد بن أبي جمهور والشيخ أحمد بن زين الدين قدّس الله سرّهما، حيث تأتّى لهذين العَلَمين أن يبرُزا في سماء التراث الشيعي، لأنهما تألّقا في عواصم العالم الشيعي (إيران والعراق) فتسنّى لهما أن يسطُعا في كتب التراجم والفهرسة، في حين أنّ مُترجَمنا ما إن بلغ مرامه في تحصيل درجة الاجتهاد في العراق، حتى عاد أدراجه إلى موطنه ليكافح فيه من أجل ترتيب الوضع الداخلي، وتقوية الجبهة الشيعية في منطقة شرق الجزيرة العربية، بعد أن كانت الأوضاع تُنذر بالفناء والتشرذم للمجتمع الشيعي في هذه البُقعة من العالم الإسلامي..!

وإنّه لمن المؤسف حقّاً أن لم يتسنّ للشيخ من يسلّط الضوء على شخصيته وأبعادها، وملامح حياته وأنشطته برغم الشهرة الكبيرة التي حظي بها محلّياً، إلاّ أنّ مكتبتنا التراثية ظلّت إلى الآن مُكتفيةً بصيت مرجعيّته، محتفظةً بنُسَخٍ مخطوطةٍ من مؤلّفاته متناثرةٍ هنا وهناك، ولا نعلم بالضبط إن كان الموجود منها هي كل كتاباته، أم أنّ بعضاً من فيض يراعه قد اختفى في زوايا الإهمال والإغفال والرهبة إبّان سنّي الاضطرابات السياسية

والاختلافات المذهبية والفوضى الأمنية..؟..!

فبالرغم من غزارة علم الشيخ وتنوّع معلوماته، مع عمق أفكاره لا نجد له الكثير من الآثار، حيث لا يُعتبر من المُكثرين في الكتابة. فبالنسبة إلى عمره المديد الذي تجاوز المائة بسنين، من المفترض أن يُقدّم الكثير من العطاء، في كتاباته أو إجاباته المكتوبة على العديد من المسائل الدينية فقهيةً أو عقائدية أو أصولية، ليس هناك ما يمنعه على الصعيد الأمني خصوصاً في الربع الأخير من حياته، بعدما انفرجت الأمور سياسيّاً وأصبحت له الكلمة المسموعة في البلاد.

وصحيح أنه تعب في آخر حياته وضعُف بصره كما ألمح في إحدى رسائله الشخصية، ولكن كان بإمكانه أن يُملي فيُكتب له كما فعل في جواب الرسالة التي وجّهها له العلاّمة العيلم آية الله الشيخ جعفر بن الشيخ محمد بن الشيخ عبد الله أبو المكارم القطيفي ـ توجد لدينا صورة من الجواب ـ ساكن العوامية.

إلاّ أننا من جانب آخر يمكن أن نلتمس له العذر بكثرة مشاغله وارتباطاته الاجتماعية بحيث منعته من التفرّغ للكتابة، فلم يستطع تقديم المزيد من نتاجه الفكري، مُكتفِياً بالأبحاث والدروس التي كان يُلقيها في مجالسه أو عبر الحوزة التي أسّسها. بل هو قد صرّح في بعض رسائله أنّ هنالك ما يمنعه من الكتابة كما ذكر في رسالة (**المنهاج بدرة الابتهاج في بيان معرفة المعراج**) بأنه يُفضّل الجواب مُشافهةً حيث قال نصّاً: [**بل أحببت أن يصدر مني له الجواب بالمشافهة، وأُخاطبه وأُفهمه إياه بالملاطفة، لأنه ليس كل ما يُعلم يُسطّر..**][1]، لا سيما وأن مبررات التأليف لديه كانت

(١) من مخطوطة المنهاج بدرة الابتهاج في بيان معرفة المعراج، ص ٦٤.

وجيهة. وقد أشار إليها في بعض كتاباته حيث عدّد بعض مسوّغات الكتابة عنده وذلك في رسالة «**الكنز الخفي**».

على أنه من الإنصاف أيضاً، الإشارة إلى أنّ الشيخ كما يبدو من كتاباته وتصريحاته، كان في وضع مُتأرجح بين أمرين:

الأول: أن يتنازل عن الكتابة تحت ضغوط المبررات المانعة..!. وهي كثيرة، بعضها يسوقه تواضُعاً، والبعض الآخر موضوعي، ولعلّه يأتي ببعضها تأسّياً بأسلوب أساتذته في إظهار التواضع ونُكران الذات ولين الجانب، مثل قوله: [**..وسألني عن مسألة صعبة.. مُريداً من الحقير، المعترف بالقصور والتقصير، جوابها وكشف حجابها ورفع نقابها، وتبيين بعض أسرار ألفاظها على وفق ما فسّره أولياؤنا، ويكون مني ذلك على نهج الكمال، وسبيل الاستعجال، لأنه ظنّ أنّ السراب ماء، والدخان المرتفع سماء ولم يعلم بأنّه هباء**][1]، ومثل هذه العبارة تتكرر في مُعظم كتاباته، ولكنه في الغالب يسوق تلك المبرّرات ليعلّل تأخير الجواب ويقولها بصراحة: [**سوّفت في الجواب لأمور.. أحدها: قصور الباع وقلّة الاطّلاع، وعدم وجود القابلية للتصدّي لشرح كلمات لسان الله تعالى (يعني المعصومين). وثانيها: توزّع البال، وتغيّر الحال، وكثرة دواعي الاشتغال، وتواتر موانع الاستقامة والاعتدال. وثالثها: بيان معنى الحديث صعب على الأذهان، خصوصاً أهل هذا الزمان لكونه صادراً منه ﷺ، على نهج ما تدركه الأفئدة. ورابعها: إنّ لكلّ مسألة في كل وقت جواب، ولكل مخاطَب خطاب، إذ ليس كل ما يُعلم يُقال، ولا كلّ ما يُقال تجد له رجال، ولا كل ما تجد له رجال يسوغ إظهاره بين العوام والجُهّال، لأنه ليس كل ما حضر أهله حان وقته، ولا كل**

(١) من رسالة الكنز الخفي ص ١٤١ حسب ترقيم المخطوطة.

ما حان وقته حضر أهله.. ثم يُضيف الخامسة قائلاً: **.. وبالجملة فإني ما بادرت إلى ذلك (الكتابة) لكوني مغشوش البال مضطرب الحواس من شرار الناس..**][1] ولعل الجملة الأخيرة إشارة إلى الوضع السياسي آنئذٍ.

الثاني: أن يبادر إلى الكتابة حسب إلحاح المسوّغات الدافعة.! وهي الأخرى كثيرة تُحتِّم عليه المسارعة للكتابة برغم الخطر المحتمل، وقد جمعها باختصار في قوله رحمه الله: [**..لمّا رأيت إفشاء الجور في البلاد، وميل الناس عن طريق الرشاد، وإعراضهم عن السداد، وتشميرهم عن ساق الجد والاجتهاد في إغواء العباد، وشاهدتُ عدم الإنصاف، من بعض الأشخاص وشدّة إصرارهم على العناد والاعتساف، وحرصهم على تنزيل قدر أهل الأعراف، الذين هم شرف الأشراف من سلالة عبد مناف، وشيعتهم أهل العلم والزهد والعفاف، عند العوام الأجلاف، الذين لا يتأثّمون ولا يتحرّجون عن الانحراف، ولا يُبالون بالطعن في أعراض العلماء وإفشاء الخلاف، ولا يستعظمون جحود فضائل أحبّاء الملك العلاّم.. ألزمتُ على نفسي دفع شبهات أهل العناد، ورفع أعلام مذهب أهل الرشاد..**][2]. فكان دفع الشبهات ونشر المعرفة، وتبليغ تعاليم الرسالة التي طوّقها أهل البيت عليهم السلام في عنقه، رائده الأكبر للجهاد بالقلم وتخطّي كل الحواجز والصعوبات.

ومهما يكن الأمر فإنّ قلم الشيخ سيّال، فإذا ما كتب فإنه لا يعرف التوقّف بل يستمرّ مسترسلاً في فيوضاته العلمية، وإغراقاته العرفانية، لا سيما إذا كان الحديث عن العقائد التوحيدية والحقائق النورانية، فله ذوق خاص في الحكمة الإلٰهية، على منوال الشيخ الأوحد، الزعيم الديني الشيخ أحمد بن زين الدين الأحسائي الذي يعتبره معلّمَه الأوّل، لا يماثله في

---

(١) مجموعة فقرات مُقتطفة من رسالة هداية المسترشدين ص ٢٦ـ ٢٧ـ ٢٨.

(٢) رسالة مزيل الأغيار ص ١٨٩ من المخطوطة ذات ٤ رسائل.

المستوى إلاّ أُستاذه المباشر، شيخه في النهج العرفاني السيد كاظم الرشتي قُدّس سرّهما..!

هذا ويغلب على أسلوب الشيخ طابع السجع الذي يطبع كتابات زمانه، إلاّ أنه ينساب في سجعفه مُنساقاً دون تكلّف أو اعتساف واصلاً إلى فكرته العميقة برشاقة سجعه، وعذوبة وقعه وحلاوة عباراته الرصينة المُحكمة، مُستفيداً من حافظته القويّة في الاقتباس من القرآن والحديث، مما يعطي لكلامه وقعاً بليغاً. إلاّ أنّ أسلوبه مليء بالمصطلحات الفلسفية والعبارات العرفانية، والمفاهيم الكلامية، مما يجعل لكتاباته نوعاً من الثِقل والغرابة على ذهنية الجيل الراهن، ولا غرو فإنّ الفاصل الزمني بيننا وبينه لا يقلّ عن قرن ونصف من السنين، علاوةً على البون الثقافي الشاسع بين العصرين، إضافةً إلى النهج العرفاني الذي صبغ أسلوبه المشبوع ونثره المسجوع.

من هنا فإنّ من الأفضل لمُتناوِلي كتاباته أن يلجأوا إلى التحقيق والشرح والتبسيط، وتفسير المصطلحات وتحليل العبارات لتسهيل قراءة آثاره المخطوطة ـ حتى الآن ـ لعموم القرّاء.

وفيما يلي استعراض لما هو موجود لدينا من كتاباته، مُكتفياً بذكر المخطوطة وما تحويه من مواضيع أو رسائل، مع الإشارة إلى نوع الخط، واسم الخطاط وحجم الورقة وترقيم الصفحات ما أمكن. علماً بأنّ كتاباته تنقسم إلى فئتين:

الفئة الأولى: الكتب المصنّفة. وهي مجموعة من المصنّفات التي تطرّقت إلى مواضيع مختلفة في الفقه والأصول والفلسفة العرفانية أو العقائدية أو (علم الكلام)، وتاريخ المعصومين عليهم السلام، وهي كما يلي:

المصنّف الأوّل: **مفاتيح الأنوار ومصابيح الأسرار**... وهو كتاب عقائدي يبحث في علم الكلام ويشمل العقائد من المبدأ إلى المعاد. أطلق المؤلّف عليه اسم «**مفاتيح الأنوار في بيان معرفة الأسرار**» حيث جمع فيه أسرار العقائد، ومن كل سرّ تتفرّع مجموعة أنوار، ولو أنّه ﷺ سمّاه «مفاتيح الأسرار ومصابيح الأنوار» لكان أولى بالمعنى وأوفق للواقع، إذ للأسرار مفاتيح وللأنوار مصابيح وقد جعل الكتاب أسراراً منها تنبثق الأنوار.

وهذا الكتاب هو المؤلَّف الأول للمترجَم كما يذكر في المقدمة بأنه تجربته الكتابية الأولى. وأوّل ما يلفت النظر فيه أسلوبه الرصين، والمتّسم بأدب عصره من السجع وجزالة اللفظ..! وما فيه من عمق الفكرة وصدق اللهجة. ولا غرو فقد كان الكتاب طريق الشيخ إلى التألّق والصعود حيث باركه أُستاذه السيد الرشتي[1] قدّس الله روحهما واشتهر بذلك أمره، وذاع في البلاد صيته.

وقد كتب عنه الشيخ كاظم الصحاف في عرض ترجمته لشيخنا المترجَم وقال فيه نصّاً: [..**هذا الكتاب الشريف والنور الساطع المنيف، المسمّى بمصابيح الأنوار ومفاتيح الأسرار، فلعمري إنه اسم طابق المسمّى، وآية طابقت نفسه الكبرى، ودلائل دلّتنا على طول باعه وغزارة علمه واطّلاعه، ووسائل أرشدتنا إلى سبيل الرسول وآل الرسول، اقتبسه قدّس الله نفسه الزكيّة من أدِلّة المعقول والمنقول، فكل ناظرٍ مُنصف إليه، وكلّ واقف على ما فيه وعليه، يراه كتاباً عديم المثيل ومُصنّفاً فائقاً بلا عديل،...**

ولكل من العلوم بحارٌ وهو بحرٌ يمدّ تلك البحار

---

(١) يُروى أنّ السيد حينما طالع الكتاب خرّ ساجداً على مشهدٍ من طلبته وقال: (**الحمد لله الذي لم يُمتِني حتى أراني خليفتي!!.**)

فتّشن في أصوله يا خليلي ستراها مفاتح الأسرار
وترى فيه نور حقٍّ تجلّى حيث هذا مصابح الأنوار..][1]

وقد قام بتأليف الكتاب بتاريخ ١٣/ ٧/ ١٢٥٧هـ، في الصحن الحسيني المطهّر، حيث يطيب في كنفه الجلوس والتحليق الفكري في رحاب الملكوت واللاهوت. وهو من القطع الاعتيادي (فولسكاب)، جزء واحد يقع في ٢٦٢ صفحة، مخطوط بخط نسخ جميل وواضح إلاّ أنه لا يخلو من التهميشات أحياناً وقد قام بنسخ المخطوطة المعنيّة تلميذه المخلص في حبه وولائه الشيخ أحمد بن الشيخ علي بن محمد الصحّاف. ويبدأ الكتاب بقوله: [**الحمد لله الواحد الأحد الفرد الصمد، الذي نوّر قلوبنا بمعرفة الأسرار، وشرح صدورنا بإشراقات الأنوار، وهدانا إلى سواء الطريق بهداية الاستبصار..**][2]. وقد حظي هذا الكتاب بالطباعة في النجف الأشرف، إلاّ أنها طبعة بدائية ويتيمة لم يتسنَّ لها التثنية.

المصنّف الثاني: **منار العارفين وبغية العابدين، في ما أوجبه رب العالمين على المكلّفين إلى يوم الدين..** كتاب عقائدي فقهي كتبه بلغة سهلة سلسلة للعوامّ كما أشار في مقدّمته، وهو من القطع الاعتيادي (فولسكاب) يقع في ٣٢٠ صفحة، ولكنه يفتقر إلى الصفحات الأخيرة التي اختفت من المخطوطة، وبالتالي افتقدنا اسم الناسخ وتاريخ ومكان التأليف، بالإضافة إلى تاريخ الاستنساخ، وعموماً هو مكتوب بخط واضح جميل أقرب ما يكون إلى النسخ، والمخطوطة نظيفة تخلو من التهميشات، وقد قام المصنّف بتأليفه عندما التمس منه بعض المؤمنين أن يكتب لهم شيئاً في واجبات أصول الإيمان، وبعض لوازمها مع شيء من البرهان، ولمس فيهم

---

(١) مخطوطة الشيخ الصحاف ص ٣.
(٢) مفاتيح الأنوار ومصابيح الأسرار ص ٢.

(**الصدق وصفاء الحواسّ، والرغبة فيما يُرضي بارىء الأنفاس**) على حدّ تعبيره. وقد رُتّب الكتاب على مقدمة ومشكاتين وخاتمة، وكل مشكاة منهما فيها مصباح، وكل مصباح منها له أنوار، وكل نور منها له إشراقات. وتبدأ مقدِّمة الكتاب بقوله: (**الحمد لله حقّ حمده كما يستحقّه لعز جلاله ومجده، حمداً لا بداية لعدّه، ولا نهاية لحدّه، بحيث لا يليق إلاّ لجلال قدسه وحده، حيث أوجدنا بمنّه، ولم نكن شيئاً مذكوراً..**). وختاماً نشير إلى أن بعض المؤمنين قاموا باستنساخ المخطوطة على الآلة، ثم جلّدوا الصور لتبدو وكأنها مطبوعة على هيئة مجلّد جميل كُتب العنوان على الغلاف بالخط المذهّب.

المصنّف الثالث: **نجاة الهالكين في بيان حصر العلل الأربع في الحقيقة المحمدية**... وهو توضيح لمقامات النبي المختار وأوصيائه الأطهار، من القطع الاعتيادي حيث يقع في ٩٧ صفحة من الكتابة المرصوصة الغير خالية من التهميشات، مكتوبة بخط يقرب من النسخ بقلم حسن بن سلطان، الذي لم يبيّن عن نفسه شيئاً وحتى اسمه كتبه بحساب أبجد بالأرقام.

ولقد قام المترجَم بتأليفه وهو في كربلاء أيضاً حيث انتهى منه بتاريخ ١٥/ ٦/ ١٢٥٨هـ، وإن كان الناسخ لم ينته منه إلاّ بتاريخ ٢١/ ١١/ ١٢٦٣هـ. ومن أسلوب الكتابة يبدو حماس الشيخ واضحاً في الدفاع عن آرائه والردّ على مخالفيه بلهجة لا تخلو من التعنيف. هذا ويوجد من الكتاب عدّة نسخ إحداها بخط والد المترجَم الشيخ حسين، وأُخرى بخط الشيخ الصحاف. ومقدمة الكتاب تبدأ بقوله: [**الحمد لله رب العالمين، وصلّى الله على خير خلقه ومظهر لطفه، محمد وآله الطاهرين..**].

المصنّف الرابع: **منار العباد في شرح الإرشاد**... كتاب فقهي أصولي، وهو شرح لإرشاد العلاّمة الحلّي ببحث استدلالي، جعل منه رسالته العمليّة

المطوّلة في المسائل الشرعية وأحكامه الفقهية. وقد يُطلق البعض على الكتاب اسم «**منار العارفين**» و«**منار العابدين**»، اشتباهاً مع المصنّف الثاني.

والكتاب مؤلّف من جزئين كبيرين، لم نعثر في مكتبة العم المغفور له العلاّمة الشيخ باقر إلاّ على الجزء الثاني فقط، وهو يقع في ٣٢٤ صفحة من القطع الاعتيادي «فولسكاب»، مكتوب بخط أقرب إلى النسخ، إلاّ أنّ الحرف صغير نسبيّاً بكتابةٍ مرصوصة وكثيرة التهميشات، والأوراق الأخيرة من الكتاب مفقودة أيضاً، ولذلك فالناسخ غير معروف، ولا نعرف أثراً للجزء الأول مع الأسف..!

وقد ذكره الآغا بزرك الطهراني في ذريعته حينما قال ما نصّه: [**الإرشاد في الفقه للشيخ محمد بن الحسين المدعو بأبي خمسين الأحسائي، المتوفّى في ذي القعدة سنة ١٣١٦هـ، عن عمرٍ ذرف على المائة، يوجد عند العلاّمة السيد ناصر بن السيد هاشم الأحسائي، والظاهر أنه شرح على إرشاد الأذهان في الفقه للعلاّمة الحلّي**][1].

المصنّف الخامس: **مختصر منار العباد.. أو العابدين** كتاب فقهي، وكما هو واضح من العنوان اختزله مصنّفه من الكتاب السابق وجعل منه رسالته العملية المصغّرة، ونشرها بين مقلّديه، أطلق عليها الحاج جواد الرمضان اسم «**مصباح العابدين**»، ويقول عنها مؤلّفها في ختامها: [**هذا آخر ما تهيّأ للـ.. المقرّ بالقصور والتقصير تنميقه وتأليفه، ووُفّقتُ لجمعه وترتيبه في هذه الرسالة المختصرة، من رسالتنا المبسوطة الموسومة بمنار العابدين..**][2]، ويقع الكتاب المكوّن من جزء واحد في ٢٧١ صفحة من القطع الاعتيادي «فولسكاب»، والنسخة الموجودة لدينا مكتوبة بأكثر من لون من الخطوط،

---

(١) نقلاً عن منتظم الدرّين ج ٤، ص ٢٣٣ للحاج محمد علي التاجر.

(٢) بتصرّف. من الكتاب المذكور ص ٢٧١. هذا ولعلّه اختصار للمصنّف الثاني وليس الرابع.

كما أنها لا تخلو من التهميشات المتناثرة هنا وهناك. وقد انتهى شيخنا من تأليفه بتاريخ ٢٣/ جمادي الأولى/ ١٣٠٣هـ، ليقوم بنسخها السيد هاشم بن السيد خليفة بن السيد حسن الموسوي بتاريخ ٣ رجب من نفس العام.

المصنَّف السادس: **كتاب التبصرة..** وهو كتاب فقهي، على منوال كتابه السالف الذكر «**منار العباد**» وهو كذلك شرح على تبصرة العلاّمة الحلّي كما ذكره الحاج محمد علي التاجر في «منتظم الدّرّين»[1]، نقلاً عن العلاّمة آغا بزرك الطهراني الذي قال في ذريعته: **[إنّ له شرحاً على تبصرة الحلّي]**. وممّا يؤسف له أنّ هذا الكتاب لا أثر له اليوم. إذ لا وجود له إلاّ في كتب التراث والتراجم.

المصنَّف السابع: **مفرِّح القلوب ومُهيِّج الدمع المسكوب..** وهو كتابه الموسوم بفخري الشيخ محمد. والنسخة الموجودة في مكتبة العم المرحوم العلاّمة الشيخ باقر تغمّده الله برحمته، مخطوط مجلّد يقع في جزئين، وقد قام المؤلّف ﷺ وأرضاه بتقسيم الكتاب إلى ثلاثة عشر مقصداً، في كل مقصدٍ مطلبان، وفي كل مطلب فصلان. كل فصل يبدأ وكأنه كُتيّب مستقلّ بذاته إلاّ القليل منها، حيث يتوقف عن السرد فجأةً ليُنهي آخر عبارةٍ في الفصل بكلمة: «**..قائلاً:**» ويتوقّف ليعلن رقم الفصل اللاحق وموقعه من المطلب، ومن ثَمَّ المقصد. وحينما يبدأ الفصل التالي فبالحمدلة، ثم الصلاة على النبي وآله الأطهار ﷺ، ليشرع بعد ذلك بقوله: **[..أما بعد فاعلموا أيها المؤمنون..]** ويذكر عنوان الفصل بأسلوبه المسجوع وتفصيله المشبوع. هذا ويضمّ الكتاب في جزئه الأول سبعة مقاصد تقع في ٢٤٥ صفحة، في حين يضم الجزء الثاني ستة مقاصد فقط تقع في ٤٥١ صفحة، وقد ذُيِّل هامش

---

(١) منتظم الدّرّين ج ٤ ص ٢٣٣.

الصفحة الأخيرة الأيسر منه باسم الناسخ وهو السيد هاشم بن السيد خليفة بن السيد حسن الموسوي بتاريخ الأوّل من رجب لسنة ١٢٦٥هـ.

والكتاب الذي شرع مصنِّفه في تأليفه صبيحة الثالث من المحرّم في عام ١٢٦٣هـ كما هو مذكور في البداية، من القطع الكبير مكتوب بحرف واضح كبير، لكنّه لا يتبع خطّاً ثابتاً إلاّ أنّه أقرب إلى النسخ تارةً وإلى الرقعة أُخرى، بل يتأرجح بينهما.

ويُعتبر الكتاب تطوّراً نوعيّاً في مسيرة الخطابة الحسينية، ليس في المنطقة وحسب وإنّما في العالم الشيعي، إذ كان يغلب على المنبر الحسيني قبل هذه المرحلة طابع السرد التاريخي المحض، الخالي من الإثارات العاطفية والمشاهد التصويرية المسموعة. فجاء الكتاب قفزةً تقدُّمِيّةً في فنّ الإلقاء المنبري، مُحاكياً ومُتخطّياً نهج الشيخ فخر الدين الطريحي، في كتابه المشهور باسم «**فخري الطريحي**»، لتسري التسمية على كتابنا هذا ويشتهر في أصقاع الخليج بما أسلفنا «**فخري الشيخ محمد**»، وقد ظلّ الكتاب يُتلى على المسامع في المجالس الحسينية إلى عهد قريب، حتى بعد مجيء خطباء المرحلة الراهنة.

وبنظرة سريعة إلى الكتاب، يُمكن أن نقرأ العناوين التالية عبر **الجزء الأوّل**:

المقصد الأول: وفيه مطلبان. **المطلب الأوّل**: وفيه فصلان:

الفصل الأوّل: سرّ ابتلاء الله لعباده المؤمنين، لا سيما الأنبياء فالأوصياء، ثم الأولياء الأمثل فالأمثل. (ص ٨ـ ١٧).

الفصل الثاني: إنّما ابتلى الله المؤمنين الصالحين لأنّ أفعال الحكيم تجري على مقتضى الحكمة، فهو يمحصهم في هذه الدار ليزيدهم رِفعةً عنده. ص ١٧ـ ٢٤.

المطلب الثاني: وفيه فصلان:

الفصل الأوّل: بيان أنّ ما أصاب الحسين عليه السلام إنّما لأمر هو بالغه وقد أورد أحاديث بهذا الخصوص، ص ٢٤ـ ٣٤.

الفصل الثاني: لا للركون لهذه الدار، لأنها تقهر أولياء الله ويتنعّم فيها أعداؤه، ثمّ أتى بأحاديث في المعنى، ص ٣٤ـ ٤٣.

المقصد الثاني: وفيه مطلبان، **المطلب الأوّل**: وفيه فصلان:

الفصل الأوّل: من شرط استقرار ولاية أمير المؤمنين انشراح النفس لذكر فضائل الآل، ومواساة الأئمة في مصائبهم وأفراحهم، مع ذكر نُتَفٍ من دخول السبايا الشام. ص ٤٣ـ ٥٠.

الفصل الثاني: الترغيب في النوح والبكاء على الهاشميات بعد كربلاء، وذكر دخولهنّ مجلس يزيد. ص ٥٠ـ ٥٦.

المطلب الثاني: وفيه فصلان:

الفصل الأوّل: ذكر بعض الفضائل، روايات وأشعاراً ص ٥٦ـ ٦٤.

الفصل الثاني: بيان أنّ فضلهم لا يُستقصى ولا يُدرَك، بالأحاديث والروايات ص ٦٤ـ ٧٤.

المقصد الثالث: وفيه مطلبان، **المطلب الأوّل**: وفيه فصلان:

الفصل الأوّل: هذه الدنيا دار ابتلاء واختبار ومزرعة للآخرة، وفيه استعراض لحوادث كربلاء. ص ٧٤ـ ٨٣.

الفصل الثاني: إنّ البكاء على المعصومين ذخيرة يوم الدين ص ٨٣ـ ٩٢.

المطلب الثاني: وفيه فصلان:

الفصل الأوّل: جلالة قدر المعصومين عند الله، معلومة عند الخلائق أجمعين ص ٩٢ـ ١٠٠.

الفصل الثاني: أحاديث في العترة وأنّهم سرّ الله. ص ١٠٠ـ ١١٢.

المقصد الرابع: وفيه مطلبان، **المطلب الأوّل**: وفيه فصلان:

الفصل الأوّل: بيان أنّ الله تعالى قد بعث نبيّه على فترة من الرسل لهداية العباد، ثم نصب لهم الإمام عليّاً وصيّاً ص ١١٢ـ ١٢٠.

الفصل الثاني: في الكلام أنّ من هوان الدنيا على الله أن يُقاد أمير المؤمنين كالأسير ص ١٢٠ـ ١٢٩.

المطلب الثاني: وفيه فصلان:

الفصل الأول: حديث الرسول للإمام علي عن الفتن في عهده. ص ١٢٩ـ ١٣٩.

الفصل الثاني: الحديث حول نقض حقّ الأمير في الخلافة، مع توضيح سبب تخليه عن القتال إبان السقيفة. ص ١٣٩ـ ١٤٢.

المقصد الخامس: وفيه مطلبان، **المطلب الأوّل**: وفيه فصلان:

الفصل الأول: الحديث عن ضبابيّة الرؤية لدى الأمة، وغيابها عن فضل أهل البيت عليهم السلام. ص ١٤٢ـ ١٥٤.

الفصل الثاني: الحديث عمّ اجرى للإمام وزوجته الزهراء عليها السلام بعد الخلافة. ص ١٥٤ـ ١٦٥.

المطلب الثاني: وفيه فصلان:

الفصل الأوّل: فتنة الأمة بعد التحاق الرسول ﷺ بالرفيق الأعلى ص ١٦٥ـ ١٧٤.

الفصل الثاني: بيان أنّ الأمر (الخلافة والولاية) منحصر في الإمام علي وولده، والخاسر من أبى..! ص ١٧٤ـ ١٨٤.

المقصد السادس: وفيه مطلبان، **المطلب الأوّل**: وفيه فصلان:

الفصل الأوّل: لا يصحّ أن يكون خليفةً لرسول الله ﷺ إلاّ واحد من نفسه، وهو الإمام علي عليه السلام لانطباق المواصفات القيادية عليه ص ١٨٤ـ ١٩٤.

الفصل الثاني: في قضية طلب الإمام علي عليه السلام لمبايعة أبي بكر وتهديده بحرق الدار، ثم اقتياده للبيعة ص ١٩٤ـ ٢٠٣.

المطلب الثاني: وفيه فصلان:

الفصل الأوّل: أقسام الذين اتّبعوا الرسول ﷺ ثلاثة:

أ ـ المؤمنون حقّاً.

ب ـ المؤمنون نفاقاً لإبتغاء الدنيا.

ج ـ المؤمنون نفاقاً لإبتغاء الفتنة ص ٢٠٣ـ ٢١٠.

الفصل الثاني: في خبر استنكار ابن عمر على يزيد قتل الحسين عليه السلام ص ٢١٠ـ ٢٢٠.

المقصد السابع: وفيه مطلبان، **المطلب الأوّل**: وفيه فصلان:

الفصل الأوّل: في بيان أن الإمام لم يقعد عن مجابهة خصومه إلاّ لوصية من النبي المختار لحكمه غير خافية. ص ٢٢٠ـ ٢٣١.

الفصل الثاني: أن ولاية علي حسنة لا تضرّ معها معصية صغيرة من غير إصرار. ص ٢٣١ـ ٢٣٩.

المطلب الثاني: وفيه فصل واحد هو:

الفصل الأخير: في بيان أن الدين الحق هو الإسلام، وبطلان جميع المذاهب ما عدا مذهب العدلية الإمامية الإثني عشرية ص ٢٣٩ـ ٢٤٥.

وهنا ينتهي الجزء الأوّل..!

الجزء الثاني...

المقصد الثامن: وفيه مطلبان، **المطلب الأوّل**: وفيه فصلان:

الفصل الأوّل: أن مذهب الإثني عشرية هو أزكى مذاهب الإسلام فهو الأولى بالإتباع، ص ٦.

الفصل الثاني: أن الإسلام لم يقم إلاّ بسيف الإمام علي عليه السلام، وجهاده بين يدي النبي الأعظم صلى الله عليه وآله. ص ٨.

المطلب الثاني: وفيه فصلان:

الفصل الأول: أنّ مصير منكري ولاية أهل البيت إلى النار، ولكن الكلام في منكري فضائلهم فقط..! ص ١٦.

الفصل الثاني: أنّ من شرط موالاة ووُدّ أئمة الطهر التصديق بجميع فضائلهم النورانية. ص ٢٨.

المقصد التاسع: وفيه مطلبان، **المطلب الأوّل**: وفيه فصلان:

الفصل الأوّل: أنّ الذين يزعمون أنّ رسول الله مضى دون أن ينصِب للأمة إماماً هو ابن عمه، قوم خاسرون. ص ٣٥.

الفصل الثاني: إنه لا يجوز أن يجعل الحكيم أمر اختيار من يوافق ظاهره سريرته في أيدي عباده..! ص ٤٢.

المطلب الثاني: وفيه فصلان،

الفصل الأوّل: أن الله اصطفى محمداً المصطفى وعلياً المرتضى وآلهما النجباء على علم منه.. ص ٥٢.

الفصل الثاني: إنه لا يحيط بفضل آل ياسين إلاّ رب العالمين.

المقصد العاشر: وفيه مطلبان، **المطلب الأوّل**: وفيه فصلان:

الفصل الأوّل: عظيم أجر المؤمنين ورفيع منزلتهم عند رب العالمين لإقامتهم عزاء الحسين عليه السلام. ص ٦٦.

الفصل الثاني: الاسترسال في وصف شناعة ما صنعه الأمويون بالحسين وآله..!. ص ٧٣.

المطلب الثاني: وفيه فصلان،

الفصل الأوّل: إن الله تعالى جعل البكاء والتباكي على الإمام الزاكي من أفضل الأعمال مستشهِداً بالروايات. ص ٧٨.

الفصل الثاني: تفصيل بعض وقائع يوم عاشوراء على المولى الحسين بالذات. ص ٨٦.

المقصد الحادي عشر: وفيه مطلبان، **المطلب الأوّل**: وفيه فصلان:

الفصل الأوّل: إن البكاء على الغريب العطشان من أفضل القربان إلى الملك الديان..! وأورد أحاديث بهذا الصدد ص ٩٣.

الفصل الثاني: كيف يهنأُ المُوالي بنعيم المُقام، بعدما حلّ بالإمام..؟..

مع استعراض لدخول السبايا مجلس يزيد. ص ١٠٥.

المطلب الثاني: وفيه فصلان:

الفصل الأوّل: إنّ أنصار أبي عبد الله الحسين عليه السلام قد سبقت لهم من الله الحسنى، والعناية والتوفيق لنيل الشهادة بين يدي الإمام عليه السلام، ص ١١٤.

الفصل الثاني: الجد والاجتهاد في إظهار قضية الإمام الحسين عليه السلام بإحياء أمره. ص ١٢٤.

المقصد الثاني عشر: وفيه مطلبان، **المطلب الأوّل**: وفيه فصلان: **الفصل الأوّل**: لا شيء بعد الموالاة لأئمة الهدى والبراءة من أعدائهم أفضل من مواساة آل النبي صلوات الله عليهم أجمعين في مصائبهم وأفراحهم. ص ١٣٤.

الفصل الثاني: إنّ الحقيقة المحمدية ـ وهي تنطبق على الآل المعصومين ـ هم سرّ الكاف والنون في نفس الأمر، وهم الاسم الأعظم عليه السلام، ص ١١٤.

المطلب الثاني: وفيه فصلان:

الفصل الأوّل: إنّ مصائب آل النبي فوق التصوّر، ومواساتهم ليس لها حدّ في الأجر والثواب. ص ١٥١.

الفصل الثاني: إنّ مصيبة سادات الورى (الطف) عظمت على أهل الأرض والسماء. ص ١٦٤.

المقصد الثالث عشر: وفيه مطلبان، **المطلب الأوّل**: وفيه فصلان: **الفصل الأول**: إنّ الرسول صلى الله عليه وآله ما فتِأ يحثّ الأمّة على اتّباع عترته من بعده (لا سيما جيل صحابته)، ويُرجّيهم بذلك نيل شفاعته..!.. ص ١٧٥.

الفصل الثاني: إنّ الذين تمسّكوا بعترة النبي ﷺ وتولّوا عليّاً، هم الحزب الفائزون المفلحون. ص ١٨٤.

المطلب الثاني: وفيه فصلان:

الفصل الأوّل: إنّ الله سبحانه لمّا أمر نبيّه بقتال الكفّار حتى يظهر أمره، أمَرَه أن يوعز للإمام علي أن لا يسلّ سيفه من بعده إلاّ لحرب الناكثين والمارقين والقاسطين، وذلك إظهاراً لمواقف الذين آمنوا بالرسول على اختلاف مشاربهم. ص ١٩٣.

الفصل الثاني: فضل زيارة قبور أئمة الهدى من آل الرسول عليهم السلام. ص ٢٠٠.

وبذلك ينتهي الجزء الثاني من الكتاب..!..

الفئة الثانية: مجموعة الرسائل العلمية وأجوبة المسائل الفقهية.. وهي حسب المخطوطات الموجودة كما يلي:

الرسالة الأولى: **هداية المسترشدين**... وهي بحث عقائدي خاص لشرح الحديث الشريف الوارد عن الإمام الصادق عليه السلام:

«العبودية جوهرة كُنهها الربوبيّة، فما فُقِد في العبوديّة وُجِد في الربوبيّة، وما خفِي في الربوبيّة أُصيب في العبوديّة» الحديث.

وقد وجّه سؤال للشيخ أُستاذه الثاني الشيخ أحمد بن الشيخ محمد بن مال الله الصفار، بعدما وصفه بقوله: [**..أعني أبا خمسين والمائين بل ما يزيد عدّه على الألفين، ممّا حوى من حكم عجيبة، مُبيّناً أسرارها الغريبة**، حتى يقول: **..وبعد، يا من يظهر الأسرار، ومَن يميط الحجب والأستار عن العويصات التي قد ترِدُ، وما لعلّ خصـ(و)مه أن يورِدوا، بيّن لنا معنى**

الحديث المستطر ظاهره، وما به قد استتر باطنه، فامنُن علينا بالجواب عاجلاً، وُفّقتَ خيراً آجلاً..]. وكان الجواب صفحات هذه الرسالة التي لم تزِد على ٣٥ صفحة من القطع الوسط، مخطوطة بخط أقرب إلى النسخ، بحرف واضح وكبير نسبيّاً. ويبدو أنّ الناسخ هو والده الشيخ حسين، نظراً لأن المخطوطة كلّها بنفس الخط، وقد ورد اسم الناسخ في بعض الرسائل الموجودة ضمنها. ويشير المؤلّف في نهاية الرسالة إلى الاسم الكامل الذي اختاره لها وهو «**هداية المسترشدين في بيان معرفة صحّة ورود النصوص النورانية عن الأئمة الطاهرين**»[١].

الرسالة الثانية: **المنهاج بِدُرّة الابتهاج في بيان معرفة المعراج**.. وهو بحث عقائدي بمقدمة من فصلين، أوّلهما حول بدء الخليقة وعالم الملكوت وبيان خلق الوجود، وترتيب مراتبه وتراميه في نفسه وكيفية نزولهم وصعودهم في قوسي النزول والصعود، وكيفية سفرهم في طريقي الإقبال والإدبار، وثانيهما في بيان ترقّي نوع الإنسان وصعوده إلى منزله الأصلي. ثم يخلص إلى موضوع المعراج النبوي الشريف، إجابةً على سؤال الشيخ جعفر بن الشيخ محمد الفرساني[٢] البحراني، عن حديث وصفه المصنّف بأنه مستشكل في معاني بعض فقراته، في بيان كيفية معراج النبي ﷺ، ولو كان عنوان الرسالة «الابتهاج بدرّة المنهاج في بيان معرفة المعراج» لكان اللفظ أكثر اتّساقاً مع المعنى.

والرسالة بعدُ كسابقتها من القطع الوسط، وتقع في ٧٩ صفحة وتشوبها تهميشات كثيرة غير منتظمة، ولا تخضع لنمط واحد من الخط إذ تضطرب الحروف كثيراً بين أنواع الخطوط. والناسخ هو أب المؤلّف الشيخ حسين

---

(١) انظر المخطوطة الحاوية على ٤ رسائل ص ٥٨.

(٢) نسبةً إلى فَرسان قرية بالبحرين جنوب العاصمة المنامة.

كما هو مبيّن في آخر صفحة من الرسالة.

الرسالة الثالثة: **النور المُضيّ في معرفة الكنز الخفيّ...** وهي بحث عقائدي حول معنى الحديث القدسي الشريف:

«كنت كنزاً مخفيّاً، فأحببتُ أن أُعرف فخلقت الخلق لكي أُعرف»..

وقد تقدّم له بهذا السؤال صاحبه الوفي المؤمن التقي الحاج علي بن الحاج محمد الحواج، وهو من عرفناه فيما مضى كأحد أعضاء اللجنة الإصلاحية الذين يعتمد عليهم الشيخ ونظراً لمكانته المكينة وخصوصيته الخصيصة منه ومعرفته بمستواه الفكري، وأنّه أهلٌ للجواب فقد ساق هذه الرسالة له كتابةً ليشفي السائل بها الغليل ويُداوي بمضمونها العليل. والرسالة في حجم سابقتها من الحجم الوسط، تقع في ٣٨ صفحة منسوخة بخط واضح جميل يقرب من النسخ، ولا تخلو من التهميشات، كما أنها من نسخ والد المترجَم أي الشيخ حسين كما هو مُذيّلٌ في آخر الرسالة التي انتهى منها بتاريخ ٢٧/ جمادى الثانية/ ١٢٦٢هـ.

الرسالة الرابعة: **مُزيل الأغيار عن الأبصار...** وهي رسالة أنشأها ابتداءاً من غير سؤال من أحد، إذ لمّا رأى بعض أنصاف الشيوخ [**لا يستعظمون جحود فضائل أحبّاء الملك العلاّم الذين هم علل وجود النظام**] دفعته شدّة غيرته على مقامات النبي المختار وآله الأطهار عليهم أفضل الصلوة والسلام، لِما رأى من دخولهم على سبيل النصيحة والوداد و[..**ما يشبِّهون به على أيتام آل محمد، فطرقه عديدة وتمويهاتهم التي يموِّهون بها الأمر على ضعفاء الشيعة كثيرة..**] حيث ارتأى أنّ من واجبه الردّ و[**التنبيه على كيفية صدّهم للعوام عن التبحّر في معرفة الصانع الجليل، وأوليائه أهل الثناء والتبجيل**] فألزم على نفسه [**دفع شبهات أهل العناد، ورفع مذهب أهل**

الرشاد بالدليل وتوضيح حقية أهل الكمال بالتفصيل][1].

والرسالة مثل سابقاتها من القطع الوسط، وتقع في ٤٨ صفحة ولكنها مع الأسف تفتقر إلى الصفحات الأخيرة، لأنها مفقودة ولذا لا نعرف بالضبط عدد صفحاتها الواقعية، ثم لا نعرف الناسخ وإن كانت في العموم مشابهة لخط سابقاتها، ولهذا نعتقد أنّها بخط والده.

الرسالة الخامسة: **في شرح الحديث «من عرف نفسه فقد عرف ربّه»...** وهي إجابة لالتماس تقدّم به جماعة من الأفاضل حول شرح الحديث المذكور، لم نتعرّف على أسمائهم لأن الصفحة الأولى من الرسالة في المخطوطة مفقودة مع الأسف ويقول في أوّل الصفحة الأولى ما نصّه: **[..فما رأيت لي بُدّاً من إجابتهم، والتبادر إلى قضاء حاجتهم، أعلى الله درجتهم ورفع منزلتهم، قضاءً لحق الإخوان..** حتى يقول: **فشرعت في تحرير هذه الحريفات..]**[2].

وتسمّى بالرسالة الخراسانية، ولعلّه كتبها في خراسان أو المسألة وردت عليه من هناك، لأننا لا نستطيع أن نفهم من الرسالة أكثر من ذلك..! ولم يرد فيها إلاّ ما كتبه بنفسه في نهايتها حيث قال مختتِماً: **[..قد فرغت من تأليف هذه الرسالة الخراسانية، ومن تصنيف هذه المعاني الباطنية يوم الثاني والعشرين من شهر ربيع الثاني سنة الستين بعد المائتين والألف من الهجرة ١٢٦٠هـ]**[3]. وهي بعدُ تقع في ٢٩ صفحة من القطع الاعتيادي (فولسكاب)، مخطوطة بما هو أقرب للنسخ المعتدل شكلاً وحجماً، ولكن تشوبه التهميشات الجانبية وقد كتبها والد المصنّف بيده كما هو مبين في

---

(١) هذه المقتطفات من رسالة مزيل الأغيار للتعريف بها، فقرات من ص ١٨٩ـ ١٩٠.

(٢) انظر المخطوطة ذات ٨ رسائل ص ١.

(٣) نفس المصدر ص ٢٩.

النهاية بتاريخ التاسع والعشرين من نفس الشهر والسنة.

الرسالة السادسة: **في شرح «حديث الثقلين»، والآية الشريفة «فبما رحمة من الله لِنت لهم»** الآية... وهي عبارة عن تعليق أو مُداخلة على ما كتبه الشيخ ضيف الله بن الشيخ أحمد بن الشيخ صالح بن سالم بن طوق القطيفي[1] في نفس الموضوع. وهي تقع في ٧ صفحات من القطع الاعتيادي، مكتوبة بنفس الخط السابق وبنسخ والد الشيخ برغم عدم ذكر اسمه في الأخير، ومع قلّة الصفحات تنتشر فيها التهميشات.

الرسالة السابعة: **في بيان معاني الخالق**.. وهي الرسالة الموسومة باسم المباركية نسبةً للسائل وهو تلميذه الشيخ محمد حسين المبارك الذي سأله عن وجه الجمع بين الآيتين في قوله تعالى:

﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾[2] وقوله تعالى: ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾[3].

وقد أجابه بهذه الرسالة التي لم تستغرق سوى ٨ صفحات من القطع الاعتيادي (فولسكاب) إلاّ أنّها مشحونة بالتهميشات الجانبية، وخطّها قريب من النسخ المعتدل ذو الحرف الواضح الأنيق،وهي بقلم والد المصنّف كسابقتها.

---

(١) ويلقّب أيضاً بالخطي، عالم فاضل وفقيه نبيه وأديب كامل، توفي في العراق بعد ١٢٤٥هـ، وقد ذكره العلاّمة البلادي في أنواره، له شرح لرسالة والده في الأصول الخمسة، كما وله جمع فتاوي السيد كاظم الرشتي في الطهارة والصلاة من أجوبة المسائل بأمره، وكانت وفاته في كربلاء أو أطراف العراق. كما وذكره العلاّمة آغا بزرك الطهراني في ذريعته، وأنه أنهى تصانيف والده إلى أربعين كتاباً ورسالة، وذكره التاجر في منتظمه وأنه رأى توقيعه على عدّة وثائق في التاريخ المذكور أعلاه. من مخطوطة للحاج جواد الرمضان في ترجمة أعلام المنطقة الشرقية ضمن حرف الضاد.

(٢) سورة المؤمنون، الآية ١٤.

(٣) سورة فاطر، الآية ٣.

الرسالة الثامنة: **في تحقيق حديث «الأنوار الخمسة»**... وهي إجابة على سؤال تقدّم به [**بعض الإخوان المخلصين والأصدقاء العارفين الطالبين للحق واليقين، الغير مكتفين بالظنّ والتخمين، المميّزين بين الغثّ والسمين..**][1] ولم يذكر اسماً، ولكنه أشار إلى السؤال بأنه استفسار عن [**بيان السر والنكتة والتوجيه التام من معنى قوله ﷺ** في آخر حديث رواه عنه ابن مسعود رضي الله عنه..][2] وتقع الرسالة في ١٤ صفحة من القطع الاعتيادي (فولسكاب)، قد انتهى من تأليفها في ٦/٨/١٢٥٩ من الهجرة حسبما هو مذكور في نهايتها من غير إشارة للناسخ الذي أعتقد أنّه والده، لأن الخط نفسه ثابت في كامل المخطوطة، ميّال إلى النسخ، واضح وجميل ولكن تشوبه التهميشات التي قد تُنغّص على القارىء راحة عينيه واستمتاعه بالقراءة.

الرسالة التاسعة: **«البلد الطيّب»**... وهذه التسمية انتزعتها من السؤال الذي قدّمه له تلميذه وابن صديقه الشيخ محمد بن الحاج علي البغلي حول بيان معنى الآية الشريفة في قوله تعالى عزّ ذكره:

﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾[3].

وهي تقع في ١٥ صفحة من القطع الاعتيادي (فولسكاب) ضمن المخطوطة ذات الثمان رسائل، وخطها كسابقاتها قريب من النسخ، ولكنه في الصفحات الأخيرة، يفقد شكله وكأنه مكتوب على عجلة من الأمر، كما أن تهميشاته الكثيرة تجعل القراءة عسيرة. وحينما اختتم الرسالة فاته أن يضع التاريخ كما عوّدنا، وبالتالي لم يُثبت اسم الناسخ الذي يبدو أنه والده.

---

(١) المخطوطة ذات ٨ رسائل ص ١٢٨.

(٢) نفس المصدر.

(٣) سورة الأعراف، الآية ٥٨.

الرسالة العاشرة: **في بيان كلّيات العوالم الأربعة**... وهي إجابة على سؤال تقدّم به تلميذه الذي وصفه بقوله: [**الأخ الصفي والخل الوفي العالم العامل والرجل الكامل**][1] الشيخ جعفر بن الحاج حسين آل ناجم[2] في بيان كليات العوالم، فأوضح له بأنّها أربعة هي عالم اللاهوت، وعالم الجبروت، وعالم الملكوت، ثم عالم الملك، ثم يستعرضها بالتفصيل.

والرسالة كسابقتها صغيرة إذ تقع في ١٤ صفحة من القطع الاعتيادي (فولسكاب)، وبنفس الخط السابق الذي لا يخلو من التهميشات، إلاّ أنّ الموضوع ينتهي برسم توضيحي يُمثّل هيئة الأفلاك والكواكب والعناصر على اصطلاح العرفانيين. ويبدو أنّ الرسالة فقدت بعض صفحاتها الأخيرة، حيث تفتقر إلى الخاتمة المُنهاة بالتاريخ واسم الناسخ الذي يبدو أنه والده كما يدلّ على ذلك الخط.

الرسالة الحادية عشرة: **في تفسير آية ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾**[3] وهي جليّة في موضوعها، كتبها لتوضيح بعض الأسرار التي تلقّاها من أستاذه العارف الواصل السيد الرشتي، وأحبّ أن ينشرها بين محبّيه من غير سؤال من أحد، فوقعت في ٣٢ صفحة إلاّ بعض الصفحة حسب كتابة والده حيث أن الخط المنسوخة به هو ذات الخط فيما تقدّم من رسائل، وحيث اختتمها المصنّف بقوله [..**تمّت وبالخير عمّت**..] ثمّ بدا له فيما بعد أن يُضيف عليها، فواصل الكتابة بخط آخر والفرق بين الخطّين أجلى من التعليق، فكمّل عدد الصفحات إلى ٣٥ صفحة من القطع الاعتيادي (فولسكاب). ومع الأسف لم يُذكر التاريخ في الرسالة، ولكن يظهر أنها من أوليات

---

(١) المخطوطة ذات ٨ رسائل ص ١٥٦.

(٢) من عائلة آل ناجم المعروفة في المبرز، وكان قريباً من المترجم وكان حيّاً عام ١٢٧٠هـ.

(٣) سورة الإسراء، الآية ٢٣.

الرسائل التي كتبها بعد أوبته من كربلاء المقدّسة.

والمؤلّف الأخير: **ديوان شعر**.. وقد رأيت عند بعض المؤمنين كُتيِّباً صغيراً يضمّ قصيدتين مطولتين، الأولى في الإمام علي عليه السلام، والثانية في فاطمة الزهراء. ويذكر الشيخ كاظم الصحّاف رحمه الله في ترجمته المخطوطة للمترجَم: [**..وله أعلى الله مقامه ديوان في الشعر، كلُّه في مدح النبي الأنور وأوصيائه الأئمة الاثني عشر، تركنا ذكر قصائده خوفاً من الإطالة وأشرنا إلى وجودها ذكراً إلى الدلالة..**][1].

إلاّ أن ثبوت الشعر بالنسبة للمترجم يحتاج إلى المزيد من التحقّق والبحث، فالديوان المذكور لا أثر له اليوم، والشيخ كثيراً ما يستشهد بالشعر في أحاديثه وكتاباته من غير إشارة إلى المصدر، ممّا أعطى لمستمِعيه الانطباع بأنه صاحب الشعر، ثمّ إن كل ما ينسب له اليوم من القصائد المتناثرة والفردية فيها نظر، بل هنالك من الشواهد ما يدلّ على صحّة نسبتها لغيره، كالاشتباه الذي حصل في نسبة شعر بعض تلامذته المتأثّرين بأسلوبه إليه، وصادف تطابق الأسماء مع الألقاب (الشيخ محمد بن الشيخ حسين الصحّاف) ليعطي الإيحاء بأنّ المترجَم هو القائل..!

ومن جانب آخر يبدو من خلال تصفّح كتاباته المطوّل منها أو المختصر، أنّ جميع ما كتبه إنما وقع في نهاية الخمسينات ومنتصف الستينات، وكأنما تلك الفترة كانت بالنسبة له آخر مراحل إعداد شخصيّته المتكاملة، وصقل مؤهلاته القيادية. بل العصر الذهبي لعطاءاته الكتابية، أو أنّ وجود والده إلى جانبه كان له الأثر البارز في دفعه للكتابة. وقد أشارت مجموعة من الدلائل إلى حقيقة وقوع كتابته في تلك الفترة فقط إذ أنّ:

---

(١) المخطوطة المذكورة ص ١١.

١. قيامه بوضع التاريخ في ختام ما يكتبه دليل دامغ.

٢. قيام والده بنسخ ما يكتبه دليل آخر حيث توفي والده في النصف الأول من عقد الستينات بعد المائتين والألف من الهجرة.

٣. شكواه في جميع كتاباته من سوء الأوضاع الأمنية والطائفية، في حين أنه في الاثلاثين سنة الأخيرة من حياته قد تنفّس فيها الصعداء، وبُسطت له الكلمة، فلم نرَ له أثراً مكتوباً خلالها، اللّهمّ إلاّ رسالة عملية وبعض الرسائل الشخصية..!

الفصل الثالث:

من قسمات شخصيّته..!

إنّ لكل إنسان شخصيّته المميزة التي يتفرّد بها عمّن سواه، ولولا الملامح الشخصية والفروق الفردية، لاستوى الناس كلهم جميعاً في الرزق والفهم والأداء، وفي المكانة الاجتماعية.

وعلى الرغم أن الله قد حبى جميع الناس قدرات ومواهب متساوية. إلاّ أن البشر يختلفون في مدى استيعابهم لتلك القدرات. فمثلاً لقد وهب الله عزّ وجلّ جهاز العضلات لجميع الناس، ولكن لم يبنِ من جهازه العضلي كمالاً جسمانيّاً إلاّ قليل من الناس..!. أي حسب مدى قدرته على تدريب عضلاته، كما أن الخالق عزّ وعلا قد منح نعمة العقل لكل إنسان بنفس القوّة والدرجة إلاّ أنهم يتفاوتون في درجة الاستفادة من عقولهم. فتجد شخصاً يهتم بمعقولاته أكثر من اهتمامه بمأكولاته، وآخر يهتم بالاثنين بدرجة سواء، وثالث يهتم بالأكل أكثر من اهتمامه بالعقل..! فإذا كان هكذا شأنه بالاهتمام به، فلا بُدّ أن يكون كذلك شأنه في الاستفادة منه..؟

وإذا كان العقل هو الدليل إلى التقدّم، والمرشد إذا احتلك الظلام، فلا فوز لغير ذي لبّ ينأى بسفينته عن سبل الهلاك، ويقوده عقله إلى سبل الرشاد، أي الخير والعطاء ومن ثَمّ العظمة.

وهكذا فقد رأينا كيف كان مترجمنا وافر العقل، راجح الرأي عالي الهمّة قويّ الشكيمة مبسوط الكفّ، ولم تتأتّ له تلك المواصفات اعتباطاً، وإنما لعبت التربية والتوجيهات الأبوية دوراً أوليّاً، ومنحته تعاليم الدين ثروةً ليكمل المشوار بنفسه، في شحذ همّته وصقل مواهبه وتنمية قدراته وقدح زناد فكره..!

ونحن إذ نستعرض بعضاً من سجاياه التي علّم نفسه عليها، فإنما كثير من صفات الخير لا تأتي إلاّ بالتمرين والتعوّد على حدّ تعبير الإمام عليّ عليه السلام حيث قال:

عوِّد نفسك السماح، وتخيّر لها من كلّ خُلُق أحسنه، فإنّ الخير عادة»[1].

ولقد عوّد هذا الشيخ مجتمعه أن يتّخذ منه قدوة وأسوة، لما اتّسم به من صفات نبيلة، وسجايا أصيلة، جعلت منه قبلة الأنظار، ومحطّ الآمال ومهوى القلوب، فأحبّه قومه وأطاعوه واتّبعوه لما لمسوا فيه من الجدّ والإخلاص. ومن جملة مقوّمات شخصيته يمكننا القول:

أولاً: شخصيّة الجدّ والفاعلية...

حينما تصطبغ شخصية امرءٍ بالجدّ والفاعلية، فإنّ خيراً كثيراً يُرجى منه وتُناط الآمال العريضة بمستقبله، فعلى قدر أهل العزم تأتي العزائم. وشيخنا المترجم غني بما عرفناه من سيرته عن الإسهاب في جدّيته، فهو بالفعل شخص جادّ وفاعل نشيط، ليس لديه وقت للضياع، ونتيجة جِدّه واجتهاده أُترعت حياته بالأنشطة والبرامج الحيوية، والإنجازات الكبيرة المميّزة، إذ ما فتِأ طوال عمره الثرّ في حركة دؤوبة لفّت جميع المحيطين به في دوامتها،

---

(١) تُحف العقول عن آل الرسول ص ٦٣.

ولتسري إليهم ذات الفاعلية والنشاط، لتبني بالنتيجة مجتمعاً ديناميكيّاً بكل ما في المجتمع من مقوِّمات، يعتمد على سواعد أبنائه في جميع احتياجاته، وبناء قدراته ويدافع بنفسه عن مُكتسباته، وينهض كالعملاق في محيط المنطقة، ليتبوّأ مركز الصدارة بين المجتمعات الخليجية.

فلولا جدّيته لم يؤلّف قلوب أبناء المنطقة ليجمع كلمتهم، ويقف في وجه التفرقة الطائفية مستنجداً بالباب العالي للتدخل في المسألة لحسمها، ولولا الجدية والفاعلية التي اصطبغت بها شخصيّته الحيوية، لم يتألّق بتاج المرجعية قائداً في المنطقة، يتصدّى لقضاياها المختلفة، ووالداً يرعى شؤونها بحنانه الأبويّ، وبانياً للكفاءات والمؤسسات العلمية والاجتماعية، وحامياً لها بما أرسى من ضمانات تكفل لها الاستمرار والإنتاجية.

عبد الله بن ثانياً: امتلاك روح المبادرة...

منذ نعومة أظفاره والنباهة في عينيه، وقوّة العزم لديه، وروح المبادرة لا تتأتّى للجهلة الخاملين، وإنما تنبثق من قلب وقّاد وعزيمة ثاقبة وتصميمٍ جبّار، وعندما تتلبّد المشاكل وتُقبِل الأزمات، لا بُدّ للأفق من أن ينشقّ عن مبادرة تحمل الفرج، أو تنقدح فكرة كريمة في عقل عبقري يلتمس بها للناس المخرج، وبذلك فقط يعرف القوم باب النجاة.

وشيخنا الذي كان يمسك بزمام المبادرة في الأزمات، بل في كل دروب حياته، رأيناه كيف بادر باتّخاذ القرارات المصيرية في العديد من المواقف الصعبة، التي لم يكن أوّلها قرار السفر لإكمال مشواره الدراسي في العراق، كما لم يكن بالتأكيد آخرها قرار الدخول إلى حصن الكوت ـ وهو إذ ذاك زعيم الوطن وأبوه الروحي ـ للدفاع عن البلاد وكفّ الغزاة عن إراقة دماء المسلمين، أمّا عن مبادرته بشأن عين الخدود، فسوف نذكرها مع التعليق في نهاية الفصل.

وممّا لا شك فيه أنّ النهوض بمجتمع عريق برغم تخلّفه، من هاوية التفكّك والانحطاط والصراعات الداخلية، ليرقى إلى المكانة اللائقة به، لبحاجة إلى المزيد من جهود الخير، ومبادرات الإصلاح وعزم الأمور، وإلاّ فليلزم مَن رام التغيير بدون مؤهلاته مكانه، يبكي صباباته ويندب حظّه.

ثالثاً: الشجاعة والحزم..

إن لم يمتلك الإنسان شجاعة الإقدام على تنفيذ أفكاره ومشاريعه، باءت خططه جميعها بالفشل. وإنما يعود الفضل بالنسبة للناجح في أعماله إلى شجاعته، وإصراره على بلوغ مرامه، والإصرار هنا هو الحزم اللازم لإنجاز المهام، ولولا الحزم لالتهم التردّد والتراخي عزيمة الفرد، وبالتالي يقوده التهاون والتذبذب إلى الضياع واليأس.

أما شيخنا المترجم فإنه كان مضرب المثل في شجاعته وحزمه، لا سيما وأنه أضاف إليهما الحكمة ليضع الأمور في نصابها، ويتصرّف كما يجب أن يكون التصرّف، ولذلك انقادت له الأمور سلسلةً، ومحضه الأتباع مودّتهم وثقتهم، بل واستمال بحنكته وشجاعته قلوب مسؤولي الحكومة وأفراد الجند، الأمر الذي ما كان يتأتّى له لولا حزمه وعزمه..!

ولقد أشارت بعض الوثائق التاريخية، في صدد حديثها عن مجريات الأمور في الأحساء إبّان العهد العثماني، عن دور الشيخ الرائد في الذود عن مجتمعه بما حفظ له تماسكه ـ على الرغم من أنّ الوثيقة لم تصفه بأكثر من كونه قاضياً ـ وعن شجاعته وعلاقته بالسلطة المحلية آنئذٍ. وسوف نثبت في آخر الكتاب صورةً من تلك الوثيقة إن شاء الله . (أنظر صفحة ٢٧٣ ـ ٢٧٤).

رابعاً: فراسة المؤمن وسرعة البديهة

تلك نعمة من العليّ القدير أن يُلهم بعض الأفراد سرعة البديهة، أي

سرعة ورود الجواب إلى الذهن بحيث يكون ردّاً مُفحِماً ومُقنِعاً وحكيماً، فيحظى صاحبه من السائل بالإعجاب والإكبار. وميزة هذه النعمة أنها تسعف صاحبها في الأزمات، ومواجهة المآزق الصعبة، وأحياناً تأتي بالحلّ السريع لمشكلة عويصة تكاد تأخذ بخناق الكثير.

أما إذا رافق البديهة الحاضرة فراسة الإيمان، فإنها الكرامة الربّانية حيث تظهر بعض المواقف على هيئة كرامة من كرامات الأولياء..!.. فقد مرّ بنا موقفه من زوجة الأب التي اشتكاها إليه أبناء زوجها لمّا ادّعت «العوار» بعد وفاة الزوج، وتجلّت سرعة بديهته بالأمر بحبسها مهما طالت مدّة الحمل المزعوم..!.. وبذلك أبطل حجّتها حيث نفد صبرها وأعلنت عدم الحمل..!

ومن تلك المواقف أنه رأى في المسجد يوماً أصغر أبناء أخيه عبد الله، فقال بعد أن أمسك بعضده: «**إن عزكم من عزّ هذا الصبي..!.. فالله الله فيه..**» ولم يكن ذلك الصبي إلاّ الشيخ موسى بعينه..!. أوَليست تلك هي فراسة المؤمن الذي ينظر بعين الله..؟

خامساً: الجود والكرم...

لقد عاش الشيخ في زمن اتّصف بالفقر والفاقة، وكان معظم الناس يشتكون قلّة ذات اليد، بالإضافة إلى أن ظروف الخلل الأمني كانت تخلق أوضاعاً شاذّة، فكانت يد الشيخ هي التي تمتدّ آنئذٍ لتقدِّم مسحة الحنان والشفقة جوداً وكرماً، وقد روى لي الحاج علي الجبر حفظه الله كثيراً من قصص أيام العوز والحرمان، وكيف كان الشيخ يرسل المال صراراً خفيةً للمحتاجين، وكان يشخّص الحاجة من عيني صاحبها بغير سؤال، فيعطي كُلاً حسب حاجته بكل حفاوة ورحابة صدر..!.. وفي ذلك قال الشاعر الشيخ أحمد الصحاف يمدحه:

وإن جـاءه وفـد يـريـد رفـادةً يجد خير وجهٍ بادياً بالمسرّة
وبذل عطايا طيباتٍ أصولها بإخراج خُمسٍ والزكاةِ البهية

كما كان يشجّع أهل الحارات على إقامة العشاء الجماعي، حيث يشترك المقتدرون فيُقيموا وليمة كبرى لأهل الحارة، فيتسنّى للفقراء أكل اللحوم وغيرها ممّا هم محرومون منه، وقد امتدح كرمه الشعراء وأشادوا بعطفه الأبوي على ذوي الحاجة. وهكذا لم يبخل بماله ولا بوقته ولا بعلمه ولا بمكانته، وإنما وظّفها جميعاً في سبيل إنجاح المشروع الاجتماعي الذي كان يتطلّب الكثير من الجهد والاهتمام والإمكانات.

سادساً: التواضع الجمّ...

ليس بدعاً من القول أنّ زينة المرء التواضع، وأنّ من تواضع لله رفعه، فالتواضع فنّ لا يتقنه إلاّ عظماء النفوس، إذ لا يتيه ويتكبّر إلاّ الطبل الأجوف الذي لا خير فيه. فكيف إذا كان العظيم عالماً من فحول العلماء..؟.. الذين قال عنهم رسول الله ﷺ:

«مثل علماء أُمّتي كمثل الأشجار، كلّما ثقُلت أغصانها (بالثمر) اقتربت من الأرض».

أما شيخنا المترجَم فقد كان جمّ التواضع، مثال العالم القريب من الناس، لا ينتظر مجيء الناس إليه وإنما كان يسعى بنفسه إليهم، ويشدّ الرحيل إلى قُراهم ومنازلهم مهما نأت، ويُجالسهم ويتبسّط معهم في المسائل والنقاشات، ويشارك في أفراحهم وأتراحهم، ويسعى جاهداً للرفع من مستواهم المعنوي بنزوله الهادف إلى مستواهم المادّي.

ولا أدلّ على تواضعه النادر المثيل من موقفه المؤدّب مع والده الذي جسّد فيه نكران الذات بأجلى صوره، وأيّ تواضع أكثر من هذا الموقف

النبيل..؟.. وإذا كان هذا شأنه مع أقرب الناس إليه، بحيث يُفترض أنّ الكلفة بينهم مرتفعة، فكيف بالأمر مع الآخرين..؟!.

سابعاً: الزهد والنصيحة...

لم يترك الإسلام خصلة حميدة إلاّ وحبّبها لأتباعه، ولم يدع خُلُقاً كريماً من دون أن يدلّ ويؤكد عليه، فجعل من واجب العلماء «الزهد» كيلا يطمع فيما بين أيدي الناس، و«النصيحة» كيلا يطمع الشيطان في الناس، وقد ورد في الدعاء المأثور عن صاحب الأمر (عج) قوله عليه السلام:

«..وتفضّل على علمائنا بالزهد والنصيحة..».

فكان مترجَمنا قدّس الله روحه الزكيّة، أنموذجاً للزاهد العابد والصائم الناسك والعفيف الشريف، الذي لم يدّخر وُسعاً في نشر الفضيلة، والتشجيع على التحلّي بالأخلاق الطيّبة، لأن الدين إنما يتجلّى حقّاً في مكارم الأخلاق. وكان شديد الثقة بالله وبما عند الله، فزهد في الدنيا. والزهد الحقيقي ما كان منه عملياً زهداً في معصية الله ورغبةً في طاعته. وبتلك النظرة الإيجابية راح يبذر في أرجاء المجتمع ركائز التقوى، ليقوم على أساسها كيانه الشامخ. وكم كان لزهده من تأثير في التخفيف عن المحتاجين، الذين لا يجدون إلاّ الشيخ وسيرته في الزهد، يتأسَّون به في الصبر على الفاقة، وأمّا نصائحه فإنّ انتشارها في أوساط الناس عبر إرشاداته الوعظية، وخطاباته وكتاباته، ومواقفه مع الأفراد، فقد آتت أُكُلها آنئذٍ حيث التزم أبناء المجتمع بتوجيهاته وبرامجه حتى اجتاز مراحل الحرج.

ثامناً: القدرة الإدارية...

قلّة من الناس هم الذين يمتلكون موهبة القدرة على تنظيم أمورهم،

وضبط شؤونهم الخاصة والعامة، لأن القضيّة بحاجة إلى فنّ الإدارة، والتحكّم في الوقت والثروة والطاقات بموجب ما تقتضيه المصلحة، والتي بدورها تتطلّب المقدرة على التشخيص. وإذا كان تلقّي الأوامر سهلاً، فقليل هم الذين يستطيعون تنفيذها، لأن المنفّذ يحتاج إلى خبرة ومهارة، ولا توجدان إلاّ في «الكادر»، وإذا كان الكوادر قِلّة، فمما لا شك فيه أن الإداريين القادرين على صنع القرارات وإصدار الأوامر أقلّ وأندر، وفي مجتمعات التخلّف قد لا تجد آمِراً واحداً في المائة، بل في الألف إن لم يكن في المليون..!

أما شيخنا المترجم فقد جمع إلى علم الدين فنّ الإدارة، حيث أظهر براعته في إدارة الأعمال الحرّة في مطلع شبابه، عبر الخياطة والفلاحة، كما أظهر البراعة ذاتها إبّان قيادته المرجعية في إدارة شؤون المجتمع، بإنشاء مختلف المؤسسات الضرورية لاستمراريته وحيويته، مع ما تحتاجه من صيانة ورعاية دورية، والتصدّي لجمع شتاته ولملمته، وتجميع قواه، وصقل عدد من طاقاته وتوحيد كلمته، وبالتالي تحصينه من أسباب وهنه وضعضعته. وله يستطيع فعل ذلك إلاّ إداري مُحنّك..؟..!.

تاسعاً: القدرة على صنع الكوادر...

من هو الكادر..؟.. وماذا بإمكانه أن يصنع..؟..

من المؤكّد أن لا كيان لمجتمع لا مكان فيه للكوادر، إذ هم بُناة الوطن وروّاد النهضة، وهم اللحمة الحقيقية لأيّ تقدّم اجتماعي، فبعقولهم المفتّحة وقوّة سواعدهم ينشط المجتمع، وبقُدُراتهم وكفاءاتهم المتنوِّعة تتحرك عجلة الحياة وماكنة الاقتصاد، وبأفضالهم وإنتاجيتهم تتربّى الأجيال. فأي عظَمة ينطوي عليها الكادر..؟.. إنه بلغة الدين «مجاهد» تنقدح له آفاق

العمل، وتنفتح أمامه سبل الخير، لأنّه إنسان توجّه بكلّ جوارحه وجوانحه للبذل والبناء، بفضل توجيهات أب رائد، ويفجّر هممهم لارتياد طرق المجد، ويسير بهم في تألّق مستمر نحو الصعود إلى قمّة المسؤولية بجدارة واقتدار..!.. فهو إمام الكل وإمامهم.

وكذلك كان الشيخ محمد باني مجتمع الشيعة في الأحساء في القرن الثالث عشر الهجري، وصانع جيل الرواد الأوّل من كوادره الذين شيّدوا في ربوع المنطقة مؤسسات التشيّع، وترجموا خطط «الإمام» الرائد ومشاريعه إلى واقع ملموس، ينبض بالحيوية والنشاط. وليس عظيماً من يبقى وحده في الساحة، إنما العظيم حقّاً من يصنع العظماء، ويحوّل الرجال الذين التفّوا حوله إلى كوادر كفوئين ومسؤولين. ولولا اهتمامه بصنع الرجال لما قدر على فعل شيء في المجتمع، فكيف وقد بعث المجتمع من جديد..؟!!.

عاشراً: الروح الاجتماعية...

روح المحبة والأخوّة والصفاء، ونقاء القلب من الضغينة والأحقاد والبغضاء، والنزوع إلى الألفة والترابط والإخاء، هي البواعث إلى صنع علاقة إيجابية بين أبناء المجتمع، ولا ينقصها إلاّ إرادة التنفيذ، فمتى ما جاء من يمتلك الروح الاجتماعية، سرعان ما تبدأ شبكة من العلاقات تربط بين أجزاء المجتمع المترامية، لتشكّل من الفرقة تلاحماً يسوده التجانس والحب، وتصنع من الكثرة الغثائية مجتمعاً قويّ البنية متماسك الأطراف.

وشيخنا المقدّس، لم يكن يمتلك الروح الاجتماعية وحسب، وإنما كان يبعث تلك الروح في أبناء المجتمع، عبر بعض مشاريعه وبرامجه ودروسه، بل حتى مواعظه، ولم يهنأ له بال حتى جعل لعلاقات التفاهم الاجتماعي جهازاً من ألمع شخصيّات المجتمع يرعاه بنفسه، ويمدّه

بتوجيهاته، وجعل منه يمناه وأداته التنفيذية كما قد مرّ بنا.

وما أحرانا اليوم أن ننتهج ذات الخطى ونطوّر من أساليبنا فيها، بعدما كبر المجتمع وتعدّدت مرافقه وترامت أطرافه وتناءت نواحيه، حتى بات من العسير على الأقرباء التلاقي، بحجّة كثرة المشاغل والارتباطات المادّية والمعاشية، على حساب صلة الرحم، ولقاء القربى، والترابط الاجتماعي. فرحم الله شيخنا قدوة السالكين، ومثال الصالحين وأسوة حسنة للعاملين..!

وإن كان ثمّة ما يُقال حول شخصية المترجم، أو عن خصاله النبيلة، فإنّما عن حضوره الاجتماعي الراسخ، إذ لا يزال يذكره المعاصرون بالرغم من رحيله منذ أكثر من قرن من الزمن، فآثاره باقية، ولمساته حاضرة، وحسناته خالدة.

أما قصص كراماته فهي حديث المجالس، وإن كانت لا تُعدُّ إلاّ دليلاً على عمق إحساسه، وصدق رؤيته وصفاء نفسيته، لما اعتاد عليه من ترويض مشاعره وصقل روحيته، ببرامج ودروس أهل البيت عليهم السلام، في الرياضة الروحية وطرْق مجالات العرفان والعروج إلى الله عزّ وعلا.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى يجب ألاّ يقتصر الحديث عنها على أنّها كرامات غيبية وحسب، لأنها آنئذٍ ستلغي عن كاهلنا مسؤولية الاقتداء به، والتأسي بمواقفه وتصرُّفاته، وهذا الأمر ينطبق على جميع العظماء من أهل العصمة والكرامات، فهم مع كرامتهم على الله بشر، تجري عليهم سنن الكون والحياة، سنّة الله في خلقه، ..**ولن تجد لسُنّة الله تبديلاً**.. فلا داعي إذن للجوء مباشرة إلى التفسير اليغبي بدون إعمال الفكر، والبحث عن تفسير منطقي لمجريات الأمور. وهذا لا يعني نفي الجانب التكريمي الغيبي عن العظيم، وإنما غاية ما هنالك أن توضع الأمور في نصابها، ومحاولة الإرتقاء

بتفكيرنا وسلوكنا إلى مقام الكريم.

وهكذا فإنّ مقام مترجمنا كعالم ربّاني مقدّس، محفوظ له بما أنجز من مآثر وما امتاز به من مفاخر، أكثر مما يُظنّ، وأعلى مما يتوهّم البعض. فعلى سبيل المثال لا الحصر، حينما خرج ذات ليلة على بعض أصحابه، وأمرهم بالتوجّه إلى عين الخدود، وفتْح سواقيها كيلا يغور ماؤها بعد أن أغلقوها لبناء بوّابة نهرية في بداية المجرى المائي بعد النبع يُطلق عليها اسم «جصّة»، سألوه عمّا يعملون كيلا يجرف الماء المندفع بقوّة البناء الغضّ الجديد..؟.. فأجابهم بالقول على الفور أن يأخذوا تنكة من الدهن الحيواني الطازج، ويطلون به البناء الجديد، فعملوا ما أمرهم به فنجحت الخطة.

فعندما يتناقلها بعض البسطاء، ينقلونها على أنها إحدى كراماته، ولكننا عندما نتأمل القضيّة نجد فعلاً أنها إحدى مبادراته، النابعة من حرصه واهتمامه بما يُقوِّم أمر المجتمع. فهو لخبرته بالزراعة والمياه، أدرك بحدسه العمليّ الواقعي أنّ ماء العين الجاري إذا حُبِست سواقيه فإنّه لن يبقى حائراً، وإنما سيبحث لنفسه عن مجرىً آخر، فإن وجد مجالاً عند فوّهة النبع، وإلاّ تفجّر في موضع آخر قد يكون بعيداً عن النبع. ويبدو أنه فكّر بالأمر جيّداً، وأوجد الحلّ لمسألة انجراف البنا الجديد، فخرج عليهم وأطلق مبادرته.

الفصل الرابع:

عندما حان الرحيل..!

لقد قطع الشيخ شوطاً غير قصير من حياته يباشر القيادة الفعلية في منطقة الأحساء، بروحيّة عالية وأبوّة ظاهرة يغمر الجميع بعطفه، ويدير شؤون المجتمع بنضج ومرونة، يلمّ الشعث ويرأب الصدع،ويُداوي الجراحات حتى تحقق على يديه ما لم يتحقق لسواه من العلماء المراجع الكبار في هذه المنطقة، إذ أسعفته الظروف واستفاد من الفرص، بحيث فرض وجوده بحنكته وحكمته وقوّة شخصيته وحضوره الفعلي على صعيد الحوادث بجلال هيبته ووقاره.

وما إن جاوز الست سنوات بعد المائة من عمره الحافل بالأعمال الجمّة والعظيمة والعطاءات الجسيمة، حتى آذن بالرحيل للقاء ربه، فبالرغم من المخاطر الكبيرة التي خاض عُبابها، ومحاولات الاغتيال العديدة التي أنجاه الله منها فقد بارك الله له في عمره. وفي هدوء واطمئنان ورخاء كهدوء نفسه واطمئنان قلبه ورخاء أحكامه، كان في الخامس من ذي القعدة الحرام جالساً في صحن الدار ضُحىً مع أهله وعياله، فوجّه الخطاب للنساء لا سيما بعض بناته وكنّاته، أنّ عليهنّ أن يجمعن ما غلا من حليّهن وممتلكاتهنّ ويحفظنها في مخادعهن، ويتأكّدن من حفظها وإحكام غلق الأقفال عليها، لما سيلمّ بهن من أمر عظيم ذلك النهار..! ولم يكن من

عادتهنّ مخالفة أوامره، ولكن علت على وجوههن علامات الغرابة والحيرة..!

بعد الظهر وقد عاد من المسجد أحسّ بنوع من التوعّك، فنهض وطاف بأفراد عائلته فرداً فرداً مسلّماً ومودِّعاً، وأوصى زوجته بأن تصعد إليه قبل المغرب من غير إحداث ضجة مهما رأت..!.. ثمّ يمّم وُجهته صاعداً إلى غرفته الخاصة التي كان لها النصيب الأوفى من خلواته العباديّة، وجلواته الروحانيّة ليقضي فيها ساعات التأمّل والتدبّر والعروج إلى ربّه، فهل كان وقع الوعكة عليه شديداً بحيث أحسّ بقرب الأجل..؟.. أم أنّ لقرب علاقته بالله حباه ربّه من المواهب النفسيّة ما يُمكن به أن يستشفّ ما سيواجهه عمّا قريب..؟!

وبالفعل ما إن صعدت إليه زوجته لتخبره بقرب حلول وقت المغرب حتى فوجئت به مُمدّداً على مصلاّه، وهو جثمان لا حياة فيه، يخيّم السكون والرهبة على المكان، وإذ نادته فلم يُجِب وحرّكته فلم يتحرّك، أدركت من فورها أنّه قد أسلم الروح منذ حين، ومضى إلى لقاء ربه ميموناً كريماً..!

ذاع النبأ فتداعى أبناؤه وأقرباؤه، وأُعلن الخبر في المسجد عند صلاة المغربين، فانثالت أهالي الهفوف وتقاطرت الألوف من كل حدب وصوب في الأحساء، ومضى أولياؤه في تجهيزه وتهيئة الجنازة من أجل التشييع. وبالطبع لم يستطع أحدٌ القيام بمراسيم الدفن في نفس الليلة، فالراحل الكبير لم يكن شخصاً عاديّاً، فهو أب الجميع والكل يرغب في المشاركة في التشييع، مما اضطرّ أهل الفقيد الغالي إلى تأخير الجثمان إلى اليوم التالي خصوصاً بعد علم الجهة الحاكمة.

لما علمت السلطات بالأمر، حضر المتصرِّف في وفد رسمي للمشاركة

في التشييع والدفن الذي أصرّ على إجراء مراسيمه بصورة رسمية، بموكب رسمي حضره أعيان البلد وكبار شخصياتها مع منسوبي وأفراد الحامية العسكرية، وحُمل النعش على مدفعية حربية، وسار الموكب العسكري على أنغام مارشال جنائزي أُسوة بمراسيم تشييع أي قائد كبير في القوات المسلّحة حتى تمّت مواراة الجثمان في الثرى.

والمتصرّف العثماني لا يمكنه نسيان الدور المميّز الذي قام به الشيخ إبان الفترة التي تحمّل فيها أعباء المرجعية، في سبيل الذود عن أمن البلاد والدفاع عن حياضها. ومباشرته القيادة الميدانية إلى جانب الجند لتشجيعهم وبث الروحية فيهم ورسم الخطط الحربيّة لهم.

ولا شك أنّ يوم وفاته كان بحقٍّ يوماً مشهوداً في تاريخ الأحساء، حيث اكتظّت المدينة بالمواطنين المفجوعين بفقد زعيمهم الروحي، وقد قدموا من أماكن أعمالهم وإقامتهم في مختلف المناطق والقرى، وازدحمت بهم الطرقات والساحات، وبالرغم من قيام العساكر الأتراك بتنظيم مسيرة التشييع وضبط الحركة، إلاّ أنّ التدافع والازدحام كان أكبر من حدود السيطرة، الأمر الذي حدا بالسُلطات المحلّيّة إلى إصدار التعليمات بإقامة حواجز من العساكر عند كلٍّ من «البصيرة» لمنع القادمين من القرى الشرقية، وطريق المبرّز لمنع القادمين من القرى الشماليّة، لا سيما النساء اللائي قدمن لمشاركة أهل الفقيد في العزاء داخل البيوت.

وقد كانت أيام الوفاة ـ التشييع والدفن والفاتحة التي استمرّت لأكثر من أسبوع ـ أيام حداد رسمي وشعبي في البلاد، وأيام حزن وفاجعة واضطراب، تبكي عميدها الفقيد وسيّدها المرجع الأكبر الذي ودّعها من غير إياب..!

بل كانت تلك الأيام موسِماً ثقافيّاً تبارى في رحابه العلماء، والخطباء

والأدباء والشعراء تأبيناً ورثاءاً وتفجُّعاً، فأُنشدت القصائد الغراء التي تثني على مواقفه المجيدة، وتؤرّخ بأسى يوم رحيله، كما أُقيمت مجالس العزاء على روحه في كل مكان في قرى الأحساء، ونُصبت له الفواتح في المناطق المختلفة في الخليج وفي العراق وإيران. يقول الشيخ كاظم الصحاف رحمه الله في مخطوطته عن وفاة الشيخ: [..**مات في السنة السادسة عشر بعد الألف والثلاثمائة هجرية، فعلى مهاجرها آلاف الصلاة والسلام وأشرف التحية، فرثته الأدباء والعلماء من أهل الأحساء، بقصائد فائقة ومراثي رنّانة رائقة**..][1] ثم راح يُعدّد الشعراء ويستعرض نُتفاً من مراثيهم.

مثواه الأخير..!

عندما توسّد الثرى كانت بُقعته المطهرة، في مدينة الهفوف موطنه وموطن آبائه وآله، في المقبرة الشرقية آنئذٍ (والآن قد تجزّأت إلى أربع قطع بعد أن استُحدِث شارع العقير الممتد إلى الصالحية والذي قطعها نصفين شرقي وغربي، والذي يتقاطع بدوره مع شارع الفاضلية الممتد إلى الخدود، فحدّها شمالاً في الجزء الغربي منها، ويقع شمال سوق الخضار المركزي بالهفوف، وفي هذا الأخير صار موضع القبر، في الزاوية الجنوبشرقية منه)، في حين أصبح الجزء الشرقي قطعتين، شمال وجنوب الشارع الممتد إلى عين الخدود. أمّا القبر فهو الآن بالقرب من مدرسة الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام داخل سور المقبرة المعروفة باسم «السديرة»، واضح المعالم قد قيّض الله له من أحفاده ومحبّيه من المؤمنين مَن يهتمّ بأمره، ويتعاهده بالتنظيف والرش بماء الورد ووضع الزهور عليه، وقد حُدّد الموضع[2]

---

(١) ترجمة الشيخ الصحّاف المخطوطة ص ١٢.

(٢) في نهاية الكتاب رسم كروكي يوضح موضع القبر في منطقة سوق الخضار المركزي بالهفوف، انظر ص ٢٧٧.

وإلى جانبه ابنه الشيخ عبد الحميد، وابنه الحاج عيسى الذي توفّي عام ١٣٥٦هـ، وحفيده الحاج علي الناصر، ويتوافد عليهم الزوّار لقراءة الفاتحة الشريفة على أرواحهم إلى اليوم.

وكم كان بالودّ أن ينال مقامه الشريف نصيباً أوفر من مظاهر التكريم إلاّ أنّ المسألة ليست باليد. ولكن ما يمكن فعله هو وضع تاريخ الوفاة على شاهد رخامي عند القبر، يثبت الوفاة تحديداً باليوم والشهر والسنة. ولكن غياب المعلومات التفصيلية الدقيقة حالت دون ذلك. هذا وقد انعكس الأمر على دراستنا هذه حيث اعترضت طريق البحث مجموعة من العوائق والصعوبات فمثلاً لم يكن من السهل علينا أن نستحدث له صورة تعكس ملامحه، أو أن نتعرّف على يوم وفاته بالتحديد، وإنما مع الإصرار والمثابرة تمّ بعون الله ما أردناه، وليسمح لي القارىء الكريم أن أستعرض معه كيف تمّ الحصول على تينك المسألتين تحديداً.

تحديد يوم الوفاة:

بعد مُضيّ قرن من الزمان على التحاق الشيخ بالرفيق الأعلى، مضى الجيل الذي واكب مسيرته ورحيله والحوادث التي خلّدت ذكره، كذلك مضى الجيل الذي بعده والذي ورث الوقائع المرافِقة لسيرته من جيل الآباء. لذلك ضاع تاريخ يوم وفاته، وظلت سنة الوفاة معروفة، لأن العديد من القصائد التي قيلت في رثائه تُثبت هذا التاريخ بحساب أبجد، ومن كتب عنه إنما أثبت سنة وفاته فحسب. وأما أحفاده فكانوا يؤكّدون أنّ وفاته كانت بتاريخ ١٦/ ربيع الأول/ ١٣١٦هـ حسبما كان يقوله آباؤهم..!!.

وقد أردنا التأكّد من يوم الوفاة لأن العزم كان متوجّهاً لإقامة حفل تأبيني في يوم ذكرى وفاته المئويّة، ولسوف نكتب بعد الفقرة التالية حول

وقائع هذه الذكرى ومن شارك فيها إن شاء الله. ولما بلّغنا فضيلة الشيخ حسين بن المرحوم الشيخ علي بن شبيث ندعوه للحضور استغرب التاريخ، وذكر أنّ وفاة المترجَم إنما كانت في شهر ذي القعدة، وعنده على ذلك شهود.! وإن كان لا يعرف يوم الوفاة بالضبط فوقعنا في حيرة، فاستعنت برائد البحث التراثي الأحسائي الأديب الحاج جواد الرمضان، فأفاد بأن بعض المرثيات تحكي بأن الوفاة كانت في مُقتبل عيد، فرجّح القول بأن التاريخ لم يكن في ربيع الأول ولكن لم تزل الحيرة، فمتى تُوفّي..؟.. هل كانت الوفاة قبل حلول عيد الفطر أم قبل عيد الأضحى..؟.

ووجّهنا الدعوة إلى سماحة الشيخ سعيد أبو المكارم للحضور والمشاركة، ولما أخبرناه بالتاريخ استغرب هو الآخر، وقال تثبّتوا من التاريخ!؟ وحين سألته عن السبب قال: وهل يجوز أن يتوفّاه الله في ربيع الأول ثم يبعث برسالة خطيّة لوالدي الجد الشيخ جعفر في شوّال لنفس العام؟!!. وقدّم لي جزاه الله خيراً تلك الرسالة وثيقةً وشهادة: وانزاحت غمة عنا فالآن بات واضحاً أن العيد المقصود إنما هو الأضحى!. ولكنّ السؤال يبقى متى..؟ هل هو في الأسبوع الأول من ذي الحجّة..؟ أم في النصف الثاني من ذي القعدة..؟ أم..؟.

وخلال مطالعاتي لبعض مصادر البحث، لفت نظري تاريخ وفاته في ترجمة «منتظم الدرّين»، للحاج محمد علي التاجر حيث صرّح بوفاته في ذي القعدة، فتنفّست الصعداء إذ اقتربت من الهدف خطوة أخرى، وحمدت الله وكأنما تولّدت لديّ قناعة بأني سأجد اليوم بالتحديد في مكان ما، وبالفعل بعد فترة وجيزة، وحيث كنت أراجع بعض المراثي لتصنيفها، إذا بي أعثر على بضعة أبيات للشيخ علي بن الشيخ محمد الصحّاف، رحمة الله تعالى عليه، وهو يحدد اليوم بالضبط شعراً في الخامس من (الفطر الثاني)،

وفي أُخرى شهر ذي القعدة، وحينها كنتُ أشدّ فرحاً ممّن عثر على كنز..!! يقول في إحداهما:

وكلّ امرىء عن هذه الدار راحل ... وهيهات أن المرء فيها يُخلّدُ
فلا خير في دنيا ولو أنّها صفت ... فما الصفو إلاّ وهو فيها مُنكّدُ
فكيف وفي ذي القعدة الشهر ما مـ ... ـضى سوى خمسة إلاّ ونَوْحٌ يُرَدّدُ
على فقد من قد قلتُ فيه مؤرِّخاً ... (مضى علم الحقّ البهيّ مُحمّدٌ)

بعث صورة له:

كان همّي منذ بداية التوجّه للكتابة عن المترجم هو المحاولة في بعث صورة لشخصه تحكي ملامحه وتعبر لجيل اليوم عنه! فهل نستطيع فعل ذلك..؟ لقد كان تحدّياً للسنين المائة التي تفصل بيننا اليوم وبينه..!.. فكيف نحصل على الملامح وليس فينا من رآه..؟.. أجل من رآه هو الذي يمكن أن يزوّدنا عنه بأوصافه، لذلك بدأت رحلة البحث عن معاصر شاهده ولا يزال بذاكرته يحفظ الصورة..!.. وبدأت أسماء المعمّرينَ على ندرتها ترنّ في سمعي، وفي كل مرّة عليّ أن أُجهّز مصوّرة الفيديو مع الشريط مع مرافق للتصوير، ونذهب لملاقاته. وقد قيل لنا عن الحاج... الراشد في العمران، ولكن ما إن تهيّأنا للذهاب للقياه حتى ذهبنا لحضور مجلس الفاتحة على روحه، حيث اختطفه الأجل قبل رؤيته ﷺ عن عمر لم يتجاوز الخامسة والتسعين..!

ونمى لأسماعنا اسم الحاج أحمد بن طاهر العبدي، وقيل لنا عن عمره وقد ذرف على المائة والثلاثين، من مواليد الهفوف، كان يعمل في الفلاحة والحياكة والتجارة، وحاولنا الذهاب إليه إلاّ أنّ مكانه لم يكن معروفاً، ووجدنا صعوبة حتى زرناه في بيت حفيده، وبعد اللقاء والمقابلة المصوَّرة،

وقد خرجنا وهو مُجهد ويحتاج للنوم، اكتشفنا أن الكاميرا المُصوِّرة لم تسجّل شيئاً، وفي الواقع أن الخجل وخشية إحراج الشيخ المسنّ منعانا من مُعاودة اللقاء، وسأكتفي بإثبات صورته الفوتوغرافية في نهاية الكتاب. لا سيما وأنّ الرجل قد وافاه الأجل بعدئذ، فرحمه الله رحمة واسعة.

وقد استفدت من بعض الأوصاف التي حصلت عليها في محاولة رسم معالم أولّية لشخص المترجَم، حيث أفادني بعض من التقيتهم أنّ لعيني الشيخ شبه في عيني حفيده حسين بن الحاج محمد الحسين، ولحاجبيه شبه في حاجبي حفيده سليم (أخو حسين) فطلبت صورتيهما. وذهبت بما عندي من أوصاف وأعطيتها لأحد الفنانين التشكيليين، وكان رسّاماً هنديّاً، فرسم صورة أوّلية بالعمامة، جاءت وكأنّها لكهل مستدير الوجه دقيق الأنف قصير اللحية، وبعد عرضها على أحد الشيوخ أفادني ببعض الملاحظات، منها أنّ لأنفه شبه في أنف حفيده المرحوم الشيخ عبد العظيم، وأنّ الوجه مستطيل، واللحية طولية، ولا بدّ لمظهر الشيب أن يبدو أكثر، وأعدنا المحاولة عند آخر فِلبينيّ، فجاءت الصورة لأشيب تهدّلت أجفانه وطال وجهه ولكن اللحية قصيرة، حيث صارت مساحة ما بين الأنف والشفة العليا كبيرة..!.. وسألته معاودة المحاولة مع التعديلات اللازمة، وعندئذٍ جاءت الصورة بالفعل قريبة الشبه بالعائلة مع احتوائها على المواصفات اللائقة برجل قيادي محترم، ويبقى هنا أن أشير إلى أنّ اللباس الذي يتزيّى به المترجم في الصورة زيّ حديث بينما في وقته كان يرتدي عمامة وجُبّة في نمطها القديم. وفيما يلي سأُثبت المحاولات الثلاث، فيما تبقى الصورة المعتمدة هي الملوّنة التي تتصدّر الكتاب في بدايته.

المحاولة الأولى

المحاولة الثانية

المحاولة الثالثة

وكنا في كل محاولة نستطلع آراء بعض الإخوة من المختصّين، وبعض أحفاد المترجم ليدلوا بما يُفيدونا بآرائهم، وبعد ذلك نعرضها على كبار السن ممّن عاصر المترجم ورآه، لكي نطمئنّ إلى أننا نسير في الاتجاه الصحيح.

وما زلنا نتلمّس الأخبار عن معاصرين للمترجَم، فوردنا اسمان وسعينا للقائهما فتمكّنا من مقابلة الحاج علي الجبر[1] وكان عمره قد شارف على المائة والعشرين أمدّ الله في حياته. وذهبت للقائه فوجدته في كامل وعيه وذاكرته، فحدّثني عن الشيخ وكأنه يتحدّث عن والده، وعن بعض تلامذته وبعض القصص عنه، ثم سألته عن أوصافه وأخبرني عن نفس الأوصاف التي توصّلت إليها من غيره، فأخرجت آخر محاولة للصورة ولما شاهدها ترحّم عليه وهزّ رأسه بالإيجاب أنّ الصورة صورته قدّس الله روحه..!

ولما التقينا الحاج علي الحساوي من «بني معن» لم يكن قد تجاوز السابعة والتسعين، فاكتفينا بالحديث معه حول حوادث القرن الأخير..!

وهكذا تمّ الرأي على اعتماد المحاولة الثالثة لرسم الصورة النهائية، وبعد التحسينات واللمسات الأخيرة، كانت الصورة التي تتصدّر الكتاب. فكان مجمل الوقت الذي استغرقَنا لإنجاز الصورة الحالية حوالي السنة..!

ذكراه المئوية:

عندما تحدد تاريخ وفاته في الخامس من ذي القعدة ١٣١٦هـ، لم يكن بالإمكان إقامة حفلٍ تأبيني لنفس الذكرى إلاّ مساء الخميس في

---

(١) هو الحاج علي بن حسين بن علي الجبر الحدب من مواليد الهفوف عام ١٣٠٣هـ، وكان يعمل في صناعة النسيج (الحياكة)، وكان كثير التردّد على مجلس المترجم، ومن بعده مجلس الشيخ موسى، وما يزال بصحّته وكمال عقله وذاكرته أمدّ الله في عمره. (إلى حين طباعة الكتاب)، وقد أكّد أنه كان يُصلّي خلف المترجم وهو في الثانية عشرة والثالثة عشرة من عمره.

النصف من الشهر نفسه ولكن بعد مائة عام على رحيله قدّس الله روحه، أي في سنة ١٤١٦هـ. وكان يوماً مباركاً أضفت عليه الذكرى هيبة وبهاءاً، حيث كان الحفل حاشداً، قدم الحاضرون إليه من أنحاء الأحساء ومناطق أخرى في الخليج، وقد خصّ الحفلَ سماحة المرجع الديني آية الله المرحوم الحاج الميرزا حسن الإحقافي بوفد جماعي من الكويت، شارك منه الشاعر الموالي جعفر علي الجعفر بقصيدة غرّاء بعنوان (البحر المحيط) جاء في مطلعها:

تنحَّيْ عن العلياء أُمَّ الكواكب ... ومِيلِي عن الإشراقِ نحوَ المغارب
وقُرّي سراةَ الحي فينا وعفّري ... لخدّيكِ تُرباً حيت حطَّت ركائبي
ويا عينَ عينِ الشمسِ غُضّي وأَسبِلِي ... إذا ما ذكرنا الشيخَ جفنَ السحائبِ
لقد طيّب الله الثَّرىٰ حيث ضمَّهُ ... وطابت به الأحساء أمّ الأطائبِ
ونالت أبو خمسين خمسين حوزةً ... من العلم فيه حجَّةٌ في المناقبِ

* * *

كما وشارك شاعر الأحساء الأديب الكبير الحاج محمد حسين الرمضان بقصيدة رائعة، عدّد فيها مناقب الشيخ ومواقفه كما أشاد بالرجالات الذين خدموا المذهب والطائفة من أبناء الأحساء ومن أسرة الشيخ آل أبي خمسين وقد جاء في هذه الرائعة أو القطعة التاريخية:

أيّ غبنٍ باءت به الأحسَاءُ ... وهي الحُرَّةُ التي لا تُسَاءُ
يُذكَرُ النخلُ والتمورُ وتُنسىٰ ... من بَنيها رجالُها العظماءُ
والبلادُ الرجالُ لا الأرضُ والزَّرْ ... عُ وإن فاضَ خيرُها والثّراءُ
والرجال العقول تستنبطُ العِلْـ ... ـمَ وتسري وهمُّها العلياءُ
حملوا مشعلَ العلوم وأثرَوْ ... ها وخاب التجهيلُ والجُهلاءُ

فإذا فاخَرت بأهرامِها مصـ ـرُ فأهرامُ أرضِنا العلماءُ
تلك عند التحقيقِ أكوامُ أحجا رٍ وهٰذي فيها الهُدٰى والعطاءُ

* * *

هذا وقد ألقى فضيلة الشيخ عادل بو خمسين كلمة الافتتاح، أشار فيها إلى مكانة المحتفى به وحق الجيل الحاضر في التعرّف عليه للاقتداء به، وشكر الحضور نيابة عن الأسرة. وتخلّل الحفل كثير من الإضاءات العلمية حول شخصية صاحب الذكرى ممّا قيل فيه وعن إجازات الاجتهاد التي نالها في حياته وعن أساتيذه وتلامذته..!

وكانت الكلمة الرئيسة في هذا الحفل التأبيني، للشيخ (كاتب السطور)، حيث سلّط الضوء على دور الشيخ الريادي في إعادة بناء الكيان الشيعي في الأحساء، بعد تمزّق المجتمع وتبعثره لأكثر من ثلاثة قرون، وقد مرّ بنا نصُّ الكلمة خلال الفصل الأوّل من الباب الثالث تحت عنوان (فعاليّاته الاجتماعية).

وكان مسك الختام مرثية الشيخ عبد الحميد نجل صاحب الذكرى في أبيه ألقاها أحد أحفاد المؤبّن هو الأخ سليم محمد الحسين. ومن المؤسف أنّ مشاركة سماحة الشيخ سعيد أبو المكارم التي كانت من المفترض أن تتصدّر الحفل لم تتمّ لطروء ظروف خارجة عن الإرادة.

أولاده وأحفاده:

لقد رحل عن الدنيا، ولكنّ من خلّف لم يمُت، ومن كان مثله أيضاً لا يموت، فكيف به وقد ترك من بعده أبناء صالحين يحقّ لكل أب أن يفخر بأن يكون له أبناء أمثالهم، علماء فضلاء أُدباء ومرموقون. فقد خلّف من الأبناء خمسة ذكور، هم الحاج عيسى والحاج ناصر والحاج صالح والشيخ عبد الحميد والشيخ طاهر، كما كان له من بين وِلده إناث.

الحاج عيسى:

أكبر أبناء الشيخ ووحيد أمه الذكر، وقد وُلد في الهفوف حوالي عام ١٢٦٦هـ، ونشأ في ظلّ أبيه في بيت علم وفقاهة وتقوى، مواكباً لمرجعية والده ومُستفيداً من التجارب القيادية والمواقف الشجاعة، وكان منذ صغره معروفاً بقوّة البأس والغيرة والشجاعة، وموصوفاً بالرجولة المبكرة حيث اعتمد عليه والده منذ بلوغه سن الرشد، لا سيما وأنّ مواصفاته الجسدية وطوله الفارع قد أضفيا على شخصيته الهيبة والمهابة، الأمر الذي أهّله أن يلعب دوراً بارزاً في لجنتي إصلاح ذات البين والعلاقات الاجتماعية تحت إشراف والده.

وقد تألّقت شخصيّته أكثر بعد وفاة والده، إذ كان له اليد الطولى في حفظ الأمن الداخلي، إبّان الحكم التركي الذي فرَط في زمنه زمام الأمن. وقد اشتهر بواقعة ذبحة الخندق[1]، التي راح فيها أكثر من ثمانين بدويّاً من المستهترين بأمن البلاد وحياة العباد، وبعدها أسبغ عليه الباب العالي لقب «باشا» وهو تتويج له بالزعامة المحلية.

وقد عمّر حتى أناف على التسعين، إذ كانت وفاته بالهفوف في عام ١٣٥٩هـ. وقد خلّف من بعده ابنين هما الشيخ عبد العظيم، الذي أعقب

---

(١) عندما استفحل الأمر واضطربت البلاد وضج الناس من السطو البدوي المسلّح وفي وضح النهار، ضاق الناس ذرعاً فهرعوا إلى الحاج عيسى الذي لم يتوانَ فدخل على المتصرّف العثماني ليستحثّه على فعل شيء فأبدى له العجز التام، فطلب منه الإذن الرسمي ليتصرّف على مسؤوليته الشخصيّة، فأعطاه الإذن، فلما خرج من عنده توجّه رأساً إلى بوّابات السور، فأمر بإغلاقها وأمر كل مقتدر على حمل السلاح أن يبادر بسلاحه إلى كل بدوي عابث ويوقفه عند حده أسراً أو قتلاً أو جرحاً. وكانت حصيلة القتلى في ذلك اليوم ثمانين قتيلاً أُلقيت أجسادهم في خندق الكوت قبل أن تُجرىٰ لهم مراسيم الدفن، ناهيك عن الجرحى والأسرى الذين استلمتهم السلطات لتأديبهم. وما كان من المتصرّف العثماني إلاّ أن رفع الأمر إلى الآستانة، فجاء الأمر بإسباغ لقب الباشا على الحاج عيسى.

من الولد باقراً (أبا هيثم)، والحاج حسين الذي تُوفّي شابّاً بعد أن خلّف محمّداً الذي أعقب من الولد ثمانية ذكور[1] وأنثى واحدة. وقد انحصرت ذرّيّة الشيخ محمد في عقب ولده الأكبر الحاج عيسى فقط.

الحاج ناصر.

ولد بعد الحاج عيسى ولكن من أُمٍّ أخرى، هي أُمّ بقيّة الإخوة، ونشأ في نفس الأجواء، وبعكس أخيه الذي غاص في القضايا الاجتماعية، فإنه آثر العمل في الفلاحة واهتمّ بالنخيل، ورُزق بولد واحد هو الحاج علي، وبنتٍ تزوّجها حسين ابن عمّها الحاج عيسى قبل أن توافيه المنية وهو في الأربعينات من عمره، كما أن ابنه هو الآخر لم يعمّر طويلاً، حيث وافاه الأجل سريعاً فمات في حياة الشيخ موسى بعد أن ترك من بعده صبيّاً سرعان ما لحق به. وكان ذلك الصبيّ آخر من بقي من سلالة الحاج ناصر رحمه الله تعالى.

الحاج صالح..

أصغر من سابقيه، ولكنه مثل الثاني سلك طريق العمل الزراعي فاشتغل بالفلاحة مع أخيه الحاج ناصر، ولم يعمّر هو الآخر طويلاً ومات من غير أن يخلّف ذريةً من بعده. ولعل وفاته كانت في عهد أبيه.

الشيخ عبد الحميد..

عالم فاضل وأديب بارع وشاعر قدير، وُلِد بالهفوف في حدود عام

---

(١) هم الحاج حسين (أبو موفّق)، والحاج علي (أبو أُسامة)، والحاج جواد (أبو أحمد)، والحاج عبد الهادي ومنصور (أبو مرتضى)، وعباس (أبو حيدر)، وسليم (أبو مقداد) وجعفر، وكلّهم من المعاصرين، وهم بعوائلهم وأولادهم في وضع ممتاز.

١٢٨٥هـ، وكمن سبقه من إخوته نشأ في بيت العلم والمعرفة، وترعرع في أجواء ثقافية وفكرية، وتتلمذ في البداية على والده أوّليّات العلوم الحوزوية، ثم انتقل إلى حوزة السيد الفاضل الأجلّ السيد هاشم الذي كان مرجعاً في المبرّز، ولبث في دروسه حتى عام ١٣٠٨هـ حيث قرّر والده إرساله مع أخيه الشيخ طاهر للدراسة الحوزوية في عاصمة العلوم الفقهية (النجف الأشرف). وقد أُعجِب به مدرسوه لنبوغه العلمي، ولكنه لم يواصل الدراسة.

عندما عاد مع أخيه إلى البلاد انشدّ إليه ولشعره الكثير من أهل الأحساء، فامتدحه وأخاه الشيخ طاهر بعض الشعراء. فكان واحداً من أبرز أدباء وشعراء الأحساء البارزين، وله عدد من القصائد الغرّاء في مدح ورثاء أهل البيت عليهم السلام وبعض العلماء الأعلام، كما وله العديد من المشاركات الأدبية لا سيما في المناسبات المختلفة، ولو جُمع شعره المتفرّق في المجاميع الخطّية لحصلنا للشاعر رحمه الله على ديوان صغير. وقد توفّي في حدود سنة ١٣٤٠هـ ودفن في مقبرة الهفوف إلى جنب والده، وبقية أفراد أُسرته.

الشيخ طاهر..

هو أصغر إخوته، وكانت ولادته حوالي ١٢٩٠هـ، عالم جليل وفقيه مجتهد، ورع تقي ومعروف بالشيخ محمد طاهر، حيث تربّى في بيت العلم والمرجعية القيادية التي لم يشهد تاريخ الأحساء المعاصر لها مثيلاً. وقد تلقّى أوّل المقدمات العلميّة على يدي والده وبعض علماء بلاده بالأحساء، ثم هاجر إلى النجف الأشرف بمعية أخيه الشيخ عبد الحميد وابن عمهما الشيخ موسى عام ١٣٠٨هـ، وحضر على مدرّسي الحوزة، وكان متميّزاً، وكان متميّزاً على زملائه بنجابته، كما كان يكتب الدروس على طريقة

التقارير، فصار عالماً فاضلاً محقّقاً له نبوغ خاص[1]. وأجازه بعض علماء عصره روايةً ودرايةً، منهم:

١. العالم الكبير السيد أبو تراب الخوانساري[2] الذي قال في إجازته: «..**جناب قدوة الفقهاء المحققين، وزبدة الفضلاء المدققين، مهذّب المسائل وممهّد الوسائل، مستنبط الفروع من الأصول، جناب الشيخ طاهر بن..**» وله منه إجازة أخرى أصدرها له سنة ١٣٢٦هـ.

٢. الشيخ فتح الله شيخ الشريعة الأصبهاني الذي أجازه في غرّة شعبان من سنة ١٣٢٦هـ.

٣. السيد محمد علي الإمامي الخوانساري. أجازه دراية وقال في إجازته: **من العلماء الراشدين، والأساطين الراسخين ممّن بلغ بحمد الله أوج الاجتهاد**»..

٤. وأجازه كذلك إجازة اجتهاد **الشيخ الحاج ميرزا حسين الخليلي**.

٥. وأجازه أيضاً **الشيخ هادي شليله** في ٨ ربيع ثاني سنة ١٣٢٦هـ.

وأجازه نفس العام **الشيخ عبد الهادي الهمداني**[3] **وبقي في العراق منشغلاً بأبحاثه وتحقيقاته فترة زمنية لا بأس بها، وقبل أن يتوجّه إلى موطنه عاجلته المنية فلبّى نداء ربّه في النجف الأشرف سنة ١٣٤٢هـ حيث دفن فيها حسب ما ذكره صاحب دائرة المعارف الإسلامية الشيعية**[4]

---

(١) مخطوطة الشيخ باقر بو خمسين «علماء هجر وأدباؤها في التاريخ» ص ١٥٦. كما للمذكور ترجمة في أنوار البدرين، وأخرى في معالم الرجال.

(٢) ولد في خوانسار في ١٧/ ٧/ ١٢٤٦هـ، وتوفي في النجف بتشييع حافل في ٩/ ٥/ ١٣٥٣هـ.

(٣) المصدر السابق ص ١٥٨.

(٤) دائرة المعارف الإسلامية الشيعية ج ٣ ص ٨٩.

الباب الخامس:

أصداء وفاته..!

لا شكّ أن الموسم الثقافي الذي رافق رحيله إلى الله قد خلّف كمّاً كبيراً من المادّة الأدبية المكتوبة، وقد تمثّل في الشعر الرثائي إذ خلّد مواصفات مترجمنا ومواقفه النبيلة، بعد أن انبرى ثلّة من الشعراء العلماء المحبّين فسجّلوا عميق أساهم ولوعة مشاعرهم في قصائد عصماء جاءت ثناءاً وإشادة بمؤهلات الفقيد وسيرته الحميدة.

وبرغم أننا لا نستطيع حصر ما قيل فيه آنئذٍ لتفرّقه وضياع بعضه، كما أننا لن نتمكّن من استيفاء جميع ما قيل أو كُتِب فيه إبّان حياته وبعد مماته، إلاّ أننا لن نقتصر في ما سنستعرضه هنا على ما قيل في المناسبة، ولذا مع كل قصيدة سوف نذكر المناسبة والقائل وموضوع القصيدة ما أمكن.

القصيدة الأولى

حينما صعقه الخبر لم يملك مشاعره التي جاش بها صدره العطوف، ففاضت أعماقه حزناً وتفجُّعاً على سيده ومرجع أحكام دينه ووالده العزيز، وكأنّ الشيخ عبد الحميد بن المترجَم عاد صغيراً دهمه اليتم على حين غِرّة، فراحت المآقي تسيل دماً، والقريحة تسكب شِعراً في رثاء الفقيد قائلاً:

أطلّت على الإسلام أم الفواقِر ... بما لم تزل أمُّ البلا أيّ عاقرِ
فحدّبت الأفلاك حزناً وأعولت ... ملائكُها والرسلُ عبرىٰ النواظرِ
وأزهقت الأيمانَ نفساً وقطّعت ... نِياطَ الهدىٰ والحقُّ واري الضمائرِ
وزلزلت الدنيا حنيناً وصيحةً ... وثلّت لِدينِ اللهِ عرشَ المفاخرِ
فيا لكِ جُلّى أودَتِ القلبَ والحشا ... وأبكَت دماءً كلَّ بادٍ وحاضرِ
أطرَتِ العقولَ العشرَ وجداً وإنّما ... كسرتِ قناةَ الشرعِ يا شرَّ غادرِ
وسدَّدتِ في قوسِ الردىٰ سهمَ واترٍ ... فأصمىٰ فؤادَ الدينِ يا لِلمَناكرِ
وشجّرتِ رمحَ الغدرِ في كَبِدِ الهدىٰ ... وقلبِ العلىٰ والمَكرُماتِ البواهِرِ
وجرّدتِ في كفِّ العنادِ مهنّداً ... ذبحتِ به الأسلامَ يا لِلكبائرِ
كأنّي بخير الرُّسلِ والآلِ والشَّجىٰ ... يؤجّجُ من أقصىٰ الحَشا للحناجرِ
فلو كُشِفَ المستورُ أبصرَتِ الورىٰ ... نبيَّ الهُدىٰ والآلَ قرحىٰ المحاجرِ

ولا بِدعَ فالمثكولُ وراثُ علمِهم ... وحاكيهِمُ في الفعلِ زاكي العناصِر
هو ٱبنُهُمُ مبنىً ومعنًى ومُنتمىً ... ونائبُهم يا خيرَ ناءٍ وآمرِ
وإنسانَ عينِ العلمِ والحِلمِ والنَّدىٰ ... وسيِّدَ أربابِ الحِجىٰ والمآثرِ
وذو الحكمتَينِ الآيتَينِ حواهما ... وعلّامةُ الكونِ العديمُ المُناظِرِ
ومُحيي رسومِ الدينِ بعدَ اندراسِها ... وناشرُ راياتِ الهدىٰ والبصائرِ
وماحي أُصولِ الغيِّ والزيغِ والهوىٰ ... ببرهانِ حقٍّ واستطالةِ قادرِ
وقطبُ رحىٰ العليا فهو أرض الندى ... وشمسُ سماءِ المجدِ بدرُ المفاخرِ
وذو المعجزاتِ الباهراتِ ومَن حوىٰ ... محاسنَ لن تُحصىٰ وقطبُ الدوائرِ
وكالىءُ ثغرِ الدينِ فلاَّقُ صُبحِهِ ... وذو الباقياتِ الصالحاتِ الزواهرِ
قضىٰ نحبَه مُحيي الشريعةِ والهُدىٰ ... وناصرُ دينِ اللهِ أعظِمْ بناصرِ
قضىٰ نحبَهُ ظِلُّ الإلٰهِ ولُطفِهِ ... مدارُ القضايا مُستَجَارُ العشائرِ
قضىٰ نحبَهُ ليثُ الإلٰهِ وسيفُهُ ... وغيظُ العِدا بحرُ الندىٰ ذو المآثِرِ
سلامٌ على الإسلامِ بعدَ زعيمِهِ ... ومُحييهِ في بَقرِ العلومِ الزواخرِ
سلامٌ على الأحكامِ بعدَ فقيهِها ... وناقدِ فُتياها كنقدِ الجواهرِ
سلامٌ على المعروفِ والمجدِ والتُّقىٰ ... فبتَّارُها غَوْرٌ بِغَيبِ المقابرِ
فيا وفدَهُ شدُّوا وسُؤَّالَهُ ٱقنَطوا ... وصارخَهُ فاخلُدْ بِضَيمٍ مخامِرِ
أَمسجِدَهُ هلاَّ انقلبتَ لأجلِهِ ... ألَم يبنِ فيكَ الدينَ والدُ طاهرِ
أبا صالحٍ ما العيشُ بعدَك صالحٌ ... لِنَفسٍ ولا مِن ناظرٍ غيرَ ساهرِ
فقدناك فقدَ الروحِ والغيثِ والحِجى ... فمَن للورىٰ والدينِ يا ابنَ الأطاهرِ
ستبكيك ما ناح ابنُ ورقاءَ أعينٌ ... بفضلِك حالَت من دماءِ المرائرِ
وتبكيك عينُ العلمِ والحكمِ والهدىٰ ... بزاخرِ دمعٍ من دمِ القلبِ فاترِ
عفاءٌ على الأحساءِ بعدَك وجدُها ... وإن طرق الدنيا فِناكَ بفاقرِ

لقد لبست فيك الجمالَ بعزَّةٍ ... وبعدَك شَوْهاً جُلْبِبَتْ ذُلَّ صاغرِ

أبي يا أبا أيتامِ آلِ محمدٍّ(ص) ... وغيثَهُمُ غوثَ الورىٰ في الفواقرِ

فديتُك لو تُفدىٰ بكلِّي وليتني ... فديتُك يا روحي وسمعي وناظري

فواللهِ لا أسلوكَ نوماً ويقظةً ... ولو عِشتُ دهراً كيف أسلو سرائري

عجبتُ لقلبٍ لا يذوبُ كآبةً ... عليك وقلْب الدينِ واري الضمائرِ

عجبتُ لعينٍ لا تجودُ بدمعِها ... عليك وآلُ اللهِ قَرْحىٰ المحاجِر

فما العيدُ والأيّامُ إلاّ مآتِمٌ ... عليك أُدِيمَت في حنينِ الأباعرِ

وما العيشُ لمَّا مِتّ إلا علاقِمٌ ... تُكَرَّرُ ما بين اللُّهىٰ والحناجرِ

أيهنأُ عيدٌ غاب بهجةُ نورِهِ ... أو العيشُ يصفوو الصَّفا في المقابرِ

فهيهاتَ هيهاتَ الهنا قُوِّضَ الهنا ... وسُوِّي عليهِ في لحودِ الحفائرِ

فيا ليتَني كنتُ الملحَّدَ دونَه ... ولكنما الآجال حكمةُ قادرِ

أما وسريرٌ تحتَه قد تزاحمت ... علىٰ حملِهِ الأملاك عَبرىٰ النواظرِ

يؤمُّهُمُ جبريلُ يهتفُ مُنشِداً ... عَرا الدين كسرٌ ليس يُلفىٰ بجابرِ

لقد حملوا فيه الشريعةَ والهدىٰ ... وموجودَ لطف اللهِ كهفَ الأكابرِ

أيا حاملي ظلَّ الإلٰهِ لروضةٍ ... رويداً حملتم مهجتي وضمائري

خذوا فانضحوا دَأْباً على تُربِ قبرِهِ ... لِماءِ حياتي وامهدوا اللحدَ صابري

أتدرون ماذا تحملون فإنه ... لَحَيٌّ وأَيْمَ اللهِ صافي المشاعرِ

فيا لِعجيبٍ يدفنُ الحيُّ مَن بهِ ... حياةُ الهدىٰ محيي العُفاةِ الدواخرِ

أيا جدثاً فيك انطوىٰ الدينُ والهدىٰ ... بلِ العالمُ الأعلىٰ وكلُّ العناصرِ

حنانَيك لو تدري بمَن قد حويتَهُ ... سحبت على الأستارِ ذيلَ المفاخرِ

سقى تُربَك الرضوانُ صَيِّبَ رحمةٍ ... وغشَّاك نورُ اللهِ دهرَ الأداهرِ

تجلَّلتَها يا دهرُ سوداءَ قد ضفت ... عليك ليومِ النشرِ ذيلَ المعائرِ

كسرت بها ظهَر الشريعةِ والهدى ... ونفسَ الورى أزهقَتها لم تُحاذِرِ
وقل لِعوادي الحتفِ شأنك والورْى ... مضْى عقلُها ماذا بقاءُ المشاعرِ
إمامَ الهدىٰ أنت المُعَزَّى حقيقةً ... بنائِبك الأزكىٰ جميلِ الظواهرِ
قضْى نحبَهُ شمسُ الهدايةِ والندىٰ ... خليفتُك الأوفىٰ حميدُ المخابرِ
لك الأجرَ فيه عظَّمَ اللهُ والعزا ... ولي راحماً يُتمي فقد مات ناصري
أيخشىٰ صغارُ اليُتمِ مَن كنتَ عِزَّه ... أبى اللهُ لا أخشى وأنت مؤازري
فأنت أبي البَرُّ الرؤوفُ حقيقةً ... ومالكُ تدبيري وماحي كبائري
وأنت غياثي في الشدائدِ كُلِّها ... وعلمك بي حَسْبي وغيثُك غامدي
عليك اتِّكالي في الموارِدِ كُلِّها ... وحبُّك حقّاً عُدَّتي وذخائري
وما أنا من رُزؤٍ وإن جلَّ جازعٌ ... رضاءً بحكمِ اللهِ تسليمَ صابرِ
وما جزعي المحمودُ إلا لكربلا ... ففي كربلا ما شبَّ عُشرُ مشاعري
فتلك التي ما أبدع الدهرُ مِثلَها ... يميناً ولا دارت لِخَلقٍ بخاطرِ
وأعجبني الشيعيُّ يذكرُ كافَها ... ولما يَمُتْ من كربِها والحسائرِ

القصيدة الثانية

وهنا مجموعة من القصائد للمرحوم الشيخ علي ابن المرحوم الشيخ محمد الصحّاف، في مدح المترجم والإشادة به في مناسبات مختلفة، وهذه القصيدة أنشدها عندما أصدر الشيخ المترجم رسالته العملية الصلوتية حيث قال:

صدرت رسالةُ نخبةِ الأبرارِ ... تزهو بنشرِ العلمِ في الأقطارِ
وردت ففاح على البرايا نشرُها ... بشذا نسيمِ أريجِها المعطارِ
نشرت على ورقِ النّضارِ فأسفرت ... بتبلُّجٍ كالصبح في الأسفارِ
يا حيَّ طلعتَها البهيَّة إذ بدت ... مثل الشموسِ وزينةَ الأقمارِ
بزغت على فلك القلوب فأبصرت ... منها القلوب مطالعَ الأنوارِ
قد أبهرت أهلَ الحِجى بجواهرٍ ... رقمت بها من بحرِها التيّارِ
هي شمسُ فضلٍ أجلبَت في أرضِنا ... أرضِ القوابل باكرَ الأثمارِ
طالت بيُمنىٰ اليُمنِ والبشرىٰ على ... هامِ السماكِ وكوكبِ الدوَّارِ
نعم الوسيلةُ في مراقي معالمِ ... الأحكامِ من علاّمةِ الأسرارِ
العالمِ العلاّم شيخِ المِلَّةِ ... الشَّهبا مقيمِ شريعةِ الأطهارِ
هو عيلَمُ العُلما النقيبُ محمَّدٌ ... عينُ الوجودِ وجالي الأغيارِ

وأمانُ من طلب النجاةَ لأنه ... نجمُ الهدى ومنارُ سيرِ الساري
مولىً إذا عُدَّ الفخارُ ففخرُهُ ... أبهىٰ من الأقمارِ في الأسحارِ
قد كان كهفاً لا يُضام نزيلُهُ ... بعوالمِ الأكوارِ والأدوارِ
صوّامَ أطرافِ الهواجِر قائماً ... جُنحَ الدياجرِ في دُعا استغفارِ
بتضرُّعٍ وتخشُّعٍ وتوسّلٍ ... وتبتُّلٍ بتلاوةِ الأذكارِ
بتهجُّدٍ وتمجُّدٍ وتجلُّدٍ ... وتصدُّعٍ من خشيةِ الجبّارِ
بلدُ الأمينِ ومن يحلُّ جِوارَه ... قد حلَّ في أمنٍ مدىٰ الأعصارِ
ومتى تجي الوُفّادُ زوّاراً له ... أيّامُهم ليست من الأعمارِ
يا قطبَ دائرةِ الرشادِ وكعبةَ ... الوفّادِ للقصّادِ والزوّارِ
قد عمَّ جودُك في الوجودِ لكونِهِ ... مدّاً كمدِّ السبعةِ الأبحارِ
هو لِلعُفاةِ الغوثُ والغيثُ الذي ... لِلمُجدِ بينَ نَداهُ كالأمطارِ
إيهٍ خليلي في نشورِ مكارمٍ ... لمحمدٍ في فضلِه الزخّارِ
يا حبَّذا يومٌ شربنا من عَطاً ... كَفَّيهِ مِن حوضِ الوِلا المِدرارِ
أوَ لم يكن بالعلمِ أحيا أنفساً ... أكرِم بمآ عينِ الحياةِ الجاري
قل ما تشاءُ من الثناء في مدحِهِ ... فَبِهِ يطيبُ كما الأريجِ الذاري
طابت عناصرُهُ التي لم يَدنُها ... غِيَرٌ ولا كدرٌ من الأكدارِ
هو طيبُ طوبىٰ والجِنانِ وما حَوَت ... وعبيرَ سدرةِ منتهى الأشجارِ
ناهيك مدحاً في الكتابِ مصرّحاً ... في وصفِهِ بغرائبِ الأخبارِ
ماذا عسىٰ أن يبلغَ البلغاءُ والـ ... ـفصحاءُ والشعراءُ بالأشعارِ
فلقد سما في المجدِ أعلىٰ رتبةٍ ... لا يرتقيها طائرُ الأفكارِ
ماذا يُقالُ بوصفِ مَن حاز العلى ... بالسبقِ فوقَ السابِقِ المضمارِ
قد كان ظلاً في الوجودِ أمدَّهُ ... ربُّ السماواتِ العليُّ الباري

وأقـامـه لـلـنـفـعِ إلا أنّـه ... الشمسُ المضيئةُ في علاءِ نهارِ
لو حامت الأوهامُ حولَ جلالِهِ ... لـم يُـدرِكـوا مـنـه سـوىٰ الآثـارِ
يا غايةَ السُّؤالِ بل يا منتهىٰ الآ ... مـالِ فـي الإيـرادِ والإصـدارِ
فإليك منّي يا سميَّ المصطفىٰ ... عـذراً تـهـادىٰ فـي بـرودِ وقـارِ
فاعطَف علينا بالقبولِ بفضلِكم ... يـا مـعـدنَ الأفـضـالِ والإيـثـارِ
لا زلت بالملكاتِ أنت مقدَّساً ... ومـؤيَّـداً مـن ربِّـك الـقـهّـارِ
ورعاك بالعينِ العليَّة في الورٰى ... وكـفـاك شـرَّ حـوادثِ الأقـدارِ
ما دمت للعِلمِ الإلٰهِيْ قيِّماً ... ومـتـرجـماً لـغـوامـضِ الأسـرارِ
أنت المُرابِطُ للثغورِ فلا سِواك ... حـفـيـظُـهـا عـن ألـسُـنِ الأشـرارِ
أنت المحجَّةُ والوسيلةُ في اللِّجا ... عـنـد الـنـبـيِّ وآلِـهِ الأطـهـارِ
صلَّى الإلٰهُ عـلـيـهِـمُ مـا بُـلـبـلٌ ... بـهِـمُ يـغـرِّدُ فـي ذُرٰى الأوكـارِ

القصيدة الثالثة

ونظم هذه القصيدة في مدح المترجَم منوِّهاً بصفاته، معدّداً مصنَّفاته، وما له من مناقب ومآثر، بأسلوبه الرشيق، وعباراته الجزلة والوزن الانسيابي الرقيق، مع حلاوة في الجرْس الموسيقيّ وانتقاء للمفردات الشاعرية، فقال:

نَعَم العلا لك يا أبا عبد الحميدِ ... فوق المعالي عند ذي العرش المجيدِ
يا ليت شعري أم أرى ما تصنع ... الشعرا وعنه كلَّ ذو الطَرف الحديدِ
كيف السلوك إلى معارج قدره ... ألا نمى إلي ينمى إليه كل جودِ
نسب كمنبلج الصباح ومغرس ... كالشمس يعرف بالأشعة من بعيدِ
فهو الشهير على ذرى العليا أبو ... خمسين عين المسلمين بلا جحودِ
لولا الحسود نشرت من أسراره ... لكن أخاف عليه من عين الحسودِ
مولى حوى آثار علم الأنبيا ... جاءت به الأخبار بالنص السديدِ
من عنده علم المعالي والبيان ... وسر أسرار المقنع بالبرودِ
والمستقر بأمر مولاه الذي ... قد قال في القرآن أوفوا بالعقودِ
حكم حكيم حاكم بل عيلم ... يستجنى منه جواهر الدر النضيدِ
غوث بل الغيث السماوي للورىٰ ... قطب تدور عليه أقطاب الوجودِ
يا ناظراً بضيا التوسّم في الورى ... فرأى مراياهم على حسب النقودِ

تتنزل الأملاك بشراً تبتغي ... بشراك بالخيرات يا ماوي الوفودِ
أنت الجواد فلست تلحق حيث أن ... حزت السباق بيوم ميثاق العهودِ
فلذا ارتضيت إلى الشريعة قيماً ... ومبر هنا لأصول أحكام الحدودِ
سعدت بطلعتك الرضية من هم ... محضوك وداً في رضا الله الودودِ
حسنت عقائدهم وطاب نجارهم ... ولنعم م اعلمت من علم مفيدِ
أولست قد عرفتهم بصفات من ... هم أقرب الحضرات للمُبدي المعيدِ
أهل الولاية في العوالم من بهم ... تسري الملائك بالأوامر كالعبيدِ
سبحان من علاهم واختارهم ... وله إصطفاهم قبل تكوين الوجودِ
يكفيك فخراً في ولاهم إنهم ... جعلوك حقاً نائب الحق الجديدِ
ناهيك مرتبة بهم من فضلهم ... ومزيد فضل ما عليه من مزيدِ
ولكم وكم من رتبة لك في العلا ... قعساً سمت بك في ذرى العرش المجيدِ
رتب هي الأعمال حيث تصوّرت ... ومحاسن الأفعال مرقات الصعودِ
معراج أزكى الصالحات وسلم ... الدرجات للجنات جنات الخلودِ
قد حير العشر العقول ثناء من ... أثنى عليه الله في الذكر المجيدِ
أم كيف تدرك شأنه وهو الذي ... في الناس كالإكسير معدوم النديدِ
قوموا ثقاتي عللوني ساعة ... حتى يطيب غليل قلبي في ورودي
ماء تسلل من صفا عين الحيا ... كالسلسبيل منبهاً عين الرقودِ
طاب الثنا وزكى وفاح أريجه ... يمجد المحمود محمود الجدودِ
الفاضل المحبور من قد ذاق من ... تلك الحدائق باكر الطلع النضيدِ
علامة العلما الذي أثنى على ... من علماه معالم الدين السديدِ
شيخ المشائخ أحمد الطهر ابن ... زين الدين معدن حكمة الحكما الأسودِ
والسيد المرحوم سيد كاظم ... المقبور مع شهداء سيدنا الشهيدِ

في حائر سام على فلك المكو ... كب والمحدب بل على حجب الحميدِ
طوبى لمن هو مقتدي فينا إلى ... علمائنا السعدا تبارك من سعيدِ
ذاك الذي في الله جاهد نفسه ... فهدي السبيل فحلى في عيش رغيدِ
مهدي وهاد مهتدي علماً بدى ... كالبدر أو كالشمس في برج السعودِ
يا حبّذا يوماً نشاهد وجهه ... ونزور حضرة مركز العلما العميدِ
إن شط عنا في المزار فشخصه ... أدنى إلى الأبصار من حبل الوريدِ
نرتاح بالأرواح من أنفاسه ... كالمسك جاء به الشمال مع البريدِ
قد هزّهم طيب النسيم فلم تخل ... إلاّ كأن لهم بدت أيام عيدِ
وغدت تغني في المحافل السن ... الأطيار بالتغريد مَعْ قُرّا النشيدِ
لا غير نشر فضائل للمصطفى ... ولإلٰهِ سفن النجا يوم الوعيدِ
أركان توحيد الإلٰه وجوده ... إثباته وظهوره سر السجودِ
والحق معهم بل عليهم دائر ... والغير منفعم الحشاشة بالحقودِ
ومفاتح الأنوار أبين شاهد ... فكفى به عما تبيّن في قصيدِ
فنظمت من نزر الثناء مؤملاً ... رضوان ربي لا إلى شيءٍ زهيدِ
يا نائب الأعراف والأشراف بل ... يا مقري الأضياف في العم الشديدِ
خذه من الصحاف محمولاً على ... سزر التقى وحفيد خير الحفيدِ
يهدي لحضرتك العلية يا سمي ... المصطفى طه الشهيد على الشهودِ
أزكى التحية والصلاة عليهم ... ما سبحت لله أصوات الرعودِ

القصيدة الرابعة

وكتب في تهنئة المترجَم بمناسبة قدوم ولديه العالِمين الفاضلين الذيْن شارفا على الاجتهاد، الشيخ عبد الحميد وشقيقه الشيخ طاهر، من موطن العلم في النجف الأشرف، حيث قال مهنّئاً:

يهنيك يا فخر الفخار الأقدمِ ... يا ذا المهنّا بالحبيب المقدِم
يا حي مقدمه الشريف إليك في ... آثار رحمة ذي الجلال الأكرمِ
قرت على خير التلاقي بالهنا ... عيناك بالشيخ الكريم المكرمِ
شيخ التقى عبد الحميد العابد ... السجّاد في أسحار ليلٍ مظلمِ
من كان في الأمكان والأكوان ... والأحيان محموداً حميد المنسمِ
ذاك الذي يهواه صدقاً في الورى ... قلب المتيم بالوداد المغرمِ
غيث الأحبة من جرت فيهم ندى ... راحاته مثل السحاب المسجمِ
عين المعارف بالبيان وبالمعاني ... مصدر العلم الخضمِّ العيلمِ
فلنعم ذا مع ذي المعالي طاهر ... من كان علمهما كبحر مفعمِ
وهما لعمري العاملان به ولم ... يعْدُ مقالهما لحكم المحكمِ
عرفا أصول معالم الدين الذي ... من حاد عنه جاهل لم يسلمِ
ولكم وكم مخزون علم كان من ... مكتوم علمك عنهما لم يكتمِ

قدماً وأعلام السرور تقدّمت ... لتسر قلبك بالتهاني الأفخمِ
نعمت بنفسك أنعماً ممّن هم ... أهل التنعّم يا لها من أنعمِ
وحضت بفضلك مطعماً قد كان ... من باكورة الثمار أزكى مطعمِ
لم يحك طعم نباته إلا الحيا ... الجاري الذي يحيي نبات الدسمِ
يا أيها الواعي لما قد قلته ... من قبل ما يبديه عن نطقي فمي
أني لأدري والمعاند راغم ... ما علم كشفاً كمن لم يعلمِ
أو لم تكن يذا التوسم آية ... كبرى لمن هو ذو فؤاد الأسلمِ
يا رشد من صلى وصام ومن سعى ... ما بين مروة والصفا من محرمِ
إن الذين هما بكوفان لقد ... وجدا بمغناه حصول المغنمِ
طاب المقام إليهما لما به ... جيزا مقام في مقام الأعظمِ
يا حبذا حازا الغنى فوق المنى ... خذه كما تهوى بمسك مختمِ
هذا هو الشرف الذي نيطت على ... أفلاكه درراً كعقدِ منظمِ
فلذا دعوتهما لأثبات العلا ... لهما على نهج الطريقِ الأقومِ
نهج المشائخ من بهم قد أبصرت ... أهل البصائر كل شيءٍ مبهَمِ
علقت بحبلهم الوثيق عُرىٰ الولا ... بذوي العرى الوثقىٰ التي لم تُفْعَمِ
طوبىٰ لمن قد سرَّه ما أُوتِيا ... ولداك من نِعَمِ الأله المنعمِ
ولكلٍّ من قد سا ما أُعطِيا ... نارٌ تلظَّى بالوقودِ المضرمِ
يا سيدي إني على ما تعهدوني ... إنني الصحاف بآسمي استمى
ألقيت حبك فيعطامي فاغتدت ... لا تنثني ترعى لذلك المعظمِ
يا شيخنا المشكور سعياً في الورى ... المشهور بينهم بعين المسلمِ
سمعا لك الفضل العظيم قصيدة ... برزت إليك من الفقير المعدمِ
فخمت ولولا مدحك الأسنى لما ... كانت مفخمة يا علي مفخمِ

قد نظم ابن محمد لألاءها ... وأظن أن كنظمها لم ينظمِ
يرجو بأن تتلى عليك بمجلس ... بك نلتجي وبيوم ندعى ننتمي
فابلن ثناآء الراغبين وكن لهم ... متعطفاً يا عصمة المستعصمِ
وأقرب بهم من حضرة هي أقرب ... الحضرات لله الحكيم الأحكمِ
صلى على تلك الحظيرة ربها ... وعلى أشعتها منار الأنجمِ

القصيدة الخامسة

ورثاه بحزن بالغ باكي العينين مفجوع الفؤاد، بادي الحيرة في اختيار القيادة البديلة، إذ عبّر عن مدى حيرة المجتمع بعد رحيل مرجعهم، إلى من يرجعون..؟ ثم لاذ بالسبط الشهيد متوجّعاً متحسِّراً، لأنّ الحزن الحقيقي إنما كان بفقده، والمصاب الأليم مصابه..!

تغير لون الشمس فالجوُّ أسودُ ... بيوم قضى الشيخ الرئيس محمدُ
قضى نائب السلطان ناموس عصرنا ... خليفته في أرض هجر الممجَّدُ
منار التجلي للهداية شيخنا ... ثمال اليتامى الوالد المتودِّدُ
مقلدنا في الشرع ذو الكرم الذي ... بجمد أياديه المكارم تشهدُ
أحب لقاه ذو العلا فدعاه يا ... حبيبي فلبى وهو بالحمد يحمدُ
فشاهد ما يرضاه عند مليكه ... بمقعد صدق ضمه منه مقعدُ
فطوبى بمثوى قد حواه وضمه ... ففيه ثوى ذخر وفخر وسؤدَدُ
على فقده فليبكه كل من بكى ... فإن له فوق السما قام مشهدُ
أقامت به الأملاك تبكي وأنها ... لأعظم ممّن قد بكاه وأزيَدُ
تميّدت الأكوان واهتزّ قطرها ... فهلا له الأركان لا تتميَّدُ
فأي فؤاد لا يذوب تحسرا ... وأية نفس صاحِ لا تتوجَّدُ

ففي النقل موت العالم العدل ثلمة ... بدين رسول الله يروى ويسندُ
عراه الأسى والخطب يوم رحيله ... وقد صابه صدع عظيم مجدَّدُ
فمَن بعدَه يحمي الثغور ثغوره ... يدافع عنه الملحدين ويطردُ
فوا أسفاه حيث أني لم أكن ... أرى شخص قبل الفوات وأشهدُ
مضى فائزاً بالخلد فوزاً وكيف لا ... يفوز بدار الخلد ذاك المخلَّدُ
فيا أخوتي هل تنصروني بالبكا ... لعل به نحظى الثواب ونسعدُ
فخسراً لعبد لم يسؤه فراقه ... ولم يوف فيه عقد ما كان يعهدُ
إلا أيها الصحاف كل مقلد ... غدا سوف يدعى باسمه يوم يوعدُ
وقل أنت للأصحاب في كل موقف ... مقلدكم في موقفي يتفقدُ
فبا لله لا تنسوا جميل صنيعه ... فإن جميل الصنع للمرء قيِّدُ
ولا تقطعوا عنه الزيارة والدعا ... وإن طال دهر فاقصدوا وتعهّدوا
فما مات مَن مِن بعده خلف له ... فقيه وبالفيض الألهيْ يُمَدَّدُ
وينشر فضلاً من أحاديث سادة ... حديثهم ذكوان صعبٌ وأجردُ
يقوم بأعبآء الشريعة فاتياً ... بفتواه ممّا عنده يتأكَّدُ
ولم يخطُ في أثر الخطا قطّ خطوةً ... رضيّ مُضيّ جلّ ذاك المحمَّدُ
أبٌ إن يغب مستفقداً فلنا أبٌ ... وليٌّ علينا لآيغيب ويفقدُ
به يكسر الجهل الخبيث وأن عوت ... شياطينه من كل من هو ملحدُ
وإن يشمتوا فالموت كأس شرابه ... فلا بد منه عن قليل سيوردُ
فحقق رجائي يا إلهي بمن له ... مقام حميد المجد عندك أحمدُ
يكون لنا هاد إلى الهادي في الورى ... نؤمّ حماه المستطاب ونقصدُ
فهذي صفات في أبيك تحققت ... فنعم صفات في صفاتك توجدُ
فيا جوهراً قد ضيء في الكون ناضراً ... ويا من بعين المسلمين الممجَّدُ

فمن مبلغ عني رسله من غدا ... حليف مصاب قلبه يتوقّدُ
يقول المحراب حواه مصلياً ... مضى أين عنك الساجد المتعبّدُ
وأين مضى الداعي إلى الله ربه ... إذا جنّ ليل بالدعاء يتهجّدُ
ومن قد علا فوق المنابر موعظاً ... ومن في المدارس والمجالس سيِّدُ
ومن هو قد أدّى الصلاة لوقتها ... ومن هو لله العظيم موحّدُ
متى غاب عز المؤمنين رئيسهم ... ومن لهم عند الشدائد يعضدُ
فاعلن محراب الصلاة مضى إلى ... جوار إلٰه العرش لا يتردَّدُ
سماَ الملأ الأعلى فسآء فراقه ... أحِبَّته إذ راح يعلو ويصعدُ
وخلفني والحزن بعد قفوله ... أديم البكا والدمْع جارٍ يؤبَّدُ
فهل مسعد لي بالعزآء بمن له ... ملائكة الرحمن تنعى وتنشدُ
وكيف لا تبكيه وهي له غدت ... لخدمته تسعى جلالاً وتحفدُ
فيا لك رزءً قل والله لو جرى ... له من أماقي الخلق درٌّ منضّدُ
فكم من ولي ظل حيران هائماً ... يقوم على جمر الغضاء ويقعدُ
مذاب الحشا من يوم سار بريده ... يجد السرى نحو الكويت ويجهدُ
فلله من يوم لها جآء طارقاً ... بموت أبي خمسين عصراً يؤكّدُ
أصاب قلوب الأولياء بمصيبة ... تكاد لها صم الصفا تتقدَّدُ
مصاب لعمر الله منه تنفست ... نفوس الموالي لُهّفاً تتوجّدُ
فوا سوء حال الضائعين فمن لهم ... عقيب دليل الحق للحق يرشدُ
فيا رب فاحفظهم براع يحوطهم ... بجودك من يحنو عليهم ويعضدُ
أطلتُ وقوفي عند بابك راجياً ... فأيِّدْهُمُ يا رَب أنت المؤيِّدُ
بحق النبي المصطفى بالذين هم ... جميعاً هم من نوره قد تأجّدوا
علي وزهرا والزكي الذي غدت ... حشاه بطشت كبده تتبدَّدُ

وبالفرقد السبط الشهيد الذي له ... على الطف جسم بالدماء مجسَّدُ
معرّى ثلاثاً بالعرا وكريمه ... على رأس رمح للعوالم يمددُ
ونسوته أسرى على قتب المطا ... سبايا وزينُ العابدينَ مقيَّدُ
فوالله لولا حلمه ووجوده ... لكان جميع الكون كالزرع يحصدُ
نسيم الصبا أن جئت سينا فقف على ... مقام هو العرش العظيم المحدَّدُ
وقبِّل ثرى ذاك المقام فإنه ... لفي لحده ذاك الإمام ملحَّدُ
وسلّم عليه واستلمه معظِّما ... مليكاً به الأملاك لله وحدوا
وقل يا محيطاً بالعوالم عالماً ... بما قلته من قبل نطقي وتشهدُ
علمتُ بم الاقى الحسين بكربلا ... وفيها عليه آل حربٍ تمرّدوا
وفي يده ذات الفقار ورجعُه ... كمثل رعود بالصواعق يرعدُ
فللّه من فرد يحامي ولا يُرى ... حميٌّ يُحامي مثله وهو مفردُ
فما مثله يوم الوغى قَسَماً بمَن ... براه الذي يُعنى بإيّاك نعبدُ
سوى المثل الأعلى ومظهر رميه ... بيوم الوغى والروس تهوي وتسجدُ
محى ما يشا منهم نعم لو يشاء شا ... ولكن على ما شاء يُردي ويورِدُ
وأعجب شيء أنه مصدر القضا ... فكيف القضا أرداه وهو له يدُ
وكيف هوى والأرض لم تهوِ والسما ... وكان لها نِعم العماد المشيَّدُ
ثوى بالعرا يا ليتني دون خدِّه ... على حُرِّ وجهي في الثراء أُوَسَّدُ
أطار الكرى عن مقلتي حمامة ... به هتفت والناس بالليل هُجَّدُ
وحامت على وادي الغري وأيقظت ... وقد رجَعت بالشجو صوتاً تُغرِّدُ
وناحت على قتل الحسين وصحبه ... وأدمعها فوق الخدود تُخدِّدُ
فقمت اشتياقاً بالكآبة باكياً ... أعي ما تقول الناعيات وتنشدُ
وقلت لمن يهواه إن كنتَ صادقاً ... تيقّظ خليلي كيف طَرفك يرقُد

وقُم بالعزا عَزِّ النبيَّ وآلَه ... فإنّ عزاهم في العزاء تمجُّدُ
تسلَّ بهم فالخطب حَرّ اتِّقادُه ... بذكر رزاياهم يهون ويبردُ
وكل امرؤ عن هذه الدار راحلٌ ... وهيهات أنّ المرء فيها يخلَّدُ
فلا خير في دنيا ولو أنها صفت ... فما الصفو إلا وهو فيها منكَّدُ
فكيف وفي ذي القعدة الشهر ما مضى ... سوى خمسة إلاّ ونوحُ يردِّدُ
على فقد من قال فيه مؤرِّخاً ... مضى علم العلم البهيِّ محمَّدُ
توارى بآفاق اللحود كأنّه ... هلال توارى نوره المتوقِّدُ
فإن غاب عنا شخصه بافتقاده ... فعين ضياه في الحقائق توجدُ
فيا شيخنا عبد الحميد ابنَ شيخِنا ... تعزّ وعزِّ كل من هو أمجدُ
من الأهل والإخوان والصاحب الذي ... لكم تهتوي قُرباه لا يتبعّدُ
وإليك ثكلي في ثياب من الأسى ... إذا قُرِأت تلقى الأسى يتجدَّدُ
تُسَلّي ذوي الحسنى بنشرٍ وإنّها ... لَتُملي ذوي الشحناء غيظاً وتكمدُ
عليكم سلام الله ما انسكب الحيا ... وما لاح في وجه السماوات فرقدُ

القصيدة السادسة

ورثاه متفجّعاً ومؤرّخاً بالقصيدة التالية، مثبتاً يوم الوفاة وشهرها ثم السنة، وقليل من الشعراء من يفعل هذا الصنيع، فجزاه الله خيراً لولاه لم نعرف يوم الوفاة بالتحديد..! فلنبك معه الراحل العظيم:

لسفيرِ العُلما ابنِ العَلَمِ ... مستَقَرٌّ عند ربِّ الحرمِ
صحبَ الدنيا بجسمٍ روحُهُ ... لِلمَلاَ الأعلىٰ سمَت بالعِظَمِ
لست أنسىٰ لمزاياه التي ... شملت للعُربِ حتّى العجمِ
أوَ أُحصيها وهيهاتَ بأن ... يحصيَنْها بعد عجزي قلمي
ومتى رُمتُ اجتِنا أيسِرها ... تتجلّى دُرراً بالحِكَمِ
نِعَماً فاز بها محمَّدٌ ... مقتدانا يا لها من نِعَمِ
عَلَمٌ أكرِمْ به أينَ بدا ... إن بدا أكرِمْ به من عَلَمِ
حبذا شيخٌ جوادٌ وَجَدت ... فضلَه الوُفّادُ لم ينعَدِم
إنّه خيرُ كريم عَرَفت ... يدُهُ الأكرامَ قبلَ الفِطَمِ
فاضلٌ والعلمُ منه شاملٌ ... كلَّ من قَدْ أَمَّهُ ذا هِمَمِ
هو للإسلامِ طودٌ شامخٌ ... بل وللأيمانِ وافي الذِّمَمِ
ما جرىٰ مِن فيهِ لغوٌ باطلٌ ... ما روىٰ إلا صحيح الكَلِمِ

جاءه الداعي فلبَّى مُسرِعاً ... طائعاً لله مولى الأُمَمِ
ساءتِ الأحبابَ إذ قيل قضىٰ ... من لظاها المصطفىٰ خيرُ سمّي
قد عدا من ثاني فطر خمسة ... تلك من شهر شهور الحُرُمِ
فدعا يومئذٍ تاريخُه ... فاز بالخُلدِ كريمُ الكرمِ
نال في الجنَّاتِ أعلىٰ منزلٍ ... حولَه وِلدانُها كالخدَمِ
إنّه ضيفٌ على ربِّ السَّما ... وجزا الضَّيفِ قِرآءُ النِّعَمِ
بدرٌ تَمٌّ للهدى أإن جرى ... مِن عِداه غير ملقي السَّلَمِ
عجباً كيف اختفى في جدَثٍ ... مَن غدا مصباحَ كشفِ الغُمَمِ
لكنِ الأُسدُ فما آجامُها ... غيرَ مجدٍ يا له من أجَمِ
جاء في الأخبار موتُ العُلَما ... ثلمةٌ في دين بيتِ الحِكَمِ
أيُّها الإخوانُ نوحوا إنَّه ... كَنَدىً للفُقراء منسجِمِ
والأيامىٰ واليتامىٰ لهُمُ ... عاطفٌ مثلَ أب بينَهِمِ
فقدُهُ عند الأحِبّا مُذْ أتىٰ ... قد رمىٰ آذانَهم بالصَّمَمِ
بدت البيضاءُ لاَ ضوءَ لها ... يومَها عاد كلَيْلٍ قَتِمِ
يا لَهُ يومٌ مشومٌ قد كسا ... كلَّ يومٍ بالأسىٰ المُصطَلِمِ
شمسُ علمٍ غربَت إذ خلَّفت ... دراً أعزِزْ وأحسِنْ بِهِمِ
خلفاً يا خلفاً من خلفٍ ... وحِمىً نِعمَ حِمىً بعدَ حِمِي
قدَّس الله له النفسَ التي ... أُوتِيَت من كلِّ فضلٍ عَمَمِ
عاش في الناسِ حميداً عيشُهُ ... وسعيداً وصفَهُ لا تَرُمِ
ما يُقالُنَّ بوصفٍ عالِمٌ ... خيرُ هادٍ حاكمٍ بل حَكَمِ
مؤمنٌ دونَ معاني وصفِهِ ... طائرُ الوهمِ به لم يَحُمِ
حقّ أن نندب قطباً عالياً ... في المعالي ثابتاً للقدمِ

لو بكينا والبرايا كلُّهُم ... وجرَت أعيُنُنا كالدِّيَمِ
ما وَفَيْنا بعضَ ما كان له ... من حقوقٍ لا وباري النَّسَمِ
كيف نقضي ببكاءٍ حَقَّهُ ... والسَّما تبكي عليهِ بِدَمِ
أيّها القاصدُ قبراً نيِّراً ... بمنارٍ عالياً مُحْتَرَمِ
إنّه للقاصدينَ كعبةٌ ... طُفْ عليهِ سبعةً واستَلِمِ
ثم سَلِّمْ وانتَشِقْ من تُربِهِ ... تجدِ المسكَ به والتَسِمِ
قائلاً كيف دُفِنتَ ها هنا ... أنت يا رُكنَ مقامِ الشِّيَمِ
إنَّما حقُّك أن تُدفنَ في ... طيِّ أيوانِ الطفوفِ الفَخِمِ
عند مولاك الذي لولاه لم ... يكنِ الكون نَشا من عدمِ
الحسينِ ابنِ الوَصيِّ المرتضى ... شرفِ عرشِ الله سامي الدعمِ
لكنِ السرّ خفيٌّ لو ترى ... كنت في أيوانِهِ المنتظمِ
جنبَ قبرِ السيِّدِ المرحومِ مَن ... لك أستاذٌ بدرسِ الحِكَمِ
وعلىٰ قبرِك أملاكُ السما ... تقرأُ الذكرَ هنيئاً لَهُمِ
فزت بالفردوسِ فوزاً دائماً ... لك فيها ما تشا فاحتكِمِ
أنت لا خوفَ عليك لا ولا ... حزنَ في مجتَمَع للخصمِ
لكنِ الخوفُ علينا سيِّدي ... من أناسٍ شُحِذت لِلخدمِ
حسبَها نارُ وقودٍ أُلهِبَت ... تتلظّى باللَّظىٰ المضطرمِ
إذ أقامت في عَماها شِقوةً ... والهدىٰ فيه له لم تَقُمِ
جِهلت في الجاهلينَ قدرَكُم ... حيثُ لم توفِ لِعَقدِ الذَمِمِ
وعليك اللهُ صلّى ما بقي ... لك عِلمٌ مُثْبَتاً بالقلمِ
شيخنا عبدُ الحميدِ يا ابنَ مَن ... ذكرُهُ كان غذاءَ النَّسَمِ
عظّم اللهُ لكم أجرَكُمُ ... ولكم ضاعفه في القِسَمِ

وعليكم بالعزاءِ في العَزا ... والتأسِّي بؤُلاة الأُمَمِ
واذكروا رزاءَ لا مِثل لَها ... أبداً في الكونِ حلَّت بِهِمِ
والدُّنا دارُ بلاءٍ وابتِلا ... لِذوي الإيمانِ يا ذا الفَهَمِ
أنت كهفُ مَن بِكم لاذ نجا ... وكُفي من شرِّ يومٍ صَلِمِ
نسأل الله بأسماهُ التي ... عنده استخلصها في القِدَمِ
إن يرىٰ شخصُ عُلاك قيِّماً ... في مقاماتِ أبيك العَلَمِ
أنت يا ذا الجودِ داوِ داءَنا ... لا دَوا غيرَك مُشفي السَّقَمِ
يا سليلَ العالِمِ العلاّمِ خُذْ ... ما به فاه من النطقِ فمي
واعذُرِ الصحَّافَ واسمَحْ أن ترى ... خللاً ما بين نظمِ الكَلِمِ
وصلاةُ اللهِ تغشىٰ المصطفى ... وبنيهِ عصمةً المعتصِمِ
وعلى شيعتِهِم أهلِ التُّقىٰ ... ومُوالي ناشري فضلِهِمِ
ما استضاءَت بهِمُ الشمسُ وما ... أشرق البدرُ بداجي الظُّلَمِ
وسلامٌ يتهادىٰ خصَّكُم ... من إلٰهِ العرشِ لم ينحَسِمِ
ما تغنّى بلبلُ القدسِ علىٰ ... شجرِ الخُلدِ بأزكىٰ النَّغَمِ

القصيدة السابعة

وكتب هذه الأبيات المنسابة من القلب لتحلّ في القلب كما يُقال في حياته بعدما أرسل المترجَم مصنّفه القيّم [مفاتيح الأنوار] إلى الكويت حيث يُقيم الشاعر مع أهله وذويه، فجاءت القصيدة تقريضاً للكتاب ومدحاً للكاتب، ثم داهمهم نبأ وفاته فأتمّها راثياً بقوله:

تقرّبْ إلى اللهِ باري النَّسَمْ ... بما يرتضي واعتقِدْ بالحِكَمْ

كنوزُ علومٍ إلٰهيَّةٍ ... مفاتيحُ أقفالِها لم تُرَمْ

ولكنْ مصابيحُ أسرارِها ... تضيءُ بإشراقِها في الرُّقُمْ

تجلّى وأنوارُ آثارِها ... لآثارِ رحمَةِ ربِّ الأُمَمْ

خفيُّ معاني بيانٍ حوَت ... أبانَ لهُنَّ هُدانا العَلَمْ

أبونا الذي جدَّ في بِرِّنا ... ومَن كان فينا حفيظَ الذِّمَمْ

أبو الجسمِ والروحِ والنفسِ بل ... أبُ القلبِ والعقلِ عَيْنُ الفِهَمْ

أيا مخلصَ الحب فانشُرْ ثَناه ... فإنَّ ثَناه شِفاءُ السَقَمْ

ألَم تدرِ أنَّ قُوىٰ عَزمِهِ ... بركنِ التزامِ الشعورِ التزَمْ

أطِلْ نظراً كيف جار الزمانُ ... علىٰ ركنِ دينِ الهُدىٰ فانثلَمْ

وهدَّ قوائمَه في الثَّرىٰ ... ودكَّ له طودَ عزٍّ أشَمّ

وأبكىٰ الولاةَ الحُماةَ التي ... تَفَانَوْا جميعاً بخَطبٍ أَلَمّ
هل العيشُ يحلو وأهلُ الهدىٰ ... مَضَوْا كلُّهُم بينَ قتلٍ وسَمّ
وكلُّ شريفٍ حذا حَذْوَهم ... هو المُبتلىٰ لا لِجُرمٍ جَرَمْ
ولا لِهَوانٍ به بل عُلًى ... تفكَّرْ بما قد جرىٰ بالقلَمْ
عشيَّةَ يومٍ غشىٰ فادحٍ ... فحامَ على الناسِ حتى هجَمْ
فقيلَ فماذا..؟ على غفلةٍ ... سرىٰ في القلوبِ به كلُّ غَمّ
فهل عالِمٌ عامِلٌ مات..؟ أم ... قضىٰ مِلكٌ عادلٌ في الأُمَمْ
وَمَنْ ذا له الشمسُ قد كُوِّرت..؟ ... وتبكيه عينُ المعالي بدَمْ
أَعلاَمةُ العُلما شيخُنا ... ومن هو مصباحُنا في الظُّلَمْ
نعَم قد قضىٰ وله مَأثَمٌ ... أُقِيمَ بلا مللٍ أو سَأَمْ
فوا أسفاهُ وحُزناً على ... منارِ الهدايةِ كيف انهَدْم..؟
فتَلْفُ النفوسِ على مثلِهِ ... قليلٌ ولو تَلِفَت لم تُلَمْ
وكيف ومِمَّا بدا بالشَّجا ... له من دواعي شَجَاه وجَمْ
كأن السرورَ به قد قضت ... نجائبهُ والهنَا لم يُشَمّ
قضىٰ ومضىٰ غائبٌ في ذُرىٰ ... جوارِ الإلٰهِ الذي لم يُضَمْ
ولكنَّ إحسانَهُ لم يزل ... ومعروفُهُ عِقْدُهُ مُنتَظَمْ
أليس به الفضلُ ضافٍ على ... رعاياهُ من عُربِها والعجَمْ..؟
سل الشيخَ عبدَ الحميدِ ابنَه ... وشيخَ التُّقى طاهراً ذا الكَرَمْ
يُجيبك عنه وعن فضلِهِ ... وعمّا أعمَّهما من نِعَمْ
محمَّدُ يا مَن له لم تَزَلْ ... مَوالِيهِ في الأمرِ كانوا خَدَمْ
كفى بِهِما لك من شاهدَيْنِ ... فمعْ ذَيْنِ شرعاً سقوطُ القَسَمْ
أقولُ على رغمِ بعضِ الورىٰ ... مقالاً كشُهبٍ لها قد رَجَمْ

لِـدُرِّيِّ قُـدسٍ تـجـلّـى بـهـاءً ... جـلالُ جـلالـتِـهِ بـالـعِـظَـمْ
حوىٰ الحكمتَينِ ومَن قدحوا هـ ... ـما منه فاز بِخَيرِ النِّعَمْ
حكيمٌ ولم يَعْدُ في حُكمِهِ ... عن الحكمِ في الحكمِ لمّا حكَمْ
فنِعْمَ أميناً بما قد قضىٰ ... وفي ما نوىٰ لم يكُنْ مُتَّهَمْ
ولا جارَ يوماً بسلطانِهِ ... على الناسِ حتى يقولوا غَشَمْ
عرا المُلكَ مِن فقدِهِ حَيرَةٌ ... بِعامٍ على الأرضِ بالنَّقصِ عَمّ
وكلٌّ بريدٍ نحا موضعاً ... رمى منه أسماعَه بالصَّمَمْ
وحلَّ به خللٌ في استوا ... بيومٍ أُقِيم عليه النَّدَمْ
حكى البدَر والناس إن تمتحن ... عراه الخسوف إذا قيل تَمّ
عسى فرجٌ مِن إلٰهِ السَّما ... يَمُنُّ بتفريجِ هٰذي الغُمَمْ
يُعيدُ الجميلَ بألطافِهِ ... بأفضلِ خيرِ العطا والقِسَمْ
لعلَّ ابنَ صَحّافِ صُحفِ الولا ... عليّاً يرىٰ نورَه حيث أَمّ
ألا مُبلِغٌ عن فتىً نازحٍ ... غريقٍ بالآءِ بحرٍ خِضَمّ
يؤدِّي الأماناتِ مهما أتى ... مدينةُ هَجرٍ سقتها الدِّيَمْ
ويقصدُ بيتاً تباهت به ... بيوتُ المعالي رفيعُ الدَّعَمْ
فإنَّ به مِلكاً عيلماً ... عليماً بأحكامِ عِلمِ الحِكَم
به عالمٌ مقتدٍ مقتدىً ... هدىٰ مهتدٍ مُقتَدىً محتشَمْ
به الشيخُ عبدُ الحميدِ الذي ... هو العابدُ الماجدُ المحتَرَمْ
ومَن خِيلَ من حُسنِهِ كُلَّما ... تعلَّقَه ذو الهمومِ ابتسَمْ
كبدرٍ أضا بعدَ شمسِ الضُّحىٰ ... بِلَيْلِ البهيم يشفُّ البُهَمْ
فأكرِمْ به جوهراً مُفرداً ... بدا بالجمالِ بنورِ الوَسَمْ
خلعنا نفوساً لدىٰ بابِهِ ... بحيثُ خَلعنا نِعالَ القَدَمْ

ألا يا خليلي حظيتَ المُنى ... فليس سِواه المرامُ الأهَمّ
فقبِّل هنالك وجهاً زكىٰ ... وطابَ بتقبيلِهِ كلُّ فَمْ
وسلِّمْ عليهِ وعظِّمْ له ... جناباً عظيماً وألقِ السَّلَمْ
وقُل عظَّمَ الله في ما مضىٰ ... لك الأجر يا عَلَماً في الظُّلَمْ
تعزّ فإن إلٰهَ الورىٰ ... على ما بَرا بالممات حَتَمْ
عزيزٌ على ذِي الولا موته ... وإن كان في لوحِهِ مرتَسَمْ
فلِلموتِ في الخلقِ قوسٌ به ... نِبالُ القَضَا بالردىٰ تتَّسِمْ
فكيف وكلُّ امرىءٍ هالك ... بأمر الإلٰه وجفَّ القَلَمْ
ولا حيَّ يبقى سِوىٰ وجهِهِ ... الكريم فلا يعتريه العَدَمْ
تسَلّ فكلُّ شعاعٍ له ... مقامٌ به في عُلاه انتَظَمْ
وإن أباك سمَّي العُلىٰ ... لَفي ظلِّ كعبةِ بيتِ الحَرَمْ
قريرُ العيونِ عياناً يُرىٰ ... وأنت الفتىٰ سِرُّهُ المُطْلَسَمْ
ومَن يطلُبِ الرشدَ في دينِهِ ... فأنت الملاذُ ومأوىٰ الشِّيَمْ
وأنت اللَّجا والرَّجا المرتجى ... إذا حلَّ في الدهرِ كربٌ وطَمّ
وأنت الغياثُ الذي سَيْبُهُ ... ندىً يستمدُّ به كلُّ يَمّ
وأنت الجوادُ الذي قصَّرَت ... أولوا السبقِ عن سبقِهِ بالهِمَمْ
ومَن قصبُ السبقِ قد حازها ... بِذَرِّ امْتيازِ جميعِ الأمم
وبالحقِّ للحقِّ سَلِّمْ له ... حقيقَ كواهِلِهِ تستَلِمْ
فطوبىٰ وربُّ السَّما اختارَهُ ... نعَم واجتباهُ بذلك القِدَمْ
وألبسَه تاجَ عزٍّ حوىٰ ... جواهرَ قُدسٍ بِهِنّ انتظَمْ
أَرَبَّ السَّما كن له راعياً ... بِعَينِك تلك التي لم تنَمْ
عليه سلامُك يا ذا العُلىٰ ... سلاماً سليماً زكيّاً أَتَمّ

أبوه السعيدُ فيَا سُعدَهُ ... له أين كان ثباتُ القَدَمْ
كفىٰ باسمِهِ عَلَماً مُثبَتاً ... مع العُلَما يا لَهخ مِن عَلَمْ
مضىٰ فائزاً بجوارِ الإلٰهِ ... وخلَّف كُتْباً وعِلماً أعَمّ
وأبناءَ كالشُّهْبِ لكنّهم ... على فقده بين غَمٍّ وهَمّ
لذا قال قاتلُ تاريخِهِ ... (ألا فاندبوا غاب زاكي الحِكَمْ)
(٣٢ + ٤٤ + ١٠٠٣ + ٣٨ + ٩٩)
= ١٣١٦هـ

القصيدة الثامنة

وقال في مديحه تلميذه المحبّ المخلص، الشيخ أحمد بن علي بن محمد الصحاف، الأبيات التالية وتكاد تنطق بلا صوت، وكأنها لوحة فنية مصيوغة بألحان موسيقية:

يا بدرَنا الهادي الدليلَ إلى القِرىٰ ... يـا مَـن بـأبـرادِ الـعُـلاءِ تـأزَّرا

يـا معدنَ الـعلـمِ الـذي لا يـنتهي ... عـدّاً وحـدّاً جـلَّ عـن أن يُـحصَـرا

لك طلعةٌ فاقت على شهبِ السَّما ... فكأنَّها الصبحُ الذي قد أسفرا

لا زلـت مـن مـدِّ الإلٰـهِ مـؤيَّـداً ... وبـروحِ قُـدسٍ مـن عـطـاءٍ مُـغـمَـرا

فلذا جرىٰ فوق الفؤادِ مترجِماً ... قلمُ البيانِ يخطُّ عن ربِّ الورىٰ

من حكمةِ التوحيدِ والأسرارِ والشـ ... ـرعِ الـعـليِّ فـكـان ذلـك مـصـدرا

يـا نـيِّـرَ الأخـلاقِ والـطـورُ الـذي ... سـام عـلىٰ هـامِ الـمجرَّةِ مـفـخـرا

من أنكر الفضلَ الذي قد حُزتَهُ ... فِلشَأنِ أهلِ البيتِ كان محقِّرا

ومن ابتغىٰ وجهَ العليِّ معظِّماً ... حُـرُمـاتِـكـم فـلـهـم يـكـون مـوقِّـرا

القصيدة التاسعة

وبنفس المشاعر تجاه أستاذه ومرجعه في الأحكام، تابع ثناءه المستهام:

فما هو إلاّ نورُ قدسٍ مُعظَّمٌ ... تسلسل من نور مضيىء الأشعةِ
وذلك نورٌ عزّ قدراً لأنّه ... بدا مثل شمس من شعاع الأئمةِ عليهم السلام
فأكرم به من سالك سبلاً لهم ... فحقّق ما قد حقّقوا بالأدلةِ
همام حكيم عالم سند لنا ... حليم كريم موضع للمحجةِ
مقيم بفتواه لدين الهنآ ... ودين موالينا بسرو جهرةِ
وخافض أديان المعادين للهدى ... ورافع دين الله في خير نصرةِ
رئيس لأهل العلم من علمائنا ... فسل عنه أهل الفضل معْ أهل خبرةِ
يجيبوك عنه أنه نعم فاضلاً ... جليلاً وقطباً في العلوم الجليةِ
لعمري لقد حاز الفخار محمد ... ومجداً علا هام العلا والمجرةِ
ورتبته العليا الرفيعة شابهت ... جواهر أولاها شريفة رتبةِ
فجلّت وعزت نفسه بعلومها ... وأعمالها عن كل هفوٍ ووصمةِ
هو القارىء القرآن في الصبح والمسا ... وقوّام ليل للإلٰه بسحرةِ
هو الناسك الصوام مرئى ومسمعاً ... ومقبول حجّ مع فرائض عمرةِ

وتاج لمن لبّى وطاف بكعبة ... وأحسن ساعٍ في الصفا وبمروةِ
وصاحب كتب نيّرات مضيئة ... مقدّسة من علم شرعٍ وحكمةِ
فلله إن كانت عبارات متنها ... كدُرٍّ جلي في أطائب حليةِ
ولا عجباً من شيخنا إذا أفادها ... وصنّفها من فكر قلبٍ وفطرةِ
وأحكمها بالنقل والعقل راشداً ... بتوفيق رب العالمين وقوّةِ
بحيث صفت نياته الغرّ قابلاً ... لأعباء علم باختصاص الطويةِ
فإن إلٰهي يهدي من فيه جاهدوا ... سبيل الهدى من غير شكٍ ومريةِ
وذلك فضل الله يؤتيه من يشا ... وإن ذابت الأحشاء من أهل إحنةِ
وإن جاءه وفد يريد رفادةً ... يجد خير وجهٍ بادياً بالمسرّةِ
وبذل عطايا طيباتٍ أصولها ... بإخراج خُمس والزكاة البهيةِ
جزاه إلٰه العرش خيراً كما رعى ... حُفّاظ ثغور المسلمين فعزّتِ
ولا زال ظِلاً يُستظلُّ بنوره ... معافىً بحمد الله من كلِّ محنةِ
ومعتصماً من شر أعداه كلها ... بحصنٍ حصين بل وأسبغِ جُنَّةِ
ولا برِحت ألطاف ربي تامّةً ... ومُدَّ له في العمر في طيب نعمةِ
وصلّى مليك الكائنات على الذ ... ينهم لوجود الخلق أشرف علّةِ
محمّد الهادي النبي وآله ... مهابط وحي الله أصحاب عصمةِ
وخُزّان علم الله أبواب فيضه ... وصومي صلواتي والزكاة وحجّتي
وسلّم تسليماً شريفاً عليهم ... وشيعتهم أهل المعالي العليَّةِ
متى ما بدت شمس وأشرق بدرها ... ومهما شدا القمريُّ في غصن دوحةِ

القصيدة العاشرة

ونظم القصيدة التالية بمناسبة مقدم ولدي المترجَم، الشيخ عبد الحميد والشيخ طاهر، وقد بلغا في العلم شأناً يُذكر، حيث شارفا على الاجتهاد، فقال مُهنِّئاً:

يا شيخنا يا صاحب المجد الذي ... أحيى المدارك في صلاح شعورِها
أنت المُنى والقصد في غاياتنا ... من كل ما تهواه طول دهورِها
هنّاك ربُّك في قدوم سليلكم ... وسراج بهجتكم وعين سرورِها
العالم المقدام مصباح الهدى ... شمس المعارف بل هلال بدورِها
وحبيبكم عبد الحميد الشيخ من ... طابت مكارمه بطيب سفورِها
قدسيّ نفس قد زكت فصِفاتُها ... تحكي النجوم الزهر عند ظهورِها
وأخيه شيخ الفضل ذلك طاهرٌ ... كهف النجاة وحصن ملجأ سورِها
فهما لعمري حصّلا علماً علا ... قد عرّف العشر العقول بطورِها
من حكمة صمدية ومعالم ... لشريعة سمحاً بكل أمورِها
وأقرّ عينك سيدي بلقاهما ... كقرار عين المصطفى بوزيرِها
وأقرّ عينَيْ كل من والاك يا ... كنز العلوم وفيض نور بحورِها
وأذل من ناواك من أهل الشقا ... وكفاك دأباً من جميع شرورِها

إني على هذي العطايا حامدٌ ... لله رب العالمين مميرِها
حمداً كثيراً ليس يُحصي عدّه ... إلاّ الذي يحيي الورى لنشورِها
قدماً كما هنّاك ربُّك في الذي ... آتاك من حِكم تضيءُ بنورِها
وعلوم أسرار أسرت إذ سرت ... تحيي السرائر بانشراح صدورِها
وعلوم شتّى أبهرت أهل الحِجى ... منها فتاوي الفقه برج قصورِها
ناهيك ما قد قلته في كتبكم ... ذات النجا للخلق يوم عبورِها
أشفت قلوب المؤمنين وإنها ... ترمي العِد بشواظ شهب سطورِها
طوبى لمن أروى بطيب كلامكم ... قلباً له بمنارها وحضورِها
أخذاً بما فيها من العلم الذي ... يحيء الرقائق من مثاقب صورِها
وهو الثنا التوحيد عن مقامه ... للخالق الباري العليم خبيرِها
ومديح آل محمَّد ﷺ من بعض ما ... بيَّنتُمُ من فضلهم بضميرِها
فبها الكفاية في معارف ديننا ... وبيان شرع الدين فرع مُنيرِها
فلذا الذي يقلو سبيل أصولها ... يَصْلى وقود النار وسط سعيرِها
وقلوب من لم يحيها تدوينكم ... أجسادها صارت مثال قبورِها
يا مقتدانا فاقبَلَن هذا الثنا ... من قِنّكم جاني الذنوب أسيرِها
متعطّفاً مترحِّماً متكرّماً ... يا زينة التقوى وروض زهورِها
صلى الإلٰه على وُلاة أموره ... ناموس أعصار الورى وشهورِها
المصطفى معْ آله سر العبا ... تلك التي شملتهم بستورِها
وجميع شيعتهم مبيِّني فضلهم ... والمعجزات قليلها وكثيرِها
ما سبّح الله العظيم مُسبِّح ... أو غرّد الأطيار فوق وُكورِها

القصيدة الحادية عشرة

وقال هذه القصيدة من فؤاد موجوع، وشعور مرهف مفجوع، بعبارات شجية يرثيه ويؤرّخ سنة المصيبة، بعدما صدمه الخبر المشؤوم برحيل أستاذه الحبيب فقال باكياً:

غاب عنا من لنا عِزٌّ وسورْ ... عين أهل العلم بل صدر الصدورْ
عالم بَرٌّ عظيمٌ قدره ... قد مضى للخُلد في در القصورْ
وبقينا بعده في حيرة ... حَزَناً والقلب بالوجد يفورْ
كيف لم نبق حيارى ذُهَلاً ... وهو المحيي لأدراك الشعورْ
في مقام الحزن خلنا فقده ... قد أذاب الشمّ مغْ صُمّ الصخورْ
وبكاه كلُّ مذْروٍّ بدا ... واعترى الجوَّ ظلام وغُيورْ
مَن لنا مِن بعده يكفلنا ... حيث يرعانا ويحمي للثغورْ
يرشد الأيتام للحق الذي ... هو ذخر نافع يوم النشورْ
حَقّ أن نندبه يا صاحبي ... ما بقينا وقُصارانا الحسورْ
إنّ ذا نور الهدى بحر الندى ... قلنا نندبه طول الدهورْ
إنه درٌّ يتيمٌ فاضلٌ ... لإلٰه العرش يا نعم الشكورْ
بالرضا قد سلّم الأمر له ... وعلى تقديره خير صبورْ

حجّة الإسلام مصباح الدجى ... عمَد الأيمان والليث الغيورْ
شيخ أهل الفضل من أهل الحِجى ... ولنا شمس وبدرٌ ثمّ طورْ
قد كفاه شرفاً أنّ له ... قد أجاز السيّد النور بنورْ
إنني لست بمُحصٍ فضله ... ذا المزايا في دواوين السطورْ
كيف أحصي لمزايا نائب ... لهداة تهتدي منها البدورْ
هو مولانا أبو خمسين مَن ... لأب الزهرا سمي ذو حبورْ
في اسمه الأرضي ذو النور الذي ... يعرف الأشياء من غير حضورْ
يا ثقاتي إن أردتم تعرفوا ... يوم إن سار إلى الله الغفورْ
هاكمُ في فقرة تاريخه ... (علَم الحقّ توارىٰ في القبورْ)
(١٤٠ + ١٣٩ + ٦١٧ + ٩٠ + ٣٣٩)
= ١٣٢٥هـ

القصيدة الثانية عشرة

وهذه القصيدة الغرّاء نظمها في تقريض مصنَّف أُستاذه الأوّل، مفاتيح الأنوار ومصابيح الأسرار، فقال مُعدِّداً مزاياه ومُردِّداً:

تجلت بدُرَ المحكمات الجواهرِ ... مفاتيح أنوار العلوم الزواخرِ
وجلت جلالاً بالجلالة إذ بدت ... مصابيح أسرار لها بالبواهرِ
لقد أشرقت منها مطالع ديننا ... وعنها ومنها الخير خير الذخائرِ
فلم تغرُبَنْ منها المطالع دائماً ... يمدّ ضياها نيّرات السرائرِ
فأملأت الآفاق شمساً وأنجماً ... وبدراً وعلماً يا لها من زواهرِ
وعن نيل مرقاها تقاصر فهمنا ... فأين الثريّا من ثراء الأصاحرِ
فما هي إلاّ للكنوز معادن ... لها شهدت أهل العلا والمآثرِ
وصارت لأصلام العلوم مخازناً ... وللحكمة التوحيد روح الضمائرِ
وللحكمة الأخرى فواتح علمها ... وعنها كبا ذو الطب مرءىً بصاغرِ
فلله در العالم العلم الذي ... لها منشىء من مد حكمة قادرِ
ولا عجباً منه فقد كان نائباً ... مناب إمام العصر عند الأكابرِ
نيابته العظمى التي عمّ فضلها ... على كل من ترعى بفضل المظاهرِ
فأعزز به من فاضل وتدٍ بدا ... وقطب الهدى بحر الندى والمفاخرِ

وعلامة الأعلام من علمائنا ... وللسفر الأركان خير مُسامرِ
هو الشيخ عين المسلمين محمد ... نقيباً نجيباً زاكياً في العناصرِ
ومرشد أهل الحق للحق والهدى ... ومنقذهم من هول يوم المحاذرِ
لقد كان نوراً نهتدي بشعاعه ... فغاب وخلى القلب واري الحسائرِ
فيا ليتني إني فداه وقلّ أن ... تكون فداءً مهجتي وضمائري
ولكنّ لله البدا في عباده ... على ما يشا يجري يراع المقادرِ
فلو يعلم النعش الذي كان حاملاً ... لذاك المعلّى في جوار الأطاهرِ
تعلّى على هام السماك لأنه ... له حملت أيدي ملائك قادرِ
ولو يعلم القبر الذي كان ضمّه ... لفاخر فردوس الجنان الحضائرِ
ولو أبصر الأوهام قدر ضريحه ... لعدن قصاراهن حسرى البصائرِ
فمن بعده يحنو علينا بعلمه ... ويصلح أدراك الشعور النواضرِ
ولكن كما قد قال فلذة كبده ... مضى عقلها ماذا بقاء المشاعرِ
إلٰهي وخلاقي وعالَم كلّ ما ... نُسِرُّ ونُبدي من خفيّ وظاهرِ
أجب دعوتي يا ذا العلاء بمن أرى ... خليفة من قد غاب بين المقابرِ
ونائبه أصلاً وفرعاً وحكمة ... وأيّده يا مولاي تأييد ناصرِ
بحق نبي العالمين وآله ... هداة الورى أقمارهم في الدياجرِ
وأسمائك الحسنى التي قد أمرتنا ... نناجيك ندعو في صفات الظواهرِ
ومن قد علوا فخراً وكان فخارهم ... به الفخر موجوداً لدى كل ناظرِ
وهم قبلة نحو الصلاة نؤمُّها ... ومن كان أخطاها فليس بشاكرِ
أقامهم الله العظيم مقامه ... وولاّهم تأمير أمر الأوامرِ
فألبسهم تيجان إكرام عزّه ... كفا ذكرهم مع ذكره في المنائرِ
وناهيك أن العلم صار مشرفاً ... بهم والهدى أضحى مشاد المنابرِ

فيا عزّنا عبد الحميد وشيخنا ... وحقاقة التحقيق يا خير صابرِ
ويا صادق الأقوال علماً مطابقاً ... له عمل مشكور سعي الأواصرِ
فعجل بإرسال المطالبِ كلها ... بحق إلٰه العرش سارعْ وبادرِ
وأوصل أناساً قاصرين فإنه ... وحقّك أمسوا في عظيم الفواقرِ
وإنهم والله لولا إمامنا ... يسددهم أضحوا طعام البواترِ
فأنت رجانا غاية ونهاية ... لما يهتدي بالحق للدين خاطري
إليك ثناء قد زكى بمديحكم ... من المخلص الداعي بصدق المخابر
وتاريخ تصنيف الكتاب مؤرّخاً ... كتاب به كشف العلوم الزواهر
سلام من الله العلي يخصّكم ... ومن يقتدي دأباً بكم في الأعاصر

القصيدة الثالثة عشرة

وكتب الشاعر الأحسائي المهاجر، تلميذ المترجَم الشيخ الفاضل علي بن محمد آل موسى الرمضان، قصائد في رثائه، مُشيداً به وبمناقبه ومما قال فيه:

قضىٰ علمُ الأعلامِ زاكي العناصرِ ... مُميرُ الورى من عِلمِهِ المتواترِ
فيا لك من نورٍ تشعشع وانطفىٰ ... وغُيِّب ذاك النور عن كلِّ ناظرِ
قد انصدع الإسلام يوم وفاته ... وأصبحت الأحكام عبرا النواظرِ
ألا يا عباد الله عِزُّكم انطوى ... فابكوا عليه بالدموع الهوامرِ
بكته السماء والأرض قبل بكائكم ... عليه بدمع من دمٍ متقاطرِ
وشقّت عليه المكرمات جيوبها ... بشدّة وجْدٍ مستمرٍّ مخامرِ
فيا قبره كيف انطبقتَ عشِيّةً ... على بحر علم بالمكارم زاخرِ
خليج ندىً أودعتموه بحفرةٍ ... فيا ليتها محفورة في ضمائري
سرى طِيبه في الأرض حتى تعطّرت ... بعاقبه الأموات وسط الحفائرِ
وصُلّي عليه وهو عن صلواتنا ... غنيّ بتأييد من الله وافرِ
ومن نعشه كادت إلى أفق السما ... تَناوله أيدي النجوم الزواهرِ
ليبقى لها طول الزمان ذخيرةً ... فقد كان من أسنى جميع الذخائرِ

فتُعساً لعين ما جرت عبراتها ... عليه بقلب من جوى الحزن طائرِ
تُذكّرني رؤياه مسجدَه الذي ... بناه لوجه الله غير مُحاذرِ
إذانظرت عيني محل سجوده ... بمحرابه الأسنى تذوب مرائري
له انتحب المحراب والمنبر الذي ... له كان أعلى من جميع المنابرِ
فلولاه ما قامت لنا قواعد مسجد ... لنا يا ذوي الحِجى وأهل البصائرِ
فقولوا لمن واروه في قعر لحده ... بأنَّ به قد حلّ عقد جواهرِ
وفيه انطوى التوحيد والعلم واحتـ ... ـوت صفائحه سنى جميع المفاخرِ
قد اغبرّ وجه الأفق عند خروجهم ... به من حماه مغْ بكاً متكاثرِ
وخمش وجوه وانتحاب وعولة ... وإهراق دمع من أماقي المحاجرِ
وذاك قليل كان منكم لفقدكم ... سراجكم الأسنى بداجي الدياجرِ
تلقّته حور العِين قبل وصوله ... لحفرته من ربِّه بالبشائرِ
إلى رحمة الله قبر تضمّن شخصه ... بصوب من الرضوان والعفو هامِرِ
فعمّا قليل يعرفون مقامه ... ويذكر ما منه جرى كلّ ذاكِر
ولكن بحمد الله أعقب بعده ... رجالاً هم مثل النجوم الزواهِر
فهم خمسة كانوا جميعاً جواهرا ... لما فيهم من حسن خلق مسامرِ
كبيرهم في السنّ عيسى وناصر ... وعبد الحميد الطهر زاكي العناصرِ
كذلك فرع الجود والمجد صالح ... وطاهر يا نعميْن من ذكر طاهرِ
بني المجدِ اطْفوا حرَّ نارِ مُصابكم ... بذكراكم ما حلّ في يوم عاشرِ
على عِترة الهادي النبي محمد ... من القتل عدواناً وسلب حرائرِ
وإحراق أبيات وهتك محارم ... ونهب عقود وانتزاع أساوِر
ورضّ جسوم كالشموس على الثرى ... بوطي من الجرد العتاق الضوامرِ
وتشهير أطفال يتامى ونسوة ... مهتّكة الأستار فوق الأباعرِ

سوافر لكن أسدل الصون والحيا ... عليها غطاً كالخدر عن كل ناظرِ
أحالت بجاري دمع ماء عبراتها ... رحاب الفضا مثل البحور الزواخرِ
عزيز على الهادي النبي دخولها ... بربع يزيد الرجس نسل العواهرِ
يسرِّح فيها الطرف طوراً وتارةً ... يسبّ أباها فوق روس المنابرِ
عليه من الرحمن لعنٌ مخلّدٌ ... مدى الدهر معْ آبائه غير قاصرِ
وأزكى صلاة الله تغشى محمداً ... مع العترة الغرّ الكرام الأطاهرِ

القصيدة الرابعة عشرة

وله رحمه الله تعالى في تعزية الشيخ عبد الحميد، والشيخ طاهر والحاج عيسى وإخوانهم بوفاة والدهم المترجَم قوله:

لكُم عظَم الرحمن يا أبحُر البِرّ ... بوالدكم شمس الورى وافر الأجرِ
دعاه إلى أعلى المراتب ذو العلى ... فراح إليها وهو في غاية البشرِ
غدت بعده الأحسا التي قد زانها ... وعطّر أرجاها كلَيْلٍ بلا فجرِ
توارى وأورى بعده في قلوبنا ... لواعج تبريحٍ أحرّ من الجمرِ
فحقّ لعين العلم تبكي له دماً ... ولو أنّها في جمر أدمعها تجري
لقد غاب عنا بعدما انسدل الدجى ... علينا جميعاً ذلك الكوكب الدرّي
ناحت عليه قبلنا أنجم السما ... وفاضت دماً حزناً له أدمع البدرِ
وقد لُفّ في الأكفان والجوّ حالك ... من الحزن والأفلاك أدمعها تجري
فحين على الأعواد قد شيل أُسبِلت ... عليه أماقي الشمس بالأدمع الحُمرِ
فلما احتواه القبر وانسدّ بابه ... بكته السم اوالأرض والناس لا تدري
وروّي ثرى مثواه حين تناثرت ... دموع عيون المحدقين على القبرِ
لقد غسلوه وهو قد كان طاهراً ... غنيٌّ عن الماء القراح مع السدرِ
متى قيل أن البحر ينجس غمره؟ ... وقد كان بحراً بل أجلّ من البحرِ

ولكن غسل الميت حكم على الورى ... جميعاً كما قد جاء في محكم الذكرِ
تناسيتم ذاك الخيال الذي مضى ... إلى جنة الفردوس منشرح الصدرِ
ويا طالما أحيا القلوب بوعظه ... كذلك يحيى الروض من وابل القطرِ
فيا لك من يوم علينا مصابه ... لمن فيه فارقنا أمرّ من الصبرِ
قد استقبلتنا دهشة بعد دفنه ... من الحزن خلنا أنها دهشة الحشرِ
تكدّرت الأحكام من بعد ما صفت ... به واغتدى الإسلام منقصم الظهرِ
نحَتْهُ المنيّة وهو بحر من الندى ... وما خلت أنّ الموت في جسمه يسري
ولكن قضا رَبِّ السموات نافذ ... بحكم وتدبير علّى العبد والحُرِّ
ستذكره الأعياد والجُمَع التي ... ينبِّهنا بالوعظ فيها وبالزجرِ
فلو يقبل الموت الفدا عنه بالرضا ... فديناه بالأولاد والمال والعمرِ
فلا تفرح الحسّاد يوماً بفقده ... فإنّ أبناه كالأنجم الزُّهرِ
فإنهم كانوا عزىً وسلوةً ... لنا بعد إطفا ذلك الكوكب الدرّي
أزادهم الرحمن عِزّاً ومنعةً ... ومجداً وإقبالاً إلى آخر الدهرِ
وأبقى لنا مصباح أبنية الهدى ... محمد بن عيثان أب الجود والفخرِ
ألا يا عباد الله جَمعاً تذكّروا ... مُصاب مواليكم بني المطهّر الطهرِ
فكم لهم في عرصة الطفّ قد ثوى ... على الترب مرعىً للصوارم من بدرِ
وكم فرقد من ولد فاطمة غدت ... تقلّبُه أيدي الجياد على الوعرِ
وكم من رضيع شلّ سهمٌ وريدَه ... فخرّ على الرمضا ومنحره مَبْريّ
وزينب تدعو بافتجاع وصرخة ... ألا أين آساد العرين بنو فهرِ؟
يرون حسيناً مع بنيه وصحبه ... على الترب مرعى البيض والنبل السمرِ
وفوق المطايا سُيِّرت خفراتهم ... إلى الشام أسرى بين أيدي بني صخرِ
ورأس زعيم الكائنات على القنا ... يُطاف به من كل قطر إلى قُطِر

ومن خلفه السجاد غُلّت من القفا ... يداه بقيدٍ وهو في غاية الضُرِّ
ينادي الأعادي ويلكم قد تقطّعت ... مفاصل أعضائي من القيد والأسرِ
وليس إذا نادى يُجيب نداءه ... هناك مجيب غير بالضرب والزجرِ
بني المصطفى الهادي النبي مصابكم ... أذلّ رقاب المؤمنين إلى الحشرِ
إلى أن نرى المحجوب عن أعين الورى ... يقوم بأمر الله بالعزِّ والنصرِ
فتى يهبط الروح الأمين من السما ... إليه بأجنادٍ وألويَةٍ خُضرِ
يشيِّد ربع الدين بعد اندراسه ... ويجتثُّ آساس الضلال من القعرِ
وعليه وآباه التحية والثنا ... من الله ما إن سحّ صوب من القطرِ

القصيدة الخامسة عشرة

أُلقيَت هذه القصيدة الغرّاء في الحفل التأبيني الذي أُقيم بمناسبة مرور قرن من الزمان على رحيل مترجمنا. وقد مرّت الإشارة إليها في الصفحات الماضية، أمّا الشاعر فهو أحد أكبر شعراء الأحساء المعاصرين، وهو الحاج محمد بن المرحوم الحاج حسين الرمضان[1] المعروف بولائياته الثرّة. وها

---

(١) هو الحفيد الثالث للمرحوم العلاّمة الشيخ علي آل رمضان، وُلِد في الهفوف سنة ١٣٥٠هـ، وتعلّم القرآن والكتابة من خلال الكتّاب وهو دون العاشرة، ثم انتقست عائلته إلى البحرين فدرس بها عدّة سنوات من الابتدائية ليعود في كنف العائلة إلى الأحساء ثانيةً مُلازماً خاله الشاعر الكبير الملاّ موسى بن علي آل رمضان ومستفيداً من أدبه وشعره، ومُقبلاً على كتب الفن والأدب ودواوين الشعر.

وفي سنة ١٣٦٣هـ زار العراق وما لبث أن عاد إلى الأحساء بعد وفاة والده، فلازم بعض المشائخ وأخذ عنهم، وازداد شغفه بالقراءة واقتناء الكتب وأقبل على المجلات العربية التي تهتم بالشعر والأدب والتراث، كالعرفان والأديب وصوت البحرين. وفي سنة ١٣٧١هـ هاجر إلى البحرين وتوطنها بعائلته، وفيها تابع الحركة الأدبية في الوطن العربي، ثم توجّه منها إلى العراق عام ١٣٧٤هـ ليعود أدراجه إلى البحرين في عام ١٣٧٥هـ، وفي محرم من ١٣٧٦هـ زار العراق والشام، ونوى الإقامة في الأخيرة لولا حصول العدوان الثلاثي على مصر، إذ عاد إلى بغداد ثم البحرين.

وفي شعبان ١٣٧٧هـ رجل إلى الجمهورية العربية السورية وأقام في دمشق، وبقي مقيماً فيها إلى عام ١٣٩٤هـ، حيث عاد إلى الوطن واستقر في مدينة الدمام، وله العديد من المؤلفات منها كتاب الأمثال وهو أمثال شعبية، وشرح قصيدة جده «خير الوصية»، وكتاب «التعريف بآل رمضان»، وقد نظم الشعر مبكراً منذ سن الرابعة عشرة، ولكنه لم يطبع أول مجموعة شعرية له إلاّ في سنة ١٣٨٥هـ «بعنوان مائدة رمضان»، كما له كتاب «الفاطميات»، وهي سبع قصائد كتبها في سيدة النساء فاطمة الزهراء ـف وقد نُشرت في مجلة المواسم العدد ٩ و١٠ الصادر سنة ١٤١١هـ، وللشاعر مشاركات بارزة في الأنشطة الأدبية والثقافية في البلاد، حيث يُعد من أبرز شعراء المنطقة المعاصرين.

هو هنا يتغنّى بأمجاد موطنه الأحساء مُعدِّداً الجواهر الإنسيّة التي تُزيّن تاج الفخار الذي ازدان به جبين البلد.. وهي بعدُ ليست بحاجةٍ إلى التعليق:

أيّ غبنٍ باءت به الأحساءُ ... وهي الحرّةُ التي لا تُساءُ
يُذكر النخل والتمور وتنسى ... من بنيها رجالها العظماءُ
والبلاد الرجال لا الأرض والـ ... ـزرع وإن فاض خيرها والثراءُ
والرجال العقول تستنبط الـ ... ـعلم وتسري وهمُّها العلياءُ
حملوا مشعل العلوم وأثرَوها ... وخاب والتجهيل والجهلاءُ
فإذا فاخرت بأهرامها مصر ... فأهرام أرضنا العلماءُ
تلك عند التحقيق أكوام أحجار ... وهذي فيها الهدى والعطاءُ
فاسأل العلم عن غوالي اللآلي ... فلها في جبينه لألاءُ
إنّها اللؤلؤ الذي فضح البحر ... فأخفت أصدافها الدأماءُ
وتجلّى المجلي فجلاّ نهاراً ... فعلى الفكر من سناه ضياءُ
فتوجّه للحكمة البكر سلها ... من له عندها اليد البيضاءُ
واستمعها تقول ذاك ابن زيـ ... ـن الدين اسمٌ سمت به الأسماءُ
فجّر الحكمة الإلهيّة العصما ... فراحت تعبُّ منه الظمآءُ
وعرا البعض حيرة ككسيح ... تتحدّاه قمّة شمّاءُ
ومتى ضمّت المزادة بحراً ... ومتى استوعب الجبال وعاءُ
كلنا سامع ولكن قليلٌ ... من يعي ما تقوله الحكماءُ
ومضى الركب والمواكب يحدو ... ها زعيمٌ دانت له الزعماءُ
من تراه يكون غير أبي خمـ ... ـسين لا بل سبعين فهو الرجاءُ
شدّه الواجب المقدّس للأر ... ض وقادته غَيرةٌ وانتماءُ
في ظروف خارت لها عزمات ... واستمرّ الشقاء وعمّ البلاءُ

وحـروب مـسـعـورة وكـروب ... عـنـدهـا الـخـوف والـغـلا والـوبـاءُ
حـيـث لـم يـبـق لـلـمُـقـيـمـيـن إلاّ ... ذلّـــة أو شـــهـــادةٌ أو جـــلاءُ
لـكـن الـقـائـد الـعـظـيـم تـصـدّى ... فـهـو لـلـسـيـل صـخـرةٌ صـمّـاءُ
فـمـضـى يـجـمـع الـشـتـيـت ويـرعـا ... ه ورعـــيـــاه ســـلـــوةٌ وعـــزاءُ
وغـدا «مـقـرّح الـقـلـوب» سـيـاجـاً ... ضـدّ مـا قـد تـثـيـره الأهـواءُ
وحـمـى عـلـمـه الـعـقـيـدة حـتـى ... كـشـف الـزيـف فـكـره الـوضّـاعُ
وإذا في جـهـاده الـعـلـم والـحـكـمـة ... يـرعـاهـمـا الـنـمـا والـثـراءُ
وإذا تـلـكـم الـمـبـانـي وقـد شـيّـد ... بـنـاء مـن فـوقـهـا وبـنـاءُ
لـقّـبـوه الـبـحـر الـمـحـيـط عـلـومـاً ... عـالـم سـلّـمـت لـه الـعـلـمـاءُ
عـنـده لـلـهـدى مـفـاتـيـح أنـوارٍ ... بـإشـعـاع نـورهـا يُـسـتـضـاءُ
ولـديـه يـلـوح لـلـعـلـم سـلـطـانٌ ... ولـلـفـكـر عـنـده أجـواءُ
فـمـشـت خـلـفـه الـجـمـاهـيـر تـأتـ ... ـمُّ بـنـجـم بـنـوره الاهـتـداءُ
وحـمـاهـا بـالـعـلـم والـمـال والـجـاه ... وزالـــت بـــيُـــمـــنـــه الأدواءُ
وقـضـا في الـجـهـاد عُـمـراً وعـمـر الـ ... ـمـرء كـنـزٌ سـبـيـلـه الانـتـهـاءُ
فـطـوتـه يـد الـردى ومـضـى الـشـيـ ... ـخ ولـلـمـوت يـولـد الأحـيـاءُ
وأُريـعـت بـمـوتـه حـوزة الـديـن ... ومـادت أرضٌ ومـارت سـمـاءُ
وقـضـت بـعـده الـجـمـاهـيـر قـرنـاً ... وهـي تـبـكـي ولا يـزال الـبـكـاءُ
كـلّ هـذا الـبـكـا ومـا خـلـت الـ ... ـسـاحـة بـل قـام بـعـده الأبـنـاءُ
حـمـلـوا فـكـره فـأغـنـوا وأقـنـوا ... ورُبّ ابـنٍ تـحـيـا بـه الآبـاءُ
بـعـد ذا أشـرق الـزمـان بـمـوسـى ... والـخـمـاسـيـن دوحـة مِـعـطـاءُ
وإذا ابـن الأخ الـيـتـيـم وقـد ... شـبّ نـجـيـبـاً جـاءت بـه نُـجـبـاءُ
أخـذ الـدور في اقـتـدارٍ عـجـيـب ... لـيـس لـلـسـيـف عـزمـه والـمـضـاءُ

جاء والناس في خلافٍ وخبط ... وخصام طاشت له الآراءُ
فرآى الداء والدواء لديه ... فشفاها وزالت الأدواءُ
يقتدي الناس بالإمام فإن زا ... د صلاحاً فكلهم صلحاءُ
واستمرّت مسيرة العلم يرعا ... ها فقيه منتوجه فقهاءُ
وقضاها سبعاً وخمسين عاماً ... أثقلتها الهموم والأعباءُ
هي قرنٌ في جسمه حيث هدّته ... وقرنٌ حيث استفاض العطاءُ
شيّعته البلاد بالندب والسكب ... ولله في الورى ما يشاءُ
وبكته من غير يأسٍ ففي الأحساء ... خصبٌ وفي العقول نماءُ
ما خلت ساحة الجهاد فقد أشـ ... ـرق في الأرض كوكبٌ وضّاءُ
إنه نجل هاشمٍ ناصر الدي ... ـن تجلّت في وجهه الآباءُ
عرفته رجالها النجف الأشـ ... ـرف قُطباً دارت عليه الرحاءُ
واحتوته حوزاتها فهو أستاذٌ ... عليه تخرّج الفقهاءُ
أمسكت دفّة السفينة يُمناه ... بعزمٍ ذلّت له الأنواءُ
وتلته من بيته آل سلما ... ن هداةً وسادةً نُجباءُ
فيهم الزهد والنزاهة في الحكـ ... ـم وبالزهد يعظم العلماءُ
ثم عادت أدراجها فتلاقى ... للمهمات باقرٌ والقضاءُ
باقر العلم والثقافة والرأ ... ي الذي تهتدي به الآراءُ
باقرٌ جامع التراث ومُحييـ ... ـه كَمَيتٍ أتى عليه العفاءُ
ولنا بعده وللعلم جيلٌ ... صاعدٌ يُبتنى عليه الرجاءُ
تلك أحساؤنا منارة إشعا ... ع وللدين قلعة شمّاءُ
ومجال الحديث رحبٌ ولكن ... في طويلٍ لسامعيه عناءُ

ملاحق الكتاب

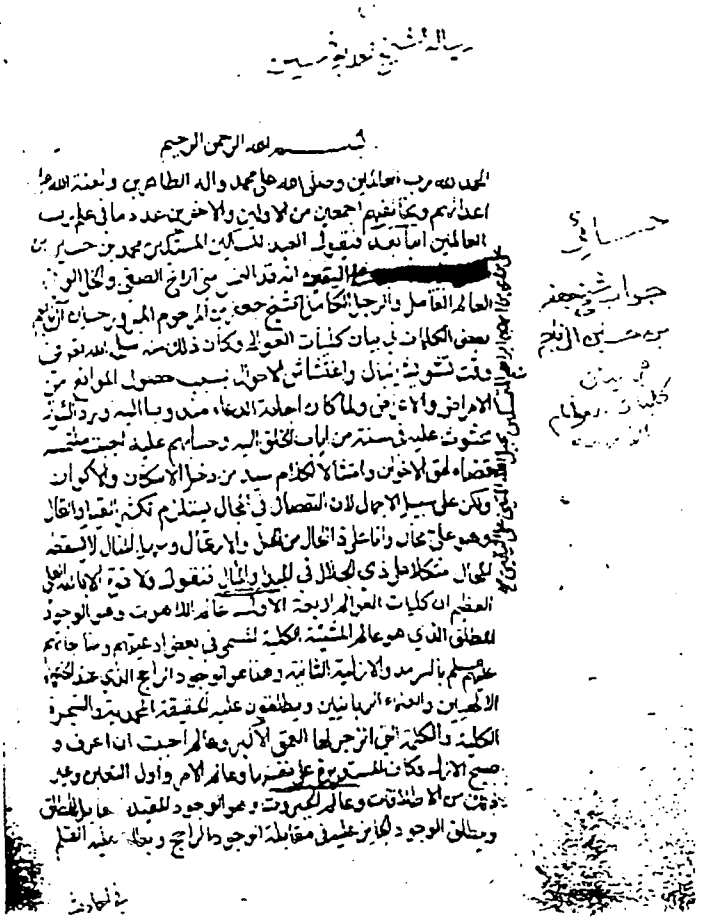

صورة الوثيقة المشار إليها في صفحة ٤٧ وهي تثبت النسب إلى الجد إبراهيم

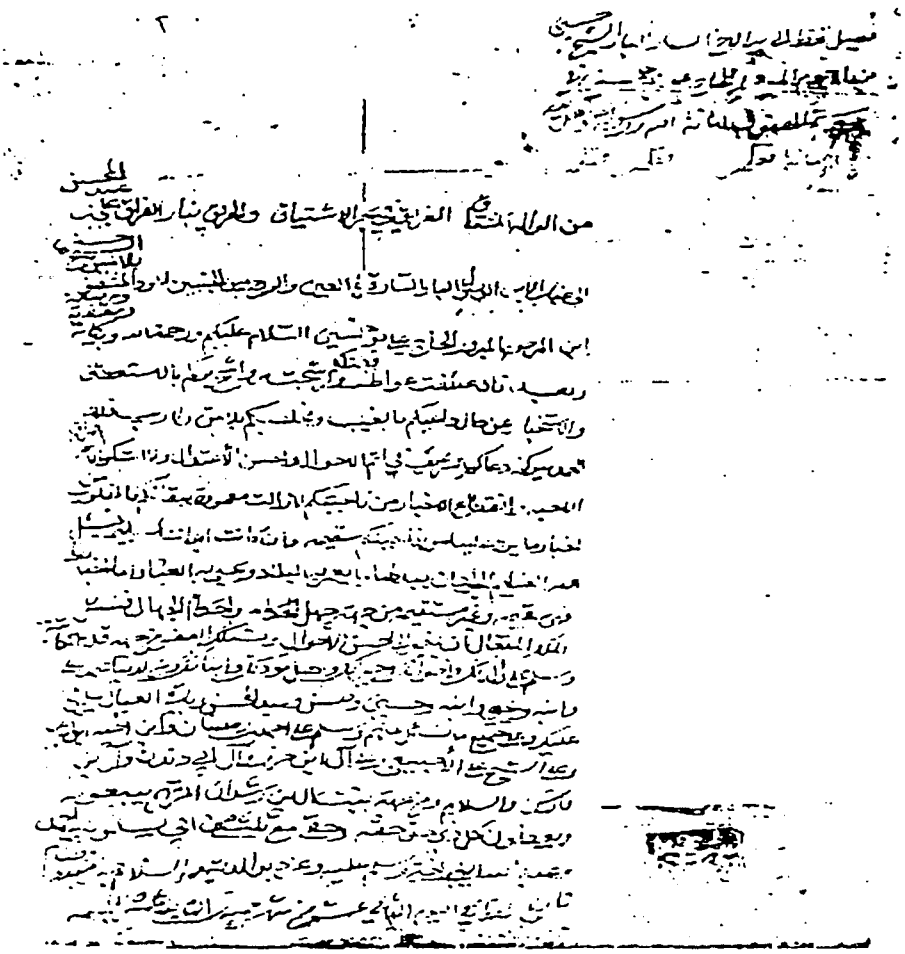

صورة الوثيقة المشار إليها في صفحة ٤٨ وهي رسالة إلى الشيخ حسين من العراق

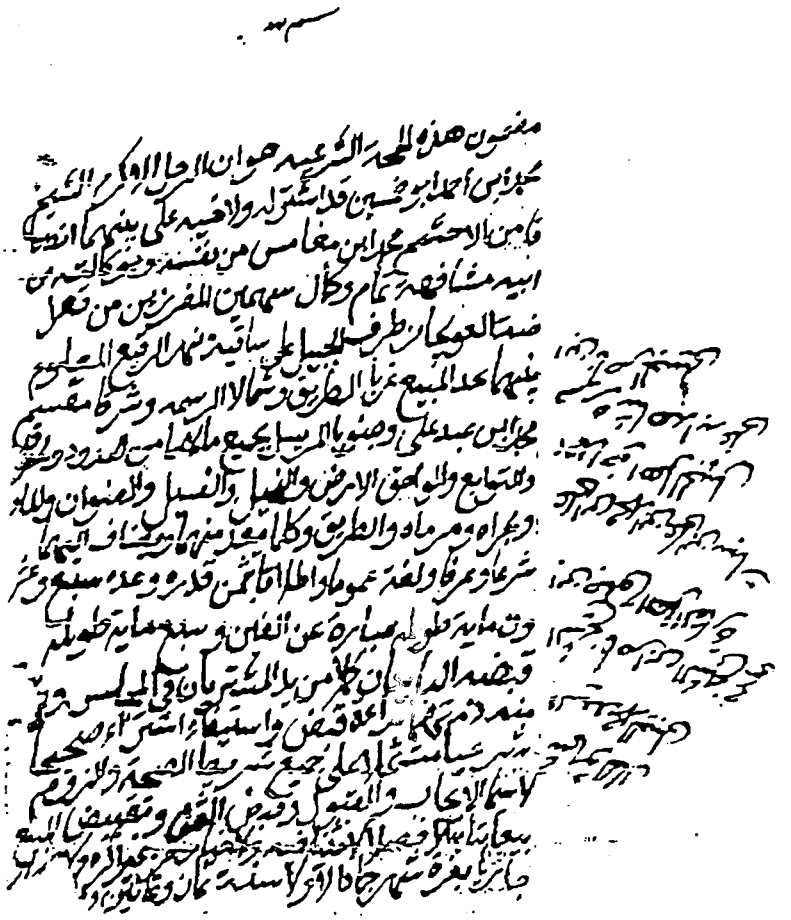

صورة الوثيقة المشار إليها في صفحة ٥٠ وهي تثبت أن الشيخ محمد الكبير

كان حياً عام ١١٨٨هـ

صور من إجازات المترجم المشار إليها في صفحة ٨٤

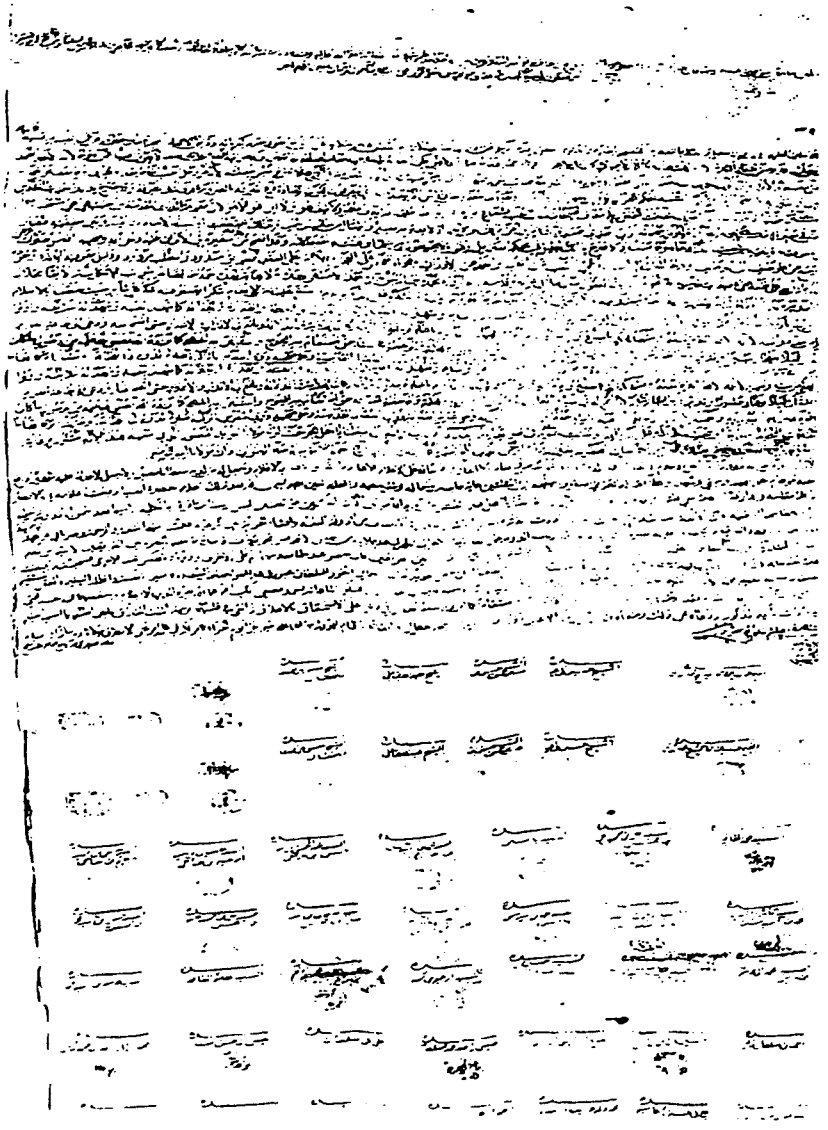

صورة الوثيقة المشار إليها في صفحة ٩٣ وهي الرسالة الموجّهة من المترجم للسلطان عبد الحميد بن السلطان عبد المجيد العثماني

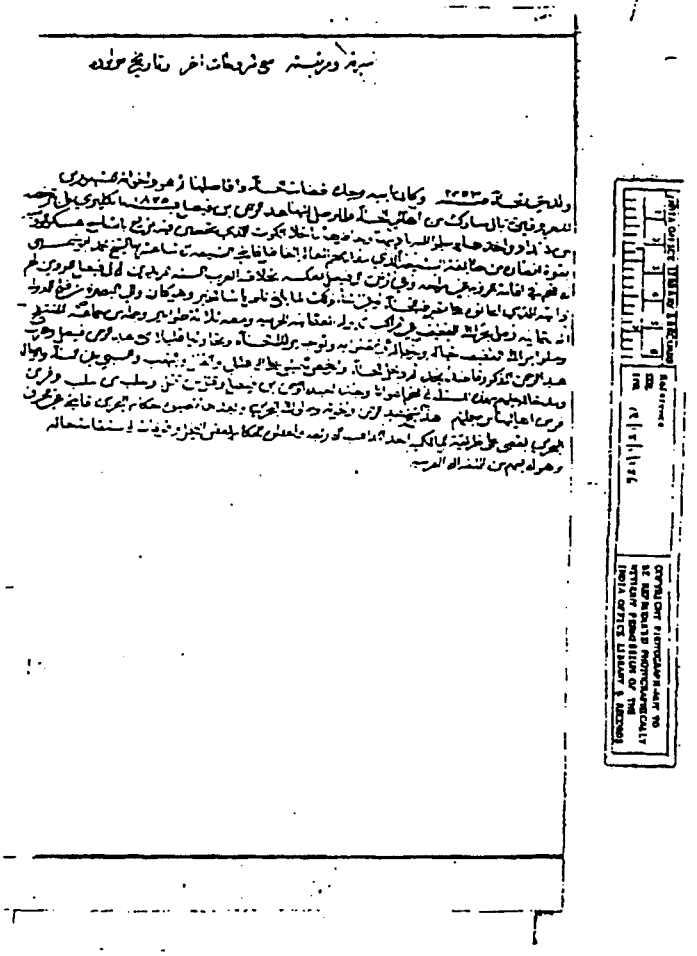

صورة الوثيقة المذكورة في الصفحات ١٠٠، ٢٠٠ والتي تبين مشاركة المترجم مع الأتراك في صد جيش الإمام عبد الرحمن آل سعود

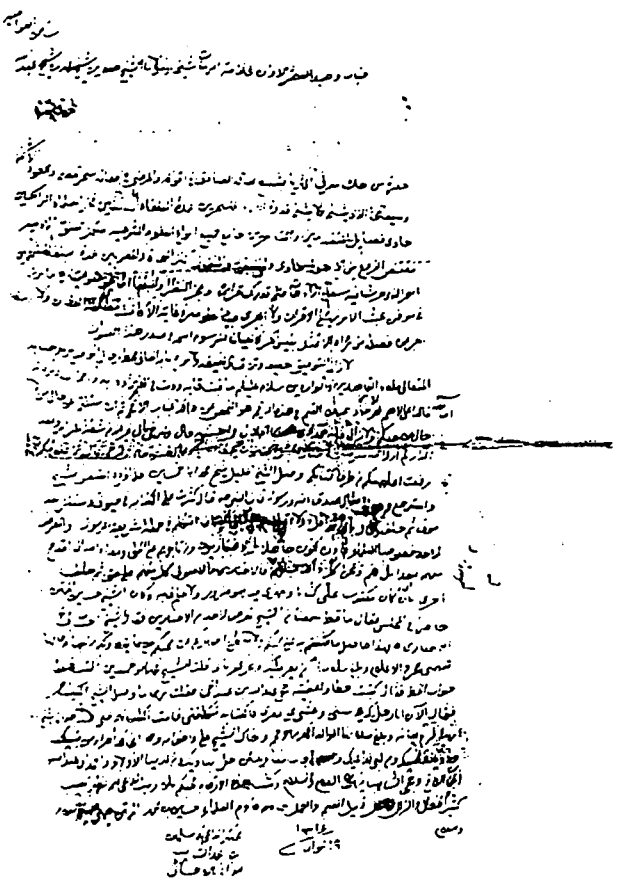

صورة الوثيقة المصرح بها في صفحة ١٠٨ وهي رسالة المترجم

إلى الشيخ أبي المكارم

لقطة من اللقاء مع الحاج علي الجبر المشار إليه في صفحة ٢٠٨

صورة المرحوم الحاج أحمد العبدي تغمّده الله برحمته المذكور في ص ٢٠٣

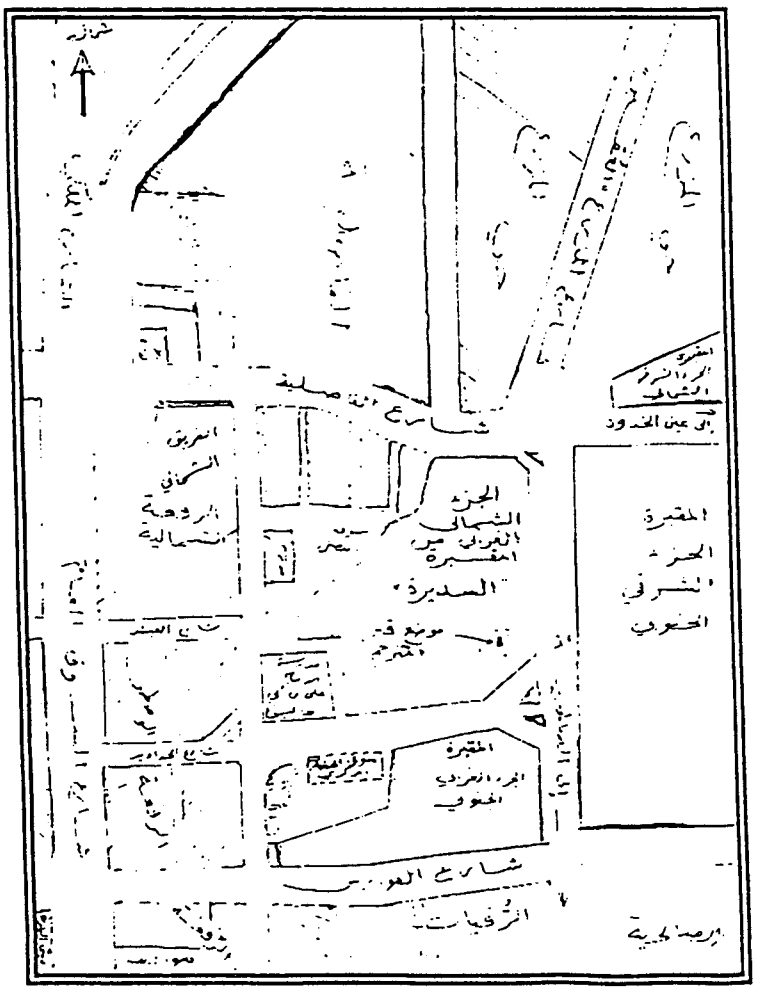

رسم كروكي يوضح موضع القبر في منطقة سوق الخضار المركزي بالهفوف والمشار إليه في هامش الصفحة ٢٠٠

الفهرس

الإهـداء ٩
تقديم ١١
المقدمة ١٣
ـ ١ ـ ١٥
ـ ٢ ـ ١٩

الباب الأول: إبان عهد الطفولة..!

الفصل الأول: في ضمير الغيب ٣٣
أصل الشيخ ونسبه ٣٦
الفصل الثاني: قبيلة آل أبي خمسين ٣٩
الفصل الثالث: إسم الشيخ وآباؤه ٤٥
أبوه: ٤٧
جدّه الأوّل ٤٩
جدّه الثاني ٥٠
جدّه الثالث ٥٠
الفصل الرابع: مولده ونشأته ٥٣
العودة إلى الوطن ٥٥

الباب الثاني: إبّان عهد الشباب..!

الفصل الأوّل: استراحة المحارب ٦١
مزاولة الأعمال الحرّة ٦٤
الفصل الثّاني: نقطة التحوّل في حياته ٦٧
متابعة الطريق العلمي ٧٠

الفصل الثالث: العودة الثانية للوطن ٧٣
الفصل الرابع: شيوخه وأستاتذته ٧٩

الباب الثالث: إبّان عهد المرجعيّة..!

الفصل الأول: فعاليته الاجتماعية ٨٩
أولاً: تشكيل لجنة لإصلاح ذات البين.. ..... ٩٣
ثانياً: بناء العلاقات العامة في المجتمع... ..... ٩٤
ثالثاً: مجلس القضاء الشّرعي... ..... ٩٤
رابعاً: مزاولة الأنشطة الدينية... ..... ٩٥
خامساً: تأسيس الحوزة العلميّة... ..... ٩٧
سادساً: حماية المجتمع من التصدّع الداخلي... ..... ٩٧
سابعاً: مدّ الجسور مع الجهات الرسميّة.. ..... ٩٨
ثامناً: المشاركة في صدّ الهجمات الخارجية.. ..... ٩٩
الفصل الثاني: مكانته العلمية ١٠٣
الفصل الثالث: وقالوا فيه ١١١
الفصل الرابع: حوزته العلمية ١٢١
أوّلاً: الحوزة العلمية ١٢٣
ثانياً: تلامذته: ١٢٦

الباب الرابع: دُرَرٌ من السيرَة الذاتيّة..!

الفصل الأوّل: الرحلة إلى العرفان ١٣٥
الفصل الثاني: من فيوضات يراعه ١٥١
الفصل الثالث: من قسمات شخصيته ١٨١
أولاً: شخصيّة الجدّ والفاعلية... ..... ١٨٤
ثالثاً: الشجاعة والحزم.. ..... ١٨٦
رابعاً: فراسة المؤمن وسرعة البديهة ١٨٦
خامساً: الجود والكرم... ..... ١٨٧
سادساً: التواضع الجمّ... ..... ١٨٨

سابعاً: الزهد والنصيحة... ..... ١٨٩
ثامناً: القدرة الإدارية... ..... ١٨٩
تاسعاً: القدرة على صنع الكوادر... ..... ١٩٠
عاشراً: الروح الاجتماعية... ..... ١٩١
الفصل الرابع: عندما حان الرحيل ١٩٥
مثواه الأخير..! ٢٠٠
تحديد يوم الوفاة ٢٠١
بعث صورة له ٢٠٣
ذكراه المئوية ٢٠٨
أولاده وأحفاده ٢١٠

الباب الخامس: أصداء وفاته..!

القصيدة الأولى ٢١٩
القصيدة الثانية ٢٢٣
القصيدة الثالثة ٢٢٦
القصيدة الرابعة ٢٢٩
القصيدة الخامسة ٢٣٢
القصيدة السادسة ٢٣٧
القصيدة السابعة ٢٤١
القصيدة الثامنة ٢٤٦
القصيدة التاسعة ٢٤٧
القصيدة العاشرة ٢٤٩
القصيدة الحادية عشرة ٢٥١
القصيدة الثانية عشرة ٢٥٣
القصيدة الثالثة عشرة ٢٥٦
القصيدة الرابعة عشرة ٢٥٩
القصيدة الخامسة عشرة ٢٦٢
الفهرس ٢٧٨

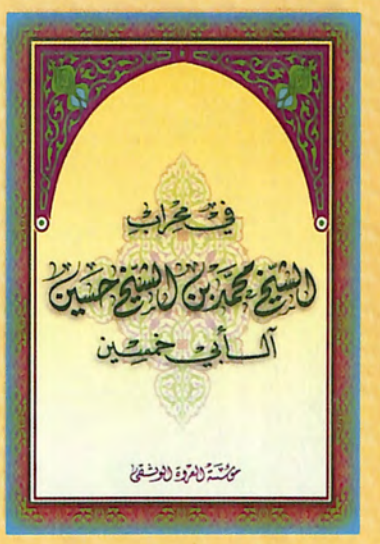

مؤسسة العروة الوثقى للطباعة والنشر والتوزيع
حارة حريك - شارع دكاش - هاتف: ٠١/٥٤٠٩٥٢ - ٠٣/٦٠٦٨٢٩